كلمة العدد

الاستمرار على درب الأصالة

لم يفتأ العرش العلوي يواصل زحفه الاسلامي المقدس على بركة الله لبناء المغرب الجديد فى أعقاب المسيرة الخضراء المظفرة التي كانت حدا فاصلا بين الحق والباطل وبداية لعهد مشرق وضاء التام فيه شمل الامة بعد فرقة وانفصام وتمزيق فرضه الاستعمار فرضا .

واذا كان التحام العرش بالشعب أحد العوامل الاساسية التي عجلت بتحرير الصحراء المغربية ، فمن شأن هذا الالتحام المبارك أن يؤدي بنا الى ترسيخ قواعدنا وتدعيمها وتسييج مكتسباتنا بسياج من الوحدة والتضامن والتعاون المشترك تحت لواء العرش القائد الى ان نحقق لشعبنا أهدافه الجليلة ومقاصده النبيلة .

ولقد كانت المسيرة القرآنية المباركة تجسيما حيا لعبقرية العرش العلوي ، وجاءت فى الوقت المناسب لتضع الاطار الكامل لكفاح العرش والشعب ، وتتوجه بذلك الانتصار الباهر الذي اغاظ الجاحدين والمتنكرين لحقيقة الاشياء .

ومهما تغنت الاجيال المغربية بأمجادها الخالدة ، فلن تلقى مثل المسيرة الخضراء رمزا للبطولة والاصالة والعراقة والمجد وعلو الشأن .

وكما يحدث دائما فى المواقف الحاسمة التي يتخذها العرش لتمكين السيادة الوطنية ، كان القرآن الكريم ملهما لجلالة القائد الذي امتلأ قلبه بأنواره الربانية ، فلم يعد يلقي بالا الا لكلمات ربه : تحرك وجدانه وتعش روحه وتدفع به الى خوض غمار المعركة فى شجاعة وقوة وثقة وأمل ورباطة جاش .

وكذلك كان شان جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله مع المسيرة الخضراء ، فمن القرآن الكريم استوحى فكرتها ، ومن سيرة جده المصطفى صلى الله عليه وسلم استمد معانيها ، ومن تاريخ اسلافه المنعمين اقتبس واخذ ما وسعه الاقتباس والاخذ ، فكانت بهذا الاعتبار مسيرة قرآنية ، ردت الحق الى نصابه ، وأعلت كلمة الله فى ربوع صحرائنا المحررة يحميها ويرعاها سبط رسول الله مولانا أمير المؤمنين جلالة الحسن الثاني نصره الله .

ولقد حرص جلالته دائما على تأكيد ارادتنا فى التمسك القوي بحقوقنا فى مناطقنا الصحراوية وأعلن حفظه الله ان لا تنازل ولا تفريط فى شبر واحد من أراضينا المسترجعة . وبذلك تكون سياسة العاهل المفدى مستجيبا لتطلعات الشعب الذي هب فى أواخر السنة الماضية للمشاركة فى المسيرة الخضراء ، وها هو اليوم يسارع ألى المشاركة فى الاقتراض الوطني لتنمية الصحراء .

ولا يزال مولانا أمير المؤمنين أعز الله أمره يهيب بشعبه المؤمن الى التشبث بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها والعض بالنواجذ على مقدساته وعقيدته ومقومات وجوده . وهي الدعوة التي ما فتىء أعزه الله يصدع بها فى قوة ووضوح وعزم منذ أن اختاره الله سبحانه وتعالى للاضطلاع بامانة الحكم على سنة الله ورسوله .

وهكذا ، لن تنال منا تحرشات أعداء الحق ، ولن تفت فى عضدنا مناوشات خصومنا الذين يجهدون انفسهم ويستنزفون امكانيات بلادهم لحملنا على التنازل والرضوخ لارادتهم الظالمة .

وليس من شيم هذا الشعب المسلم العربي أن يفرط فى الحق أو يضعف أمام الباطل أو يستكين للطغيان مهما عظم شأنه ، ومنذ ان أكرمنا الله تعالى بهذا الدين ونحن جنوده المخلصون نذود عن الحمى ونحرس الثغور ونقيم للاسلام فى هذه الديار دولة وعرشا من المولى ادريس الاكبر رضي الله عنه الى جلالة الحسن الثاني ايده الله .

وتلك أمانة المغرب المسلم ...

وذلك قدره ودوره ورسالته ..

واذا كانت مؤشرات السياسة الدولية تؤكد اضطراب الاوضاع فى كثير من مناطق العالم بسبب تنازع المذاهب وتصارع الايديولوجيات وتداخل المصالح والنفوذ ، فاننا ـ ولله الحمد ـ فى منأى عن ذلك كله بفضل اسلامنا وعرشنا ، وبجهد عاهلنا المؤمن الذي يعرف كيف يقود السفينة ، وسط الامواج الصاخبة فيسلك بها دائما طريق الامن والامان والسلامة والاطمئنان .

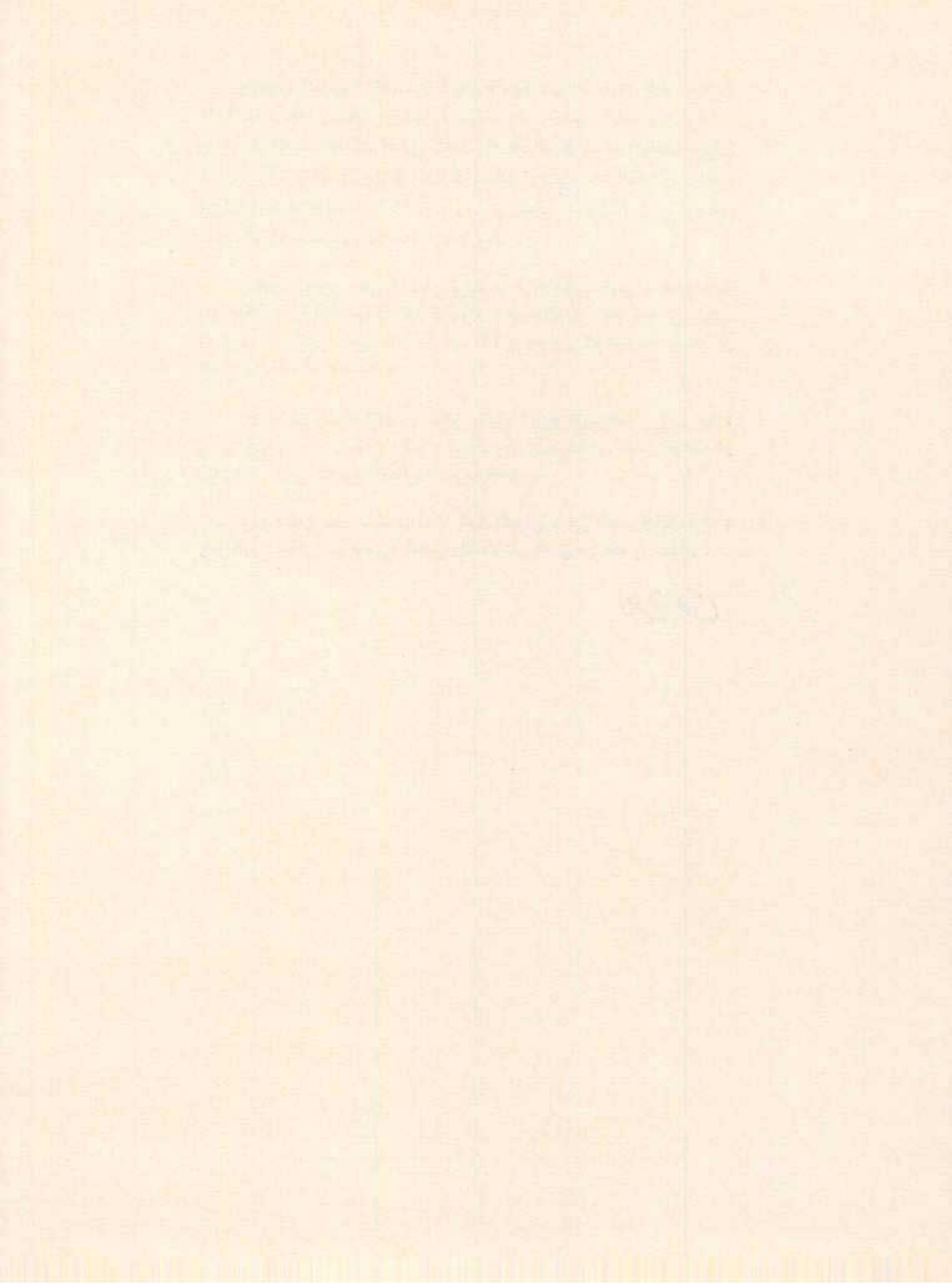
وتنهض المسيرة الخضراء المظفرة دليلا على استقامة خط سياسة بلادنا بما سبقها وتخللها وأعقبها من مواقــف واختيــارات وقــرارات ومبادرات اكدت كلها تلك الصورة المشرقة للقيادة الرشيدة المدعمة بالراي السديد والعزم الوطيد والنظر البعيد ، والمعززة برجاحة العقــل ، وقوة الارادة والشجاعة والحكمة والتبصر وحسن التدبير ، الامر الذي يعتبر بحق ضمانا قويا للغد ، ورصيدا حضاريا لا ينفذ .

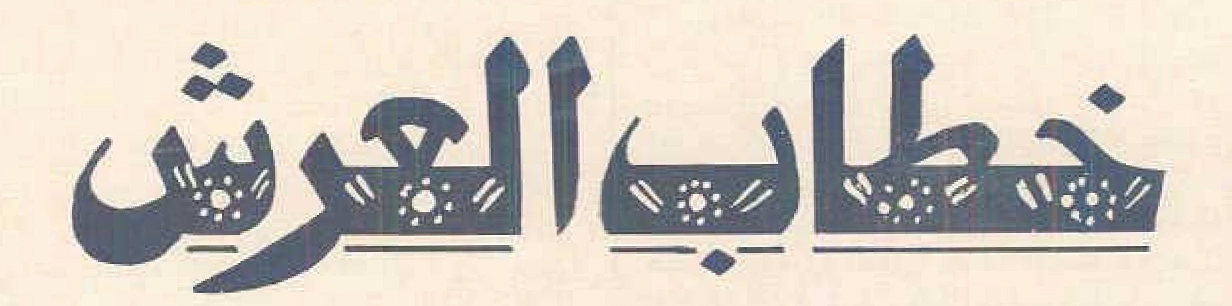
وتلك ـ بحق ـ هي الاسس الرئيسية لبناء مغرب قوي . يملك طاقة المواجهة وقدرة التحدي وارادة الاصرار ، فى عالم لا ينجو فيه من الهلاك والانهيار الا الدول القوية القادرة على التاثير وفرض الوجود بما يضمــن السلم والرخاء لشعبهــا .

وهذه هي رسالة الحسن الثاني سليل الملوك الاشراف : يؤمن بها ، ويرى فيها وسيلة لتحقيق ارادة شعبه ، ويستشعرها فى كــل موقف او مبادرة او خطوة يخطوها لصالح المغرب العظيم .

وهو ايمان تجلى ـ كاشرق ما يكون التجلي ـ فى المسيرة الخضراء ، وهو اليوم يتجلى فى مسيرة الخير والنماء على هدى من الله ورضوان .







الحمــــد للــه

والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

اخاطبك شعبي العزيز وانت حيثمـــا أنت مـــن شمالك الجديد وجنوبك الجديد تحتفل وايانا بالذكرى الخامسة عشرة لذلك اليوم الذي استخلفنا الله فيه على عرش اسلافنا المقدسين والقى الينا بزمام أمرك ومقاليد الحكم لاسعادك واعلاء شان وطنك بين الامصار والاقطـــار .

اخاطبك شعبي العزيز وقلوبنا المجتمعة المؤتلفة مترعة بالمسرة ممتلئة بالاعتزاز طافحة بحمد الله الذي اثاب السعي فأجزل الثواب . جياشــة بالامــل أن تتواصل خطانا موفقة بتأييد الله وتسديـــده مؤزرة بحوله وطوله .

ان الذكرى التي نحتفل بها اليوم احتفال الشاكر بسوابغ النعم والآلاء الراغب في استحقاق المزيد من الانعام والافضال لتوافي محفوفة ببشائــر اليمــن وطوالع السعد وقد من الله على البلاد بتاهيلها لطي مرحلة استقلال بعد احتلال تلاحقت اعوامها العشرون حافلة بالطائل من التفكير والتدبير والوافر من الاهداف والقطاف وتناهت احقابها المجيدة مكللة باستيفاء حق طالما تعلقت به القلوب واسترجاع جزء عزيز مـــن التراب الوطني شد ما ترامت اليه المطامح والامال .

وان قطعنا فائزين لهذه المرحلة وتذليلنا لمـــا لقيناه عبرها من عقبات واحرازنا لما احرزناه خلالها من جني الثمرات وتحقيقنا لما حققناه من اجتمـــاع للشمل بالصحراء ووحدة لتراب المملكة ان هذا كلـــه لمن شأنه ان يضاعف المسرة باحتفالنا اليوم ويضفي على هذا الاحتفال مظهرا وحلة أكثر بهاء وأعظم رواء من سالف الحلل وسابق المظاهر .

مسلــك جديــد وسيــر حثيــث

انك لتعلم شعبي العزيز الكثير مما يســـر الله طوال هذه المرحلة المطوية من جلائل الاعمال وما هيأ من ناجح المساعي وحشد في رحابك من خير وانك لتعلم بالاضافة الى هذا ان كل خطوة خطوناها وكـــل هدف ادركناه وكل تقدم حققناه في جميـــع المجالات التي تولتها العناية واحاط بها الاهتمام تعلم ان كـــل

ربح من هذه الارباح سن لنا مسلكا جديدا وحتم سيرا حثيثا وولد مطمحا ارقلت نحوه الهمة واشتد عليه الحرص لاننا واياك لا نقنع لوطننا بالقليل ولا يرضينا من التطوير والتحوير والتجديد والتشييد والابداع والابتكار الا ما يؤمن لك ولذريتك الحاضر الذي يصح به الاعتداد والمستقبل الذي تطمئن اليه نفسنا ونفوس الاجيال الصاعدة وترتاح .

وان نظرة فاحصة نلقيها على مخططاتنا ما سلف منها وما هو رهن التنفيذ والتحقيق وتجول بها خلال المشاريع الموضوعة المنجزة والمشاريع التي يتناولها الانجاز كل يوم وتتولاها العناية كل حين لخليقة بأن تدلك على ان التنمية المطلوبة حقيقة ملموسة يطرد مفعولها ويتسع ويتكاثر وتتواصل فوائدها وتتلاحق وتتوافر وانك قاصد لا تجوز عن مسالك الامن والامان وبالغ شاوك الموعود . واذكر ما اقلق منذ زمن يسير اقتصاد بعض الاقطار من نوائب وحل به من مكروه وتأمل فيما تكابده بعض الدول من شدائد وتواجه من أزمات وقارن بين احوالك المطمئنة الآمنة السليمة وبين غيرها من الاحوال المضطربة العسيرة ، فانك ان قابلت ووازنت شاكرا لله ما أولاك واعطاك والهمك فهداك .

ولم يكن انصراف وطنك شعبي العزيز الى توطيد اركانه في داخل البلاد وخارجها ولا اهتمامه بشؤون الاقتصاد والاجتماع ولا عنايته بما يغني الفرد بالمكسب بعد المكسب ويصور المجتمع صورا متتابعات يفضي الحسن منها الى الاحسن والفاضل الى الافضل . لم يكن كل هذا شعبي العزيز بمنسينا قضية من قضايانا الكبرى اولنياها منذ فجر استقلالنا ما هي خليقة به من الرعاية قمينة به من الاشتغال تلك هي قضية أراضينا التي لم يشملها الانعتاق فظلت رهينة الاحتلال بعدما انعم الله على اراضينا الاخرى بنعمة التحرر من الارهاق والاغلال فعالجنا هذه القضية بما كان يجب ان تعالج به من المطالبة التي لا تكل ولا تسأم والصبر الذي لا ينتكس ولا ينهزم والمسايرة التي لا تفرط في الحق ولا تستهين ما التعلق والاصرار بالحفاظ على اواصر الصداقة التقليدية واذمة الجوار ، واتت طريقة المحادثة والحوار اولى ثماراتها المرجوة فلحق اقليم طرفاية بغيره من اقاليم المملكة ثم انسلكت بعد اعوام منطقة سيدي افني في سلك الاجزاء المحررة ، بيد ان صحراءنا التي يتمثل فيها جزء كبير من ترابنا الوطني تعسر استرجاعها على ما واصلناه في سبيلها

من أفانين المطالبة وضروب الاقتضاء وساورتنا الخشية ذات يوم ان يضيع حق ثابت من حقوقنا ويضل بحكم تدبير انفرادي بين الاطماع المتطاولة والشهوات المتاججة ارث انتقل الينا على مدى ازمان متعاقبة ووديعة من ودائع تاريخنا المجيد تداولناها امانة مستحفظة كابرا عن كابر وخلفا عن سلف .

اتضحت لنا معالم الطريق

وكان من آثار هذه الخشية ان حاولنا محاولة من صنف جديد واتخذنا سببا آخر غير ما تقدم اتخاذه من وسائل وأسباب مؤملين ان ينتهي الامر بالاقرار لحقوقنا والاعتراف بأن ارض الصحراء المحتلة جزء لا يتجزأ من ترابنا فاقترحنا على منظمة الامم المتحدة ان تحيل قضية صحرائنا على المحكمة الدولية للعدل فلما صدر قرار المنظمة الاممية مستجيبا لرغبتنا انتظرت كما انتظرنا بتطلع واستشراف كلمة القضاء الدولي وقد نيط الامل بعدله وانصافه . وصدعت المحكمة الدولية بحكمها واضعة حدا للنزاع كاشفة عن الحق القناع معلنة ما بين عاهلك ووطنك وبين أرض الصحراء واخوتك في الصحراء من روابط الرحم والنسب واواصر البيعة والقانون فاتضحت لنا آنئذ معالم الطريق واستبان لنا وجه الصواب ولم يبق الا ان نلبي دعوة الواجب الاوكد ونقوم بأداء الفرض المفروض فسارعنا الى مخاطبتك محللين شارحين مهيبين بالاخذ والانتزاع باسطين لوسيلة الاسترداد والاسترجاع ، وما كدنا نفرغ من خطابنا الذي اذاع النداء ورفع السجف عن المسيرة الخضراء حتى تعالت من حماستك الاصوات وتجاوبت في تلبيتك الاصداء واحتشدت بعد ذلك جماهيرك على ابواب مكاتب التسجيل رافعة عقيرتها بطلب المشاركة جاهرة بحرصها على نيل شرف الاسهام وانطلقت افواجها متدفقة مندفعة تعج بها المدن والقرى وتسيل بها الانحاء والارجاء . وقد تفجر الفرح عارما في القلوب وطما الاعتزاز مستفيضا في النفوس وسرى اليقين مسرى النور في حشدك وجمعك بأن الله قد أتاح للمغرب ان يكتب صفحة جديدة رائعة من اروع صفحات تاريخه الحفيل وتطاير نبأ المسيرة الخضراء في الآفاق فتلقاه الاشقاء والاصدقاء نبأ سعيدا بحادث سعيد وبذلوا لعزمك الوطيد ومسراك العتيد الوانا من التشجيع والتأييد واشكالا من المساعدة والمساندة وتلفتت اليك الانظار واغرى بك الاهتمام واستفاقت على ازيزك وهزيمك الافئدة والاحلام .

توثقت الصلات وتآخت القلوب

وكان من ادعى الاشياء الى الاهتمام ان تتيسر للعدد الضخم من رجالك ونسائك وكهولك وشبابك أسباب الوصول الهنية الرضية الى المكان الذي اتخذناه ملتقى ومجتمعا للوافدين من جميع انحاء المملكة فعبأنا كل ما أمكن تعبئته من وسائل النقل وانطنا بالمدنيين والعسكريين ان يسهروا باشرافنا على احكام التنقل والمسير وارضاء الحاجات والمتطلبات المادية والادبية لتتهيأ احسن الظروف لنجاح المسيرة الخضراء ، وهكذا تنقلت مدة ايام عبر الاقاليم تقلك العربات وتحملك الشاحنات وتوفر لك الممكنات بالنظام والترتيب اللذين أفضيا بك فرحا جذلان الى محط الرحال ومجتمع الافواج في رحاب طرفاية على عتبة الصحراء . وانتظرت بضعة أيام تعرف في اثنائها انسان الى انسان وفوج الى فوج وتوثقت خلالها الصلات وتآخت القلوب ، فلما حان الوقت ودقت الساعة التاريخية وجهنا نداءنا بالانطلاق عبر الحدود واماطة الحواجز والسدود فتحركت مسيرتك الخضراء قاصدة ارض الصحراء هاتفة بالتهليل والتكبير يرفرف عليها لواؤك والوية الاشقاء والاصدقاء زاهية الالوان مزهوة بالحادث الداعي الى الاحتشاد والاتحاد الموعود بالنصر المكين والفتح المبين وسارت اقدامك واقدام انصارك ومحبيك ثابتة فوق الرمال والكثبان يحيط بها لطف الله الذي لا يعدمه من اخلص الايمان وتحف بها رعاية الباري الذي لا يخيب رجاء من اعتصم بحبله ولا يخيس بذمة من لاذ بكرمه وفضله وقطعتم اشواطا بعد العبور بصف مرصوص وجاش رابط وقلب مطمئن لم يبد منكم تردد ولا نكوص ولم يداخلكم جزع ولا وجل وتقدمتم رافعين لكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مزودين بزاد اليقين الذي يستغنى عن كل زاد سواه ، شاعرين بأنكم تبنون للمجد صرحا وتصنعون مصيرا وتدشنون عهدا جديدا مشهودا ؛ وسرى بمسراكم الخشوع في الصفوف فاتجهتم الى الله شاكرين لما أتم عليكم من نعمة وآتاكم من فضل حامدين ما يسر لكم من تجربة وخولكم دون غيركم من حظ وسن على ايديكم من فتح .

ورد الله اليك الصحراء

ولم يمض — شعبي العزيز — على مسيرتك الا ايام قليلة احسست طيلتها بأروع ما يمكن ان يخامر النفس البشرية من احساس حتى تبلج الصبح ووضح الحق المبين وترعرع بعد الشك اليقين وبان للناظرين ان مسيرتك صحيحة غير زائفة وانك جاد غير هازل وصادق غير كاذب فرد الله اليك الصحراء ويسر بينك وبين اقربائك واهلك التواصل واللقاء وأسبغ عليك وعليهم المنة والنعماء .

فالحمد لله الذي اظهرنا من ولائك واخلاصك وتعلقك والتفافك ووعيك وادراكك على ما أقر العين مرة أخرى وشرح الصدر واشاع المسرة والارتياح واطلعنا توكيدا بعد توكيد على المألوف في عادتك واخلاقك والمعهود من دابك واعرافك وله الشكر والحمد على ما هيأ لنا من صداقة الاصدقاء واخاء الاخوة الاشقاء الذين ساندوا وآزروا ونصروا وعززوا يوم دعوناهم فاستجابوا خفافا واستنهضناهم فنهضوا سراعا وان ننس فلن ننسى أبدا كريم مظاهرتهم وجميل مناصرتهم .

وهكذا شعبي العزيز يتوج الله مرحلة الاستقلال بعد الاحتلال بهذا الحادث الابر الاغر الذي ينبوا مكان الوساطة من العقد وبهذا المكسب الذي يسمو الى الذروة من شامخ المكاسب وبهذه المنقبة التي تضفي على البلاد من قشيب الاردية وفاخر الاثواب ما تلفعت به في سالف الازمان وغابر الاحقاب .

وهكذا شعبي العزيز تحل هذه الذكرى الخامسة عشرة متألقة متوهجة تحيط بها هالة المجد الموصول الطريف بالتليد المستقر طوال الاجيال والعصور على قرار شديد من الالفة والمحبة والاخلاص والوفاء .

مملكة جديدة

حاولنا شعبي العزيز ان نطلعك بايجاز واختصار على ما تلاحق من جهودنا في متعدد الانحاء ومتباين المجالات خلال العقدين الاخيرين اللذين اضطلعنا فيهما بالمسؤولية الكاملة لتدبير شؤوننا ، واذا كنا قد وفقنا بفضل هذه الجهود الى اجتياز عقبات وقطع مسافات وبلوغ حظ مشهود من المقاصد والغايات فان ما علينا ان نبذله من جهود بعد تحرير صحرائنا واستكمال وحدة وطننا واتساع آفاق العمل وانبساط رحاب الاهتمام والاعتناء ليهيب بنا ان تنطلق عزيمتنا اقوى شبابا وامد نفسا لمواجهة ما

صار لزاما علينا ان نواجهه فيما أصبح شمالا لمملكتنا وجنوبـــا .

ان مسيرتك الخضراء شعبي العزيز ودخولـك الصحراء أرض الامهات والاباء واستقرارك فوق هذا التراب المبارك يحكم ما لك من حق ثابت وسيـــادة متأصلة ، كل هذا جعل من مغربك مملكة جديدة وفرض علينا فروض الحدب والرعاية والنظر الذي لا يتعقب النقص والخصاص ويتفرغ لتلافي ما يجب تلافيـــه وتجديد ما يتعين تجديده وتشييد ما يبدو تشييـــده ضرورة لا مناص منها . اننا نذرع أرض الصحراء منذ شهور ونزرعها حبا وأمنا وسلاما ونوليها الكثير مـــن فيض القلوب والوفير من محض العقـول ونريدهـــا مطمئنة بالثقة عامرة بالآمال ناضرة بالاخضرار جنـة فيحاء وارفة الظلال ، وارادتنا هذه تقتضي ان نتصرف الى مجالات شتى وميادين مختلفة ونباشـــر التثقيف والتكوين والعلاج والتجهيز والتنقيب والاستثمـــار وكل ما من شأنه ان يبدل الصورة ويغير الملامح حتى تصير هذه الارض الحبيبة امتدادا للشمال وترتـدي من مطارف البهاء والجمال وملابس الرفاهية والازدهار ما يجذب الافئدة والابصار ويسعد رعايانا الابرار .

وقد شرعنا في تنفيذ ما استقام عليـــه الرأي واستقر عليه العزم واخذنا نضع الخطط ونعد المشاريع تستثيرنا الرغبة في الاصلاح وتستجيشنـــا الحرص على بلوغ ما نتوخاه لارض الصحـــراء ورعايانـــا في الصحراء من مقاصد واغراض .

لن يعوقنـــا عائـــق من مكابـــرة وعنـــاد

واذا كانت هناك محاولات مصدرها ما يستشري في بعض النفوس من حسد وطمع لشغلنا عما نرمـي اليه ونبتغيه وصدنا عن تحقيق ما نرتجيه للصحراء من نماء ورخاء فان عزمنا قوي على احباط كل تدبير يراد به تثبيط الهمم وشل العزائم ولن يصرفنا عن مساعينا الموفوقة على الخير ولا عن اعمالنا الضامنة للاسعاد صارف من تطاول وعدوان ولن يعوقنا عن مواصلـــة الاعداد بعد الاعداد ومتابعة الانجاز تلو الانجاز عائـــق من مكابرة وعناد واعتساف وانتزاء وسنظل متمسكين بحماية ترابنا مدافعين عن حوزة بلادنا مناضلين وقاية وتحصينا لمكتسباتنا . ان الصحـــراء صحراؤنا لـــم نغتصبها اغتصابا ولم نستلبها استلابا وانما هي جزء من وطننا كان محتلا فخلصناه . وعقيدا فاطلقناه ، لم نفزع الى وسيلة من وسائل العنف ولا الى ذريعة من ذرائع النهب والاختطاف .

لقد فاوضنا الدولة الاسبانية زمنا ما وسعتنـــا المفاوضة وحاورناها ما تيسرت لنا سبل المحاورة فلما تعذر الوصول الى الغاية المنشودة اجتمعت كلمتنـــا وكلمة شقيقتنا موريطانيا على الاحتكام الى أسمـــى محكمة دولية وجاء الحكم بعد الاحالة من لدن منظمة الامم المتحدة مؤيدا اوجهة نظرنا ووجهة نظر شريكتنا في المطالبة شقيقتنا الدولة الموريطانية. فسرنا عندئذ الى اخذ ما ثبت لنا من حق مسيرتنا السلمية الميمونـــة الرائعة التي اسفرت عن ابرام الاتفاق مـــع جارتنـــا وصديقتنا الدولة الاسبانية وتم بعد ذلك اقرار الاتفاق من لدن منظمة الامم المتحدة ومن لدن رعايانا الاوفياء في الصحراء الذين اعلنوا بيعتهم لنا بوصفهم الممثلين بصورة لا تقبل النزاع والخلاف بجميع سكان الصحراء والنائبين عن هؤلاء في التعهد والالتزام .

قواتنا المسلحـــة الملكيـــة واقفـــة بالمرصـــاد

ان الذين يمارسون المضايقـــات ويســـاورون بالاعتداءات ويحتجون بالحجج الواهيات ويقحمـــون انفسهم في شؤون غير شؤونهم ويرتمون الى ديـــار غير ديارهم قد افتضح امرهم وتعـــرت اطماعهـــم وشهواتهم واهواؤهم وان اجتهـــدوا في التلبيـــس والتدليس وجدو في الاختلاق والافتراء .

اننا نعد كل اعتداء يخل بأمن وطننا وسلامتـــه افتئاتا على حقوقنا وتحديا لسيادتنا يستوجبان منـــا الصرامة التي لا مجال معها للمهاودة والموادعـــة واذا كنا أمة مهادنة مسالمة كارهـــة للحرب وما تحملـــه الحرب في طياتها من فجائـــع ورزايـــا فاننا غيـــر مستعدين لاداء ثمن حرصنا على السلم واستنكافنـــا مما يترتب عن المواجهة العنيفة من شنيـــع الآثـــار بالتنازل عن حق من حقوقنا والتغاضي عـــن امتهـــان حرمة من حرماتنا .

تحية تنويه وتقدير ورضى لقواتنا المسلحـــة

ان قواتنا المسلحة الملكية التي تقوم الى جانب سلطتنا الادارية وجميع موظفينا باسعاف رعايانا في الصحراء ومساعدتهم ضروبا في المساعدة والاسعاف لواقفة بالمرصاد لكل من تسول له نفسه من الطامعين

المتهافتين الاجتراء على ترابنا الوطني بالترامي والانتهاك وقد برهنت قواتنا المسلحة الملكية غير ما مرة عن وفائها لشعارها وناضلت نضالا مستميتا دفاعا عن حوزة الوطن وصدا لعدوان المعتدين بالشجاعة التي تناقلتها الاخبار والبطولة التي شهد لها الاعجاب والاكبار فالى الله العلي القدير يتضرع قائدها الاعلى بالدعاء ان يؤيد بلاءها الجميل بعونه وتوفيقه ويكافأ اخلاصها لمصالح البلاد ومثلها العليا باحسن ما يكافؤ به العمل المصروف لوجهه ، الموقوف على مرضاته ؛ والى قواتنا المسلحة الملكية وقواتنا المساعدة وقوات الدرك والشرطة نوجه في هذا العيد الوطني الاغر معربين عن مشاعرنا ومشاعر الامة باجمعها تحياتنا الخالصة مشفوعة بالتنويه والتقدير مقرونة بالرضى والارتياح والاعتزاز والافتخار .

واذا كان من بواعث مسرتنا وابتهاجنا ان ننوه ونشيد بمواقفها البطولية وبما كتب الله ويكتب لها من نصر فان ما علينا من واجب النصح لها والارشاد ليفرض علينا ان نسترعي بالها الى ان كل انتصار ايا ما كانت صفاته وابعاده يستدعي ان يبقى لهيب الحماسة متوقدا في نفوسها وبظل الاحتراس والاحتياط سمتين لازمتين من سمات اعمال الليل والنهار وشعلة متوهجة في الافئدة لا تنطفىء ولا تخبو .

موقف الجزائر من صحرائنا لا يستند الى مشروعية

واخلق بنا بعد هذا كله ان نلفت نظر الجزائر الى ان تدخلها السافر في شؤون صحرائنا لا يعني الا شيئا واحدا وهو انها بتكلفها ما تتكلفه وتجشمها ما تتجشم تضيع وقتا ثمينا فيما لا غناء فيه ولا خير من ورائه واحسن لها واجدى أن تصرفه فيما يعود عليها بالربح المحقق والفائدة الظاهرة ، ان المغرب سيبقى في الصحراء كلف ما كلف بقاؤه من ثمن وتضحيات .

بيد اننا نناشد الجزائر ما بيننا وبين شعب الجزائر من نسب وقرابة ورحم ان تجتنب من المبادرات والاعمال ما تسيل به دماء الاقرباء والاشقاء وتتولد به الشحناء والبغضاء ؛ ونقول للجزائر ان الاثم الذي ترتكبه بالتسبب في اراقة الدماء وازهاق الارواح وفسح المجال للكراهية والبغضاء والمرارة والالم لتنوء وحدها باوزاره وتبعاته . ان تصرف الجزائر وموقف الجزائر من صحرائنا لا يستندان الى مشروعية ولا يقومان على اساس يمكن تبريره والتماس العذر له بوجه من الوجوه . وان الجزائر بما تسلكه من مسالك وتتنكر له من قيم ومبادىء وتخفره من ذمم وتنقضه من عهود وتعرض عنه من وفاء بالوعود لتفتح بابا من اخطر الابواب وتسن طريقا من اشنع الطرق في مضمار التعامل الدولي والعلاقات بين الامم والشعوب . ان حرمات اسلامية تنتهك واراضي عربية ما زالت سليبة مغصوبة تطالب بالنجدة وتستغيث فلا تغاث فما احرانا ان نصرف جهودنا ومقدراتنا الى حمايتها وانتشالها :

كلل الله الجهود وتوج المساعي بالتآم وحدة التراب

تعلم شعبي العزيز وانت من الذاكرين لليد البيضاء الشاكرين للصنيع ما كان يعتلج في قلب عاهلنا الراحل بطل التحرير ، وشهيد الكفاح المرير ، والدنا جلالة الملك محمد الخامس رضي الله عنه وارضاه من طموح كبير الى ارداف المكاسب بالمكاسب ، واتباع الظفر بالظفر ، والحاق المطمح المحقق بالمطمح الذي يحيط به الطلب من كل جانب ويتعلق به الحرص فلا يمهله ولا يزايله ؛ وقد كان من مطالبه ومطامحه رحمه الله ان تسترجع البلاد ما كان مدة حياته منقوصا من اطرافها ، مقطوعا من اجزائها ، ولحق بالرفيق الاعلى والوطن يحن الى المفصول من جوارحه واعضائه فكان علينا ان نخلفه عندما خلفناه على عرشه فيما ابتغاه وتمناه ، ونركب الوعر والسهل لرأب ما كان متصدعا من وحدة ، ولم ما كان متفرقا من تراث ، وها نحن اليوم وقد كلل الله الجهود وتوج المساعي بالتآم وحدة التراب ، واتم علينا النعمة باجتماع الشمل ، نذكر الرائد الراحل الذي دلنا على المحجة البيضاء ، وهدانا على مهيع السؤدد والكرامة ، الى اقوم سبيل ، واشرف قصد ، بقلوب مستنارة بذكراه ، عامرة بما أجرى فينا من عيون ، خاشعة مبتهلة الى الله سبحانه ان يكافئه على ما اوسع من عطاء ، واخلص لوطنه من حب ووفاء ، ويجازيه احسن الجزاء ، ويوفي له الرحمة والغفران ، ويكرم مثواه في جنة النعيم ومقام الرضوان .

عاهدتك — شعبي العزيز — يوم القى الله الي زمام امرك ، واناط بي تدبير امورك ، على ان اجتهد

فلا اني ، واسعى فلا آمل السعي ، وأبلي كل بلاء حسن ، واركب كل سبيل محمود ، درءا للمكاره ، وجلبا للمنافع ، وطلبا لجميل الاحدوثة ، حتى تسير قدماك ثابتة لا ينبو بها المسير ، راسخة لا تكبو ولا تزل ، فيسر الله لاجتهادنا ما يسر من جميل الآثار ، وبلغ سعينا ما بلغ من سنى الاغراض والاوطار ، وكتب لكلمتك ان تشيع ولشانك ان يرتفع ويذيع ، ولجاهك ان يتسع ويستطيل، ولوطنك ان تشرئب اليه الاعناق، وتمتد اليه الابصار . وها نحن واياك بعد خمسة عشر عاما تجرمت احقابها مليئة باتفاق مشيئتنا ومشيئتك ، واشتراك عزيمتنا وعزيمتك ، واجتماع ارادتنا وارادتك ، على حركة لا يعتريها فتور ولا يمسها لغوب ، نرنو الى المستقبل باعين طامحة ، وقلوب غضة الشباب ، مكينة العزم ، صادية الى المزيد من الاقتحام ، غرقى الى ارتقاء يعقبه ارتقاء ، وظفر يتلوه تغلب واعتلاء .

من انتصار الى انتصار وفتح الى فتح

ان الله الذي جمع قلوبنا على الالفة والوئام ، ووحد جهودنا بالاتفاق والانسجام ، وقاد خطانا فى مختلف الظروف والاحوال من انتصار الى انتصار ، وفتح الى فتح ، وتقدم الى تقدم ، لقادر على ان يهيء لنا غدا من أسباب الفوز بمكاسب جديدة ما يقوم دليلا على اننا واياك ، كدابنا بالامس ، وكدابنا اليوم ، سائرون ان شاء الله متآزرين متظافرين ، فى طريق لا يتشعب ولا يتعدد ، دائبون بعون الله على العمل الذي يكفل للوطن اشراقا بعد اشراق ، ووسامة بعد وسامة ، وبهاء بعد بهاء ، وعزا بعد عز .

لقد ادركت — شعبي العزيز — ان أحرص ما نحرص عليه أن يتوالى لك الامن والهناء ، ويتواصل ليومك وغدك الرفاه والرخاء ، ويتلاحق لك ولابنائك وابناء ابنائك ، اجل واوسع واقوى ما تشيع به الطمأنينة ، ويستحكم به الازدهار ، وتنتشر به السعادة . وسيظل هذا الحرص دعامة وثيقة من دعائم سياستنا . ومنطلقا متينا تنطلق منه العزيمة المتجددة، ويبلغ به الشاو البعيد .

لقد كنت — شعبي العزيز — باستمرار واتصال مناطا للثقة ومعقدا للآمال ، فما أكثر ما صدقت الرجاء، واثلجت الصدر ، بما ادليت به من براهين متعاقبة ، على انك جدير بالثقة المطلقة ، خليق بأن تتعلق بك النفس ، وتبذل من اجلك أعلاق العقل والوجدان . وشاء الله ان تتوشج بيني وبينك الثقة والآمال ، ويتمتع الوطن بثمار هذا الائتلاف وهذا الاتحاد .

اللهم ادم الآصرة الجامعة بيني وبين شعبي وثيقة العرى لا تنبت ولا تنفصم ويسر لي ولشعبي طرق الاهتداء ، الى ما يرضيك ، وسبل الوصول الى ما نستحق به فضلك وانعامك . اللهم وفقني ووفق شعبي الى الصالح من الاعمال والاقوال ، وأعني وأعن شعبي على تحقيق ما اعلقته بنفوسنا من واسع الآمال. اللهم أكلأ وطني وشعبي بحياطتك ورعايتك ، واجعلهما اللهم بكرمك ومنك ، فى طليعة الشعوب والاوطان التي افضت عليها خيرا كثيرا ، واعطيتها من السؤدد ونباهة الشأن حظا وفيرا .

اللهم ايدني بنصرك ، واهدني الى النهج الامثل بتسديدك وارشادك ، وتولني بتعزيزك واسنادك ، اللهم اني معتصم بحبلك ، متمسك بكتابك وسنة نبيك، لائذ بجاهك وكرمك ، فاعصمني من الزلل وقني نوائب السام والملل ، وقوني بقوتك ، واعل كلمتي بجودك ومنتك ، وادم على لساني قولك المبين : « ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين» صدق الله العظيم . والسلام عليكم ورحمة الله .

العناصر الضرورية الصالحة

لاستمرار حضارتنا الاسلامية

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

ان السلبية الثقافية عقم مميت يقضي على الفكر وتتلاشى معه الحضارات وتنعدم معه طفرات التقدم.

ومفهوم السلبية في الثقافة مختلف باختلاف الاحوال والازمنة والظروف التي تعيشها بعض الدول المعاصرة . وليس أضر على الدول النامية من هذه السلبية التي تجعل بعض المسؤولين عن التوجيه وابراز الحقائق مكتفين بالعيش المادي في ابخس صوره دون أن يتحملوا المسؤولية الملقاة على عاتقهم كمثقفين وعاة .

ونحن في المغرب لا نستطيع أن ننفصل ابدا عن هذه الحقيقة التي تدفعنا الى وعي ذاتي نخرج به من السلبية المميتة الى الايجابية البناءة المحركة عملية التطور الى المصير المشرق البراق .

ان الانسان في تطور مستمر وحركة دائبة ولكن المشكل ليس مشكل التطور او مشكل الحركة وانما هو مشكل الزمام الذي يتحكم في مسار الحركة ومشكل الفكر الذي يوجه الارادة نحو الخير والعدالة.

ان كثيرا من الناس تراهم في اعمالهم دائبين يواصلون الليل بالنهار ولكنهم رغم ذلك يظلون متخلفين فما السبب في ذلك ؟

السبب في ذلك مرجعه الى ان الحركة عكسية او سائرة في غير هدفها السليم فتتبدد القوى دون أن تصرف في وجهتها الصالحة ولهذا يجب علينا قبل التفكير في استعمال الطاقة أن نفكر في الاهداف التي سنوجه طاقتنا اليها لتكون مجهوداتنا ايجابية ولتكون اعمالنا غير ضائعة لا فرق في ذلك بين أعمال الفرد واعمال الجماعة .

وهذه الاهداف ينبغي أن تكون منبعثة من كياننا غير منفصلة عن وجودنا لئلا نكون غرباء عنها فتقضي المسيرة في متاهات مظلمة تؤول بنا الى الضياع وتحول بيننا وبين الرفاهية والرخاء .

ولهذا أرى ان التخطيط ضروري لبناء المستقبل ولكنه تخطيط يجعل في حسابه الرصيد الحضاري الذي عشناه منذ مشاركتنا في السلسلة الحضارية الانسانية غير ناسين الحقبة الاسلامية التي هي من ألمع الحقب في تاريخنا المجيد وغير متجاهلين تعاليم الاسلام التي قضت على كثير من الرواسب وهدت الانسان الحائر وفتحت أمامه مجالات البحث والتفكير فصار بسببها ميالا الى الخير داعية اليه واصبح بفضلها راغبا في الوحدة الايجابية التي تجعل المؤمنين اخوة لا فرق بين عربي وعجمي الا بالتقوى.

ومن هنا يجب أن يكون التخطيط متكاملا لا يفرق بين الجانب الروحي والجانب المادي فيسعى في خلق فلسفة اقتصادية ممزوجة بفلسفة اخلاقية ليعيش الانسان مطمئنا فلا يشعر بفراغ في روحه ولا بفراغ في معدته ويضم الى الكسب المادي كسبا

اخلاقيا ينزهه عن الابتذال والانقياد الى الشهوات الى ابعـد الحدود .

واول العناصر فى هـذا التخطيط يجب أن يستمد وجوده من طبيعة الانسان الميالة الى الايمان بقوة فوق قوته وطاقة تتجاوز حدود امكانه .

وهنا يجب أن يكون لنا الاختيار بين وجهات الايمان لتتحدد لنا معالم الطريق وتتضح لنا اسرار الوجـود .

فما هي هذه الوجهـات ؟

هل هي الايمان بمظاهر الطبيعة دون تعليل لها ودون ابراز لسببيتها الا ما يتجلى فيهـا من القـوة والتأثيـر ؟

هل هي ايمان بالقوى الغيبية من غير تحديدها فى خالق أولي لا نهاية له ؟

ام هي ايمان باله عادل ليس كمثله شيء يتصرف فى الطبيعة ومظاهرها ويتصرف فيما وراء الطبيعة له الملك فى الدنيا وله الملك فى الآخرة ؟

اننا حين ندرس بعض الفلسفات المادية نجدها ترجح الاتجاه الاول الذي يومن بالطبيعـة وحدهـا ويكفر بخالقها ، ومنذ النهضـة العلميـة التجريبية المتعلقة بربط الاشياء المحسوسة بالتصديق والحيرة متسلطة على النفوس خصوصا بعد ان صادفت تلك النهضة فى اوربا تخلفا دينيا كاد يحـول بين الدول الاوربية وتطلعها الى ذلك التقدم الصناعي الباهر .

وحيث ان الفكر العربي اتصل باوربـا أثنـاء الامتزاج الذي فرضته على الامم العربية حينا مـن الدهر فرضا عسكريا ثم غزوا فكريا فاننا نـرى ان كثيرا من هذه الآراء تسربت الى فكرنـا العربـي واستقرت جذورها فى عقول البعض منا حتى ظنوها حقيقة ثابتة لا تتبدل بتبدل الاحوال مع انهم لو عللوها بزمانها ومكانها أو قارنوا بينها وبـين الاتجاهـات الدينية التى اهملت حين اصدار الحكم لكان لهم راي آخر يخالف ما سار عليه هؤلاء الطبيعيون .

ومن المعلوم ان هؤلاء الماديين فى عقيدتهـم الطبيعية يربطون فى العصر الحاضر بين آرائهم وبين السلطة التجريبية التي بلغوا اليها عن طريق الايمان بالمادة وقيام التجارب حولها . وكأنهم بذلك يريدون أن يقولوا بحتمية النفي لان الاله الذي لا يستطيعون أن يروه وان يلمسوه ينبغي عندهم أن ينبذوه ويرفضوه.

ومن المؤسف ان هذه الافكار اكتسحت عـددا كبيرا من الشباب وجعلت بعضهم عرضـة للالحـاد والاستخفاف بالقيم الدينية وجعلت آخرين حائريـن لا يدرون الحقيقة لانهم ما زالوا يبحثون عنها وعساهم ان يجدوا فى ابحاث المفكرين الاسلاميين سبيلا الى الهداية وطريقا الى الرشاد .

ويعد فى العصر الحاضر المفكـر الاسلامـي الراحل عباس محمود العقاد رحمـه الله من اشهـر العلماء الذين استطاعوا ان يبرزوا هلهلة هذه الفكرة وان يصوروا ما فيها من خلل منطقي يجعلها بعيدة كل البعد عن الصـواب .

ولقد الف كتابا فى تاريخ العقيدة سماه « الله » تعرض فيه للمراحل التي مرت على البشرية منذ بداية شعورها الديني الى اكتمال وعيها الايماني ويبين فيه ضعف الحجة عند الماديين حينما ارادوا البرهنة على الحادهم وعنادهم .

قال رحمه الله (1) :

« ويجيء الماديون فى الزمن الاخير فيحسبون أنهم جماعة تقدم واصلاح للعقول وتقويـم لمبـادىء التفكير ، والواقع انهم فى انكارهم كل ما عدا المادة يرجعون القهقرى الى اعرق العصور فى القدم ليقولوا للناس مرة اخرى ان الموجود هو المحســوس وان المعدوم فى الانظار والاسماع معدوم كذلك فى ظاهر الوجود وخافيه وكل ما بينهم وبين همج البداوة من الفرق فى هذا الخطا ان جسهم الحديـث يلبـس النظارة على عينيه ويضع المسماع على أذنيه ويحسبون على هذا أنهم يلتزمون حدود العلم الاميـن حيـن يلتزمون حدود النفي ويصرون عليه فى مسألة المسائل الكبرى وهي مسألة الوجود بل مسألة الآباد التـي لا ينقطع الكشف عن حقائقها فى مئات من السنيـن ولا الوف من السنين ولا ملايين السنين .

لا ... الى آخر الزمان فى هذه المسألة الكبرى ... ونحن لا نستطيع ان نقول لا الى آخر الزمان فى

(1) « الله » للعقـــاد صفحـة 56 .

عمالة من مسائل الحجارة او المعادن او الاعشاب او مسائل البيطرة وعلاج الاجسام ... »

ومن هنا ينطلق العقاد في الربط بين حقيقة الانسان وحقيقة وجوده ليصل الى انه ليس من المنطق في شيء ان ينكر الانسان انكارا باتا وليس من حقيقة العلم الاصرار على النفي لان هذا الموقف في حد ذاته يعتبر نكرا لحقيقة البحث العلمي .

وعليه فهل الانكار يعتمد على حجةدامغةاو انه يدخل في باب من السذاجة اقل ما يقال فيه انه لا ينسجم مع الراي المفكر ولا مع الاتجاه المنطقي السديد ؟ .

ان الحقيقة اقرب الى القول بان راي الماديين هذا لا يستند على حجة ولا يرتكز على قانون لان الانكار الدائم نفي دائم والنفي الدائم ليس ظاهرة طبيعية من ظواهر الكون يتشبث بها الانسان في المواقف المجهولة لديه لان جهله بها ليس معناه عدم وجودها فتعلق النفي لا يمكنه عنده اي شخص ان يكون ابديا لان ذلك ينافي الحقيقة ويجانبها كما ينافي الواقع ويجانبه .

وهذا الاستنتاج يكاد يكون من البدهيات التي تحدث عنها المفكرون كثيرا ولقد قارن هؤلاء بين ارتباط حياة الانسان بالزمن وارتباطه باستيعاب الافكار وخلوص النتائج فراوا ان عقله محدود وان الموجود الذي تتحدث عنه وجود كامل ليس له حدود فكيف نعطي الصلاحية للحكم لعقل محدود في موجود لا حدود له ؟!

اننا ان فعلنا ذلك فستكون النتيجة مضطربة وسنصل الى النتائج العكسية التي رددها الدهريون قديما وردد صداها المحدثون فكانت صورة طبق الاصل لمشكلة ادخلت قلقا كبيرا على شبابنا المعاصرين في حين انها لا تستحق هذا الاضطراب نظرا لوضوحها وتجليها في النفوس الواعية .

فمشكلة الايمان مشكلة شعورية يحس بها الانسان ويعيها وعلى اساس هذا الشعور وهذا الوعي ينبغي ان نعترف بالله وان نقربه الاقرار اللائق بجلاله.

اذا اتضح ان هؤلاء المنكرين لا يستطيعون البرهنة على انكارهم وان هؤلاء الملحدين لا يؤيدهم برهان او دليل فما علينا الا ان نعتز بوعينا الذي دفعنا الى الايمان وجعلنا اسمى من ان ننقاد لمن لا حجة له او نقلد من لا يستحق التقليد .

وان هذا الايمان سيكون مركز الانطلاق الى العمل البناء وسيعيننا على الابتعاد عن القلق والفوضى والشقاق وسنجعله بلسما لكثير من التصورات القاتمة التي يضيق بها صدرنا ويتكدر بها صفاؤنا .

وان محاربة القلق وما ينشأ عنه لشيء تحتاج اليه في بداية الطريق لتزول الاشواك وتعبد المسالك خصوصا وان القلق أصبح سمة من سمات العصر في شتى المظاهر انه قلق على المصير وقلق على النفس وقلق من الواقع وبين أنواع القلق بنى الشقاق وجوده وفرض ذاته واصبح البؤس والالم والضياع نغمات حزينة في كيان الانسان الحائر .

ولو درى هذا الانسان حقيقة نفسه لاستطاع أن يستخلص من اعماقه طريق الخلاص وأن يثور على هذا الكابوس الجاثم الذي جعل سعادته شقاء ونعمته بلاء .

ان الانسان حينما يعي نفسه ويربط بين هذا الوعي والتدبير الالهي تخف أتعابه وتحل مشاكله وتنزاح اضطراباته وينساق توا الى محاسن الحياة فيراها براقة لامعة وضاءة ويقف بارادته ضد مظاهر البؤس والحرمان فلا يعتد بها ولا يبالي بتصرفاتها .

وهذا الوعي اصبح ضروريا في علاج هذا المصاب وينبغي ان يتعود الانسان عليه عن طريق التربية والممارسة وعن طريق نشر المبادىء التفاؤلية التي تجعل من الوجود انطلاقا الى تحقيق المثل العليا الهادفة الى تحقيق سعادة الفرد وسعادة البشرية .

وخير سبيل الى تركيزه في النفس الايمان بالله وبواسطة هذا الايمان لا يقع اي تناقض بين الارادة الانسانية وبين الاستجابة لها من طرف القوة العالية المدبرة للكون والمتصرفة فيه .

ومن هنا نكون قد رفضنا الاتجاه المادي لامرين:

اولا : لانه لا يستند على حجة معقولة .

ثانيا : لانه لا يحقق السعادة التي نشعر بها ونحن مؤمنون .

وبناء على ما تقدم نرى ان أي تخطيط يهمل الايمان سيكون منفصلا عنا لا ينتمي الى فطرتنا ولا الى أصالتنا .

ولكن اذا كان الايمان يعد اول عناصر التخطيط لتحقيق حضارتنا فما هو العنصر الثاني ؟

انه الوعي الحضاري

والمراد به الشعور بدورنا فى تاريخ الحضارات البشرية ليلا نعيش كالاقزام بين عمالقة الفكر المعاصر

وهذا الوعي الحضاري يجعلنا ننظر الى الامام فى اتجاهنا البناء وتنظر الى الوراء لنطلع على المجهودات الجبارة التي قام بها أجدادنا فى كل المجالات وليس من العيب ان يكون لنا رصيد ولكن العيب ان نقتصر عليه وان نجعله الوحيد فى مجال الافتخار حتى نصدم بلواذع قارصة تشج فى عقول اعدائنا ثم تتداولها وتستهلكها بيننا فى سخرية اشد من سخرية الاعداء فكم مرة سمعت من بعض الافراد قولهم ان العرب اخترعوا الصفر ولكنهم ظلوا فيه بلهجة تدل على التشفي والاحتقار والذلة والافتقار مما دعاني مرارا الى ان انبه هؤلاء بأن مواقفهم هاته لا تخدمهم فى شيء وانما هي ترداد لمواقف الاعداء وانهم ينبغي لهم حين يسمعون مثل هذه الاقوال ان يجعلوها سبيلا لتغيير ما بهم لا سبيلا لليأس والاستسلام وان يدفعهم ذلك الى تقصي الحقائق ودراسة التاريخ الاسلامي فى مختلف الاغراض .

ولهذا أرى ان الانفصال عن أصالتنا والاستخفاف بدورنا فى الوجود يعد جناية كبرى ما أجدرنا ان نبتعد عنها .

ان من آكد ما يجب ان يتحلى به الفرد فى بلادنا صدق شعوره بوضاءة ماضيه ونصاعة حضارته ليستطيع بذلك ان يزيل هذا الاضطراب النفسي الذي أصيب به كثير من شبابنا حينما أصبحوا بعداء عن تصور حضارتهم قرباء من تصديق كثير من الافكار الهدامة الهادفة الى محو الشخصية الاسلامية من الوجود .

أليس من العار ان يردد كثير من طلبتنا الى الان افكارا لبعض المتعصبين من الفلاسفة الاوربين ضد العروبة والاسلام فى الوقت الذي انبثق من الاوربيين والامريكيين وغيرهم من يفضح تعصب هؤلاء المنحرفين فاذا كان رينان مثلا (1823 – 1892) يقول : (2) ان الفلسفة العربية هي الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية » فهو فى هذا متعصب جدا لانه يعطل المجهود الانساني الحضاري الذي شارك به العرب فى التطور البشري فى مختلف المجالات خصوصا اذا علمنا ان الفلسفة لم تكن منفصلة عن العلوم ايام ازدهارها عند الاغريق وعند العلماء العرب الذين كان يتحدث عنهم فهو بذلك اذن يحاول ان يمحو الوجود العربي فى المجال الفكري والعلمي وهذا حكم لا يوافقه عليه النقد النزيه ولا يؤيده التاريخ الحي الذي اعترف بفضل العرب فى الميدان العلمي والثقافي عامة ولقد اعترفت هيئة الاونسكو وهي المؤسسة الدولية فى المجال الفكري والثقافي والعلمي بالقيمة الحضارية العربية في التطور كما اعترفت بفضل العرب على اوربا نفسها حينما خلصها من طغيان الجهل وزودتها بأصول الفكر واضاءتها بنور العلم (3) ولقد اختتم البروفيسور كويلر يونج (Cuyler Young) رئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها بجامعة برنستون بالولايات المتحدة بحثا له عن أثر الثقافة الاسلامية فى الغرب المسيحي بتذكير مسيحيي اوربا المعاصرة بالدين الثقافي العظيم الذي عليهم من قبل العرب والمسلمين الذين كانوا يزودونهم بالعلوم والفنون وفلسفة الحياة .

ونحن حينما نتحدث عن الرصيد الفكري فى الثقافة العربية لا نفرق بينه وبين الرصيد الفكري فى الثقافة الاسلامية ولا نفرق ايضا بين اي موقع من المواقع ولا أي بلد من البلدان لاننا نعتبر الثقافة العربية الاسلامية رصيدا مشتركا له دور فعال فى

(2) فى كتاب العرب والفلسفة اليونانية للدكتور عمر فروخ تعليق على رأي رينان هذا ختمه بقوله اذا كنا لا نستطيع ان نكون فلاسفة فلا اقل من أن نتشبه عند البحث فى الفلسفة بالفلاسفة صفحة 18

(3) ما نقلناه عن كويلر يونج مأخوذ من فقرة استدل بها الاستاذ توفيق الطويل فى بحث له عن خصائص التفكير العلمي بين تراث العرب وتراث الغربيين نشره بمجلة عالم الفكر المجلد الثالث العدد الرابع (يناير – فبراير – مارس 1973) صفحة 1125

ربط شعورنا بالماضي وفي تحديد سلوكنا في الحاضر وفي فتح مجال التخطيط لبناء المستقبل .

ويكفي دليلا على ضعف نظرية رينان انه بناها على أساس ضيق حينما ربط الاتجاه الفلسفي بالمنهج الاغريقي في التفكير دون أن يعتبر منهج الفلاسفة الاسلاميين الذين حققوا وجودهم على اساس فكري يكاد يكون مستقلا عن الاساس الاغريقي : فالاصوليون المتكلمون والاصوليون الفقهاء خطوا لانفسهم مجالات منطقية مبنية على منهجية خاصة في اغلبها تعتمد على المنطق الاستقرائي لا على المنطق الصوري زيادة على ان الغزالي جعل مراحل المعرفة تتجاوز الدلالة العقلية فراى ان الحواس تخدع العقل احيانا ولذلك ابطلها العقل كما لاحظ ان العقل الذي ابطل الحواس هو نفسه قد يكون سببا في التغليط ولهذا لا ينبغي الاعتماد عليه اعتمادا كليا خصوصا في الالهيات فاعترف بسبب ذلك بالحدس والكشف وجعل ذلك منفذا من منافذ المعرفة بحيث لا يمكن للانسان ان يحصر معارفه عن طريق الحواس او عن طريق العقل بل قد يصل الى المعرفة عن طريق اخرى شعر بها في أعماقه دون ان تكون راضخة لتجربة الحاسة او لتجربة العقل .

وشخصية اخرى كافية في ابطال راي رينان انها شخصية ابن خلدون الذي يعد ابا علم الاجتماع باعتراف رجال الفكر واساطينه ولقد استطاع ان يثور ثورة عارمة على المنطق الصوري ، وتتبع الجزئيات العمرانية ليستخلص منها علما قارا عرف فيما بعد بعلم الاجتماع .

ويكفينا فخرا تلك القدرة الفكرية التي ظهرت منهجيتها في مقدمة كتابه العبر ودعوته الى التحري في قبول الاحكام وفي الربط بين الخبر والاحوال الطبيعية والاحوال الاجتماعية فما جاء منها مناقضا لهاته الاحوال أبطلناه وما جاء غير مناقض لم نستعجل في قبوله او رفضه وانما يجب آنذاك ان ننقده نقدا دقيقا نزيها لئلا يؤول تأويلا فاسدا او يؤخذ عن شخص مغفل لم يميز في نقله للخبر بين صورته وابعاده .

ونحن لا نستطيع ان نتحدث في هذه النقطة دون ان تعود بنا الذكريات الى الجاحظ المفكر الذي لا يقتصر في كتابه على عرض افكاره وانما يدعو الى تأملها والى محاولة استخدام الطريقة الاستنباطية التي استعملها في جل أبحاثه ودراساته وانا شخصيا لا اقرا كتابه البيان والتبيين دون ان تستوقفني هذه الملاحظة التي سجلها بعد ان روى عن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس انه ذكر بلاغة بعض أهله فقال اني لاكره ان يكون مقدار لسانه فاضلا عن مقدار علمه كما اكره ان يكون مقدار علمه فاضلا عن مقدار عقله .

فقد قال الجاحظ بعد ذلك : « وهذا كلام شريف نافع فاحفظوا لفظه وتدبروا معناه » .

وكأني بمتسائل يقول ما السر في ان الجاحظ يأمر بحفظ هذا القول واستيعابه ؟

الظاهر انه فعل ذلك للاسباب الآتية :

أولا : انه يدعو الى عدم الاكثار من الكلام دون علم ودراية ولو كان ذلك الكلام في صورته الشكلية جذابا لان العبرة بمضمونه لا بشكله .

ثانيا : انه يرى ان العلم وحده غير كاف اذا لم يكن معه تدبر وابداع ، فالعالم الذي لا يستخدم فكره انما هو صورة طبق الاصل لغيره لا تستفيد منه الحضارة شيئا ، وما أحسن جواب ذلك الذي راى شخصا يتطاول بحفظه لكتاب علمي واستظهاره لما فيه فقال انما هي نسخة زيدت في البلد .

ثالثا : ان الجاحظ باستحسانه لهذا القول وحثه على حفظه واستيعابه يدعو الى الاستخدام الفكري والى ربط هذا الاستخدام بالمعلومات العامة التي يصل اليها الانسان فهو لا ينكر فضل العلم ولكنه يكره أن يكون مقدار العلم عند الفرد فاضلا على مقدار العقل لان العلم ميزان لكسب المعارف ، اما العقل فهو الوسيلة لكسب الملكة وفرق كبير بين كسب المعارف وكسب الملكة .

فالتفكير اذن وليد الاستعداد وهذا الاستعداد يأتي عن طريق المعارف وينبغي بعد ذلك عند الدخول في مرحلته المباشرة أن يتصف المفكر بالتروي والاناة وهي المرحلة المعروفة بمرحلة الاختمار .

وفي هذه المرحلة يكون هناك انتظار لخطرات الاستنارة والانبثاق وفيها يتوصل الانسان الى الحل فاذا بلغ اليه عرضه على محك النقد والامتحان فيقبله حينئذ او يرفضه وهذه المراحل التفكيرية هي التي تجعل الانسان مبدعا وتخرجه من اطار التقليد وهي

مراحل اربعة ، ابان قيمتها فى العصر الحاضر العالم النفساني والاص (Wallas) فى كتابه فن التفكير.

ونحن لو قارنا بينها وبين ما كان يدعو اليه الجاحظ لرايناها صورة شبيهة بمناهجه خصوصا اذا علمنا ان الجاحظ ينصح المفكرين باجتناب الراي الفطير ويدعوهم الى التامل فى المعرفة والى استخدامها فى سبر اغوار الحياة .

وأجمل بنا أن نردد امام اولئك الذين يتبرمون من بعض الآراء التي لا تنسجم مع آرائهم فى العصر الحاضر قول الجاحظ فى كتابه الحيوان رادا على بعض الساخرين والملحدين حين انكروا أن تكون للملائكة اجنحة ثلاثة بدعوى فقدان التوازن وانعدام التعديل (4) : « قد يجوز ان يكون موضع الجناح الثالث بين الجناحين فيكون الثالث للثاني كالثاني للاول وتكون كل واحدة من ريشه عاملة فى التي تليها من ذلك الجسم فتستوي فى القوى وفى الحصص ، ولعل الجناح الذي انكره الملحد لضيق الفطن ان يكون مركز قوادمه فى حاق الصلب ولعل ذلك الجناح أن تكون الريشة الاولى منه معينة للجناح الايمن والثانية معينة للجناح الايسر وهذا مما لا يضيق عنه الفهم ولا يعجز عنه الجواب فاذا كان ذلك ممكنا فى معرفة العبد بما اعاره الرب جل وعز كان ذلك فى قدرة الله أجوز وما اكثر من يضيق صدره لقلة علمه » .

فالجاحظ هنا يدعو الى عدم الاستعجال فى الرفض والى وجوب استخدام العقل فى الحكم والى الاطلاع على المعارف اطلاعا لا يقتصر على صورها المجردة بل يتصل بصورها الايجابية المبدعة .

ان أمثال الجاحظ والغزالي وابن خلدون فى تاريخنا الحضاري كثير زيادة على الاهتمامات الاخرى المتعلقة بالعلوم التجريبية عند عدد كبير من علمائنا.

وهذا الرصيد الزاخر بالامجاد يجب أن يكون زادا لوعينا الحضاري وأن يكون دافعا لنا لربط هذا الماضي بالحاضر وبالمستقبل .

ولن تكون فائدة من ذكر هؤلاء المفكرين ان لم نجعل ذلك وسيلة عملية لتطهير أفكارنا من التعفن وخلق عالم من الافكار يبعدنا عن الجمود والتقليد .

وهذه هي النقطة الثالثة فى مخططنا وهي منبثقة من فلسفة المرحوم مالك ابن نبي الذي يقول ان المجتمع الاسلامي فقير الافكار فى الوقت الذي أصبحت فيه الافكار ذات مفعول فى توجيه العالم الحاضر .

والافكار هنا يجب أن تكون بناءة تهدف الى خلق عدالة اجتماعية تتجلى فيها تكافؤ الفرص وتبنى على الاخلاص فى العمل وتدعو الى تطهير النفس من الضغائن وتيسر للجهاز الاجتماعي تماسكا نواجه به كل أنواع الاستغلال .

وفى هذه المرحلة يجب محاربة الغزو الفكري الاجنبي الذي كاد يجعل افكارنا مشلولة لا تستطيع حركة او مقاومة .

وكثير هي الافكار التي محت وجودنا وجعلتنا فى مؤخر الطريق .

ومن أهم هذه الافكار فتكا ما ياتي :

1 — فكرة الاستخفاف بالوجود الحضاري للامة العربية الاسلامية

2 — فكرة الخنوع للدعوات الهدامة للعقيدة والايمان

3 — فكرة الاستسلام للطغيان المادي

4 — فكرة ربط التقدمية بالاطار التقني دون مراعاة الجانب الخلقي

5 — فكرة الاستغناء عن اللغة العربية فى التعبير العلمي والادبي

6 — فكرة العبث بالقيم الدينية .

ان وضع هذه الافكار فى محك النقد وربطها بالاتجاه الايجابي فى البحث عن الحقيقة سيساعدنا

---

(4) هذا النص ماخوذ من كتاب الحيوان الجزء الثالث صفحة 72 من الطبعة الحميدية المصرية ويتعلق بالرد على بعض الملحدين الذين طعنوا فى أجنحة الملائكة فى قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلا أولى اجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء » .

على التغلب على اكثرها باللين والاقناع لان اكثرهـــا اتصل بنا عن طريق التقليد الاعمى ، فاذا استخـــدم العقل في تجنبها وفي فهم اضرارهـــا استطـــاع ان يتحرر منهـــا .

ان الانسان العربي حينما يستطيع ان يهتـم بعالم الافكار وحينما يستطيع ان يركز مقدرته العقلية في نقدها وتمييز طيبها من خبيثها سيقدر حتما على تغيير واقعه وعلى التوجه الى ما هو احسن له كفـــرد وكجماعــــة .

وهذه الدعوة التي اقتبسناها من المفكر المرحوم مالك بن نبي هي التي ستخلق تغييرا جذريا في مفاهيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لانها هـي التي ستعلمنا ان التسابق على الماديات في شكلهـا السلبي لا يفيد وان الاستجداء للدول الكبرى في حين ان رصيد الخير بايدينا لا ينفع فلتتوجه ارادة الدول الاسلامية الى استغلال خيراتها والى فرض سيادتهـا من جديد لتتحرر من كل انواع الاستعمار وانها لقادرة على ذلك ان شاء الله .

واكبر دليل على ذلك موقف العرب من الحرب البترولية ضد الدول التي كانت تنزف خيراتهم ومع ذلك كانت توجه الطعنات لهم سرا وعلانية .

ان موقفهم هذا يعتبر فكرة ايجابية حققت للعرب كيانهم في الاطار الدولي وان الافكار البناءة اذا مـا تكرر استيعابها وتطبيقها ستغير من وضعنا العـام ولا شك في جميع الاتجاهات .

ان الانحراف الفكري خطير جدا وامة لا تكسب رصيدا من الافكار الصائبة امة فقيرة جـدا مآلهـا الانهيار . واني لارى ان اهم الافكار التـي يجـب ان نملكها لهي الفكرة التي توضح لنا السبيل وتيسر لنا الكرامة في الحال والمآل . .

وان العصر الذي نعيش فيه لهو عصر علـم وتقنية ولا يمكننا ان نعيش عصرنا ان لم يكـن لنـا اهتمام بالعلم والعمل وهذه نقطة رابعة لا بـد مـن مراعاتها في المخطط الايجابي لتركيز حضارتنا ، فاذا كان الوعي الحضاري يمنحنا قوة لكياننا وكانت الفكرة الصائبة تهدينا فان المشاركة العلمية لتجعلنـا في ركاب الحضارة غير منفصلين عنها .

ان الاهتمام العلمي حسب ما ارى يجب ان يكون رصيدا للامة كلها وليس من المعقول في شـيء ان نجد عددا من العلماء يتجرون بشهاداتهـم العلميـة وبخبراتهم على حساب المصلحة العامة فيجعلـون العلم وسيلة للاستغلال لا وسيلة للنفع والافادة .

ان التسابق على العلم في صفوف بعض الطلبـة يكاد يكون في الغالب مجردا عن التوعيـة الوطنيـة ولكنه تسابق مادي محض فالشعب العلمية عندهـم احسن لانها تدر الربح اكثر ، والشعـب الادبيـة او الاصلية دونها لان منافذ الرزق فيها ضيقة ومسالك الانتفاع ضئيلة . وهذا تقدير ما كان ينبغي ان يكون.

ولهذا ارى ان نقطة خامسة يجب ان تضاف الى التخطيط انها الوعي الخلقي ، ان هذا الوعي يجب ان يربى في الشخص منذ البداية وان تشترك في تكوينه جميع مناهج التربية سواء كانت دينية او خلقيـة او وطنيـة .

ان هذه الحصانة التربوية اذا انعدمت ضاعت الامة واصابها ضرر عظيم ولذلـك كانـت العنايـة بالتربية واجبة وضرورية لا مناص منهـا لمن اراد الخلاص من التخلف والانحطاط .

تصور ايها القارىء ان وعيا بالمسؤولية الوطنية والدينية والاخلاقية انعدم في جماعة من الطلبة علمتهم الدولة ودفعت اليهم المنح وارسلتهم الى اوربا حتى اذا اكتمل نضجهم وظهر نبوغهم رفضوا الرجوع الى بلادهم وشاركوا في استغلال تلك المعلومات لانفسهم او لدول اخرى قد تكون من الدول التي تحمل عداوة لنا او تسعى في عرقلة مسيرتنا .

ان انعدام هذا الوعي في بعض دول العالـم الثالث هو الذي جعل كثيرا من الموهوبين في مختلف العلوم يبيعون ادمغتهم ومعارفهم لغير دولهم وهـذا امر قد يدخل في باب الخيانات وان كان اولئك الذين يقومون به يدخلونه في اطار التعاون الفكري العالمي

ان التقدم في العصر الحاضـر يحتـاج الى المهارات العلمية المختلفة سواء في الجهاز الطبيعي او في الجهاز الاقتصادي وبمقدار ما تملك الدول من الادمغة المملوءة علما وكفاءة يكون وزنها الحضاري ، ولهذا كان التسابق على المعرفة سلاحا عمليا تحاول به كل دولة اثبات وجودها وفرض سيطرتها .

وليس هناك من سبيل لاستقلال الدول النامية استقلالا تاما الا أن تعمل بكل حزم على اعلاء شأن العلم وعلى تأسيس المراكز العلمية المختلفة سواء كانت مراكز نظرية او مراكز تطبيقية .

وبهذه الوسيلة تستطيع تصنيع بلادها واستغلال موادها الخام واستكشاف ثرواتها الطبيعية ، وهذا هدف أصبح الان واضحا جليا امام الراي العام العربي وبموجبه أصبحت الدول العربية تسعى سعيا حثيثا لتحقيقه وتنفيذه ، ويظهر ذلك في مخططاتها وتصميماتها ، لكن يجب أن نضيف الى هذا الهدف خلق وعي شامل في نفوس العلماء الذين يجب عليهم ان يضيفوا الى تكوينهم العلمي شعورا بالمسؤولية وتقديرا للواجب ، أما اذا كانت المعرفة تستغل للجانب الفردي فهذا ما لا نرتضيه ممن سيتعلمون لانهم اذا فقدوا الوعي ربما باعوا ادمغتهم ومواهبهم لاعدائهم وجعلوها ملكا لغيرهم فلا تستفيد منهم امتهم شيئا .

ان الوعي الاخلاقي يجب ان لا ينفصل عن الاهتمام العلمي نظرا للترابط الايجابي بينهما وينبغي ان يضاف الى ذلك وعي بالجمال ليكون المواطن ذا تربية ذوقية تسمو به عن المباذل وتبعده عن الرذائل

وهذه نقطة سادسة ضرورية في مخططنا هذا .

ان تربية الذوق احدى الدعائم التي تقوم عليها الحضارة الانسانية ، والدولة التي لا تعني بهذا الجانب تبقى متخلفة بعيدة عن الازدهار والرفاهية رغم ما تحاول ان تتظاهر به من مظاهر الحضارات الاخرى .

ولهذا كانت العناية بالذوق داخلة في تصميم التكوين الاخلاقي والتكوين الفني واذا فقدت امة هذين العنصرين فقد فقدت المميزات الحضارية الكبرى التي تجعل الانسان الخليفة الصالح لتسيير شؤون هذه الحياة الدنيا .

واذا كان العلم مظهرا من مظاهر التقدم وكانت التقنية طابعا للحضارة المعاصرة فانهما معا لا يكفلان للانسان الحياة السعيدة اذا لم يحصنا بالذوق السليم الذي يرفع من قيمة الجمال والحق ويعني بالقيم المثلى وبتهذيب النفوس .

ان العناية بالذوق تتجلى في كل مرافق الحياة فهي تطبع الاخلاق بالفضيلة والانسان بالسلوك الصالح والحكومات بالعدالة والشعوب بالنظافة والفكر بالمنهجية والعواطف بالنضارة الى غير ذلك من المقارنات بين كل الاشياء وما فيها من عناصر الفن والجمال .

ان هذه النقط التي تحدثنا عنها نراها ضرورية في تحديد العناصر للحضارة الاسلامية ويجب ان تجعل في مخطط دقيق قابل للتطبيق والتنفيذ لان المسلم الحقيقي لا ينفصل عنها ولا يبتعد عنها فهو في حاجة الى سلامة العقيدة وحسن التقيد بأصول الدين وانواع العبادات والى الاهتمام بالعلم والاخلاق .

وينبغي للقارىء أن يعلم أن هذه النقط ليست حصرا لكل ما يجب ان يكون مظهرا لابراز الاتجاه الايجابي في حضارتنا التي نريد لها الاستمرار ولكنها تمثل فقط اهم العناصر التي لا نستطيع تكوين شخصيتنا دون وجودها فنحن بواسطتها نربط بين الاصالة والمعاصرة ونمحو سيطرة الغزو الفكري الاجنبي عنا اذا كان منحرفا ونخلق تجاوبا بين الفرد والجماعة وبين القادة والشعوب وبين القول والعمل وبين الصورة والمادة وبين الفكرة والواقع ، فلا يبقى ذلك التصدع الذي نحس به في شخصيتنا متسلطا ولا يبقى ذلك القلق الذي نشعر به متغلبا فتبدل حيرتنا ايمانا وقلقنا سكونا وتشاؤمنا رجاء ، وننطلق حينئذ الى الامام قدما لا نلتمس الا الفضيلة والسعادة والمجد والرخاء والعزة والنصر ، ونصبح من جديد ملقنين مبادئنا الى العالم المتعطش لها ، وناشرين دعوتنا نشرا يبعث الماضي المجيد وينير المستقبل للانسان الحائر المحتاج الى أسس هذه المبادىء الى أصولها .

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ





– 2 –

22 – ابو القاسم المهلب بن ابي صفرة التميمي ، الفقيه المحدث ، سكن المرية ، من العلماء الراسخين ، والمتفقهين في الفقه والحديث ، به حيا كتاب البخاري بالاندلس ، لانه قراه تفقها ايام حياته ، وشرحه واختصره (ت 436 هـ (41)) .

من مؤلفاته :

شرح البخاري ، ينقل عنه ابن التين ، وابن بطال ، وهؤلاء الثلاثة هم شراح البخاري الذين اشتهر ذكرهم على عهد ابن خلدون ، وقال في مقدمته (80) : انهم – مع ذلك ، لم يوفوه حقه من الشرح لتراجمه ، وما انطوت عليه من فقه ونكات حديثية .. وقد استقى ابن حجر من شرح المهلب كثيرا ، وناقشه في بعض استدلالاته للمالكية ، ودفاعه عن وجهة نظرهم ، وللمهلب اختصار الصحيح ، سماه كتاب التصحيح – مع تعليق عليه ، وربما فاد منه ابن حجر .

23 – ابو عبد الملك مروان بن علي البوني ، اصله من قرطبة ، استوطن بونة بافريقية ، وكان حافظا ، نافذا في الفقه والحديث ، توفي قبل سنة (440 هـ) (42) .

له شرح كبير على موطا مالك ، ينقل عنه ابن حجر .

24 – ابو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال ، من اهل قرطبة ، ويعرف بابن اللجام ، عالم بالفقه والحديث . (ت 449 هـ (43)) .

له شرح على صحيح البخاري في عدة اسفار ، تطغى عليه الصبغة الفقهية ، ولابن المنير حواشي عليه . استقى منه ابن حجر كثيرا .

25 – ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، الامام الحافظ يروي عن ابنه الفضل

---

41) جذوة المقتبس 330 ، ترتيب المدارك 751/4 ، الصلة 592 ، الديباج 448 ، شجرة النور 114/1 .

42) – الجذوة 321 ، ترتيب المدارك 709/4 ، الصلة 581/2 ، معجم البلدان 512/1 شجرة النور 114/1 .

43) – الصلة 394 ، الديباج 204 ، تذكرة الحفاظ 1127 ، شذرات الذهب 283/3 ، هدية العارفين 688/1 .

انه اجتمع عنده بخط ابيه نحو (400) مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين الف ورقة . (ت 456 هـ) (44) .

ومن مؤلفات ابن حزم التي عد اليها ابن حجر :

المحلى ، والايصال ، والفصل في الملل والنحل ، وجمهرة انساب العرب . والاجوبة عن البخاري ، وتاليف في اسماء الله الحسنى ، قال الغزالي فيه : انه يدل على عظيم حفظه وسيلان ذهنه (45) .

26 ـ ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي ، حافظ المغرب ، قال فيه الحميدي : فقيه حافظ مكثر ، عالم بالقراءات وبالخلاف ، وبعلل الحديث ، وبالرجال ، (ت 463) (46) وقد اعتمد ابن حجر من مؤلفاته :

التمهيد ، الاستذكار ، التقصي ، الاستيعاب ، الانباه في قبائل الرواة ، جامع بيان العلم .

27 ـ ابو الوليد سليمان بن خلف بن سعيد التجيبي الباجي ، امام حافظ ، رحل الى المشرق وحج اربع حجج ، طوف على كثير من البلدان ، وسمع الجلة ، قضى بالمشرق نحو ثلاثة عشر عاما ، حاز الرئاسة بالاندلس ، وسمع منه خلق كثير ، ومما يفتخر به انه روى عنه حافظا المشرق والمغرب : ابو بكر الخطيب ، وابن عبد البر . (ت 474 هـ) (47) .

من مؤلفاته :

« التعديل والتجريح ، لمن خرج عنه البخاري في الصحيح » ـ ينقل عنه ابن حجر .

28 ـ ابو عبد الله محمد بن خلف بن سعيد بن المرابط ، قاضي المرية وعالمها ، من اهل الرواية والتفنن في العلوم (ت 485 هـ) (48) .

له شرح على البخاري ، اختصر فيه شرح استاذه المهلب بن ابي صفرة ، واضاف اليه اضافات ، اقتبس منه ابن حجر .

29) ـ ابو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي الميورقي ، حافظ ثبت ، رحل الى المشرق وسمع بمصر ومكة والشام والعراق ، واستوطن بغداد ، ورعا ثقة ، اماما في الحديث وعلله وروته . (ت 388 هـ) (49) .

من مؤلفاته « الجمع بين الصحيحين ، ينقل عنه ابن حجر .

30) ـ ابو علي الحسين بن محمد بن احمد الجياني ، امام المحدثين في وقته ، (ت 498 هـ) (50) من مؤلفاته « تقييد المهمل ، وتمييز المشكل » ـ فريد في بابه . عاد اليه ابن حجر كثيرا في اختلاف الروايات ، وضبط اسماء شيوخ الصحيحين .

---

44) ـ جذوة المقتبس 390 ، الصلة 395/2 ، تذكرة الحفاظ 1146/3 ، العبر 239/3 ، تاريخ الحكماء 232/1 ، الوفيات 13/3 ؛ شذرات الذهب 299/3 ، دائرة المعارف الاسلامية 136/1 .
45) ـ العبر 239/3 ، التذكرة 1147/3 .
46) ـ جذوة المقتبس 344 ، الصلة 640/2 ، ترتيب المدارك 808/4 ، المغرب في حلى المغرب 407/2 ، الوفيات 44/6 ، العبر 255/3 ، تذكرة الحفاظ 1128/3 ، الديباج 357 ، شذرات الذهب 314/3 ، معجم المطبوعات 159 .
47) ـ الصلة 197/1 ، الوفيات 142/2 ، تذكرة الحفاظ 1178/3 ، الديباج 120 ، النفح 67/2 ، شجرة النور 120/1 .
48) ـ الصلة 527/2 ، الديباج 273 ، شذرات الذهب 375/3 ، شجرة النور 122/1 .
49) ـ الصلة 530/2 ، تذكرة الحفاظ 1218/3 ، الرسالة المستطرفة 173 ، شجرة النور 122/1 .
50) ـ بغية الملتمس 29 ، الصلة 144/1 ، معجم ابن الابار 77 ، تذكرة الحفاظ 1233/4 ازهار الرياض 149/3 ، هدية العارفين 311/1 ، شجرة النور 123/1 .

31 ــ ابو عبد الله محمد بن عيسى بن حسين التميمي السبتي ، من شيوخ عياض ، فقيه محدث ، حافظ راوية ، امام المغرب فى عصره . (ت 505 هـ) (51) .

له شرح على البخارى ، اعتنى فيه بشرح مالم يذكره الخطابى ، مع التنبيه على اوهامه .

32 ــ ابو علي حسين بن محمد بن فيره الصدفي ، القاضي الشهيد ، المعروف بابن سكرة . كان عارفا بالحديث ، قائما به ، حافظا لاسماء الرجال ، عارفا بقويهم وضعيفهم ... كانت له رحلة الى المشرق واسعة ، الف عياض معجما فى اخباره وشيوخه ، ولابن الابار معجم فى اصحابه ، (ت 514 هـ) (52) .

من الاصول التى اعتمدها ابن حجر من شرحه « الفتح » ــ اصل ابى على الصدفى ، الذى كتبه بخط يده ، ووضع عليه حواشي ، وهي جد مهمة ، افاد منها ابن حجر (53) .

33 ــ ابو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشي ، ويعرف بابن ابى رندقة ، امام فقيه حافظ ، رحل الى المشرق وحج ، ودخل بغداد والبصرة والشام ، استوطن الاسكندرية ، وبها نشر علمه (ت 520 هـ) (54) .

ومن مؤلفاته : « البدع والحوادث » ــ ينقل عنه ابن حجر .

34 ــ ابو عبد الله محمد بن على المازرى ، امام اهل افريقية فى الفقه والحديث ، (ت 536 هـ) (55) . من مؤلفاته « المعلم بفوائد مسلم » ينقل عنه ابن حجر .

35 ــ ابو القاسم احمد بن محمد بن عمر بن ورد التميمي ، من اهل المرية ، فقيه حافظ متفنن . (ت 540 هـ (56))

له شرح على البخارى واسع جدا ، ظهر علمه فيه ، افاد منه ابن حجر .

36 ــ ابو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعارفي ، الامام الحافظ المتبحر (ت 543هـ) (56) .

خلف اربعين مصنفا او تزيد ، اعتمد ابن حجر منها : احكام القرآن ، كتاب النيرين فى الصحيحين ، القبس فى شرح موطأ مالك بن انس ، عارضة الاحوذي (الاحوذي) ، على صحيح الترمذي ، سراج المريدين ، ترتيب الرحلة .

37 ــ ابو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي عالم المغرب ، وامام اهل الحديث فى وقته . (ت 544 هـ) (57) . ومن مؤلفاته التى عاد اليها ابن حجر : المشارق ، الاكمال الالماع ، الشفاء .

38 ــ ابو اسحاق ابراهيم بن يوسف بن قرقول ،

---

51 ــ الصلة 572/2 ، ازهار الرياض 159/3 ، شجرة النور : 1249 ، وانظر الفتح 186/11 وارشاد السارى 41/1 ، وكشف الظنون 545/1 .

(52) ــ الصلة 143/1 ، تهذيب ابن عساكر 359/4 ، تذكرة الحفاظ 1253 ، ازهار الرياض 151/3 ، النفح 90/2 ، شذرات الذهب 43/4 .

(53) ــ الفتح 105/4 ــ 106 ، 284/15 ، وانظر مجلة دعوة الحق العدد الاول ، السنة 17 ــ ص 87 .

(54) ــ الصلة 545 ، الوفيات 393/3 ، بغية الملتمس 125 ، الديباج 276 ، المغرب فى حلى المغرب 24/2 ، النجوم الزاهرة 231/5 ، ازهار الرياض 162/3 ، النفح 85/1 ، هدية العارفين 85/2 ، شجرة النور 124/1 ، دائرة المعارف الاسلامية 77/1 .

(55) ــ لحظ الالحاظ 73 ، الوفيات 413/3 ، الديباج 279 ، ازهار الرياض 165/3 ، شجرة النور 127/1 .

(56) ــ ارشاد السارى 41/1 ، كشف الظنون 546/1 ، هدة العارفين 84/1 ، شجرة النور 134/1

(57) ــ افرده ولده ابو عبد الله بالترجمة فى الرسالة سماها (التعريف) . وجمع ابو العباس المقرى فى سيرته واخباره كتابه « ازهار الرياض » وانظر : الصلة 429/2 ، القلائد 222 ، معجم ابن الابار 294 ، قضاة الاندلس 101 ، بغية الملتمس 425 ، مفتاح السعادة 19/2 تذكرة الحفاظ 1304/4 ، جذوة المقتبس 277 ، الديباج 168 ، شذرات الذهب 138/4 ، شجرة النور 140/1 .

من اهل المرية ، كان رحالا فى طلب العلم ، حريصا على لقاء الشيوخ ، حافظا ، بصيرا بالحديث ورجاله . (ت 569 هـ) (58) .

من مؤلفاته : « مطالع الانوار ، لصحاح الاثار »، اختصر فيه مشارق عياض ، ينقل عنه ابن حجر

39 — ابو محمد عبد الحق بن عبد الرحمان الاشبيلى ، ويعرف بابن الخراط ، كان فقيها حافظا ، عارفا بالحديث ورجاله ، موصوفا بالزهد والورع وملازمة السنة . (ت 581 هـ) (59) .

من مؤلفاته : « الاحكام الشرعية الكبرى » والجمع بين الصحيحين ، والعاقبة — فى التذكير ، افاد منها جميعها ابن حجر .

40 — ابو محمد عبد الواحد بن التين الصفاقسي ، محدث راوية ، مفسر متبحر . (ت 611 هـ (60)) له شرح على البخارى ، اسماه :

« المخبر الفصيح فى شرح البخارى الصحيح » استقى منه ابن حجر كثيرا ، وناقشه فى مسائل (61) ، وفى مقدمتها انه تشاغل ببعض الابحاث اللفظية عن المقصود الاهم للمصنف (62) .

41 — ابو الحسن على بن محمد بن عبد الملك الكتامى القاسى ، المعروف بابن القطان ، من حفاظ الحديث ونقدته . (ت 628 هـ (63) .

من مؤلفاته : « بيان الوهم والايهام ، الواقعين فى كتاب الاحكام » — انتقد به عبد الحق الاشبيلي فى كتابه « الاحكام » — فى الحديث ، يدل على قوة حفظه ، ودقة فهمه) لكنه — كما يقول الذهبى — تعنت فى احوال رجال ، وقد نبه على اوهامه فى مؤلف خاص . افاد ابن حجر من كتاب الوهم والايهام لابن القطان .

32 — ابو الخطاب عمر بن حسن بن دحية الكلبى السبتى ، كان بصيرا بالحديث ، معتنيا بتقييده ، معروفا بالضبط . (ت 633 هـ 64)) .

له تاليف مفرد فى الاسماء النبوية — ينقل عنه ابن حجر .

43 — ابو العباس احمد بن عمر الانصارى القرطبى ، من رجال الحديث ، رحل الى المشرق ونزل الاسكندرية ، وكان له تضلع فى علوم العربية . (ت 656 هـ 65) .

من مؤلفاته : « المفهم ، فى شرح مسلم » استقى منه ابن حجر كثيرا ، وعاد كذلك الى كتابيه : التذكرة ، ومختصر صحيح البخاري .

44 — ابو بكر محمد بن يوسف الاسدي ، المعروف بابن مسدى الغرناطى ، من حفاظ الاندلس (ت 663 هـ) (66) .

له المسند الغريب ، افاد منه ابن حجر .

45 — ابو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائى الجيانى ، احد الائمة فى علوم العربية . (ت 672 هـ) (67) .

---

58) — التكملة 151/1 ، الوفيات 45/1 ، جدوة المقتبس 86 ، الرسالة المستطرفة 18 1 .
59) — تهذيب الاسماء واللغات 292/1 ، فوات الوفيات 248/1 ، عنوان الدراية 20 ، التكملة 647 طبع مجريط ، التذكرة 1350 ، هدية العارفين 503/1 ، شجرة النور 155/1 .
60) — هدية العارفين 635/1 ، شجرة النور 168/1 .
61) — انظر مثلا : الفتح 62/2 ، 278/11 ، 258/14 .
62) — انظر الفتح 292/17 .
63) تذكرة الحفاظ 1407 ، جذوة الاقتباس 298 ، شذرات الذهب 128/5 ، هدية العارفين 706/1 ، الرسالة المستطرفة 133 .
64) — التكملة 659 ، صلة الصلة 73 ، الوفيات 121/3 ، التذكرة 1430 ، عنوان الدراية 159 ، النفح 99/2 .
65) — البداية والنهاية 213/13 ، هدية العارفين 95/1 .
66) — تذكرة الحفاظ 1488 ، لسان الميزان 437/5 ، النفح 112/2 ، الرسالة المستطرفة 62 .
67) — بغية الوعاة 53 ، فوات الوفيات 227/2 ، غاية النهاية 180/2 ، الوافى بالوفيات 359/3 النفح 222 ، دائرة المعارف الاسلامية 272/1 .

من مؤلفاته : « شواهد التوضيح ، على الجامع الصحيح » ينقل عنه ابن حجر .

46 ـ ابو محمد عبد الله بن سعيد بن ابى جمرة ، الشيخ القدوة ، الحافظ المحدث الراوية الزاهد الورع ، لا يذكره ابن حجر الا بالتجلة والاحترام . (ت 699 هـ) (68) .

له مختصر صحيح البخارى ووضع عليه شرحا ، اسماه « بهجة النفوس » افاد منه بن حجر كثيرا .

47 ـ ابو جعفر (احمد بن الزبير) الغرناطى ، نزيل حلب . (ت 708 هـ) (69) .

له حواشي على نسخته من صحيح البخارى ينقل عنها ابن حجر .

48 ـ ابو عبد الله محمد بن منصور بن حماقة السجلماسى (70) .

له فك اغراض البخارى المبهمة ، فى الجمع بين الحديث والترجمة » ـ ذكر فيه نحو مائة ترجمة ، افاد منه ابن حجر .

49 ـ لبياشى احد الحفاظ المغاربة ، له الاحكام الكبرى جمعها عن الفربرى ، (71) ينقل عنها ابن حجر .

50 ـ ابو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد السبتى ، الامام الحافظ ، المحدث الراوية . (ت 721 هـ (72)) .

51 ـ ابو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الفاسى ، المعروف بابن الحاج ، نزيل مصر ، من اعلام السنة الراسخين (ت 737 هـ) (73) .

من مؤلفاته : « مدخل الشرع الشريف » كشف فيه عن معايب وبدع يفعلها الناس ، ويتساهلون فيها ، واكثرها مما ينكر . افاد منه ابن حجر .

فى التاريخ والانساب واسماء البلدان والاماكن :

52 ـ ابو القاسم مسلمة (74) بن قاسم بن ابراهيم القرطبى ، من اقران الدارقطنى ، ومن ايمة الجرح والتعديل ، كان احد المكثرين فى الرواية والحديث ، سمع الكثير بقرطبة ، ثم رحل الى المشرق وطوف على كثير من البلدان ، فسمع الجلة من الشيوخ ، وعاد الى بلده بعلم جم . (ت 353 هـ (75))

من تاليفه التاريخ الكبير ، جعله ذيلا على تاريخ البخارى فى الرجال ، وذكر ما اغفله البخارى ، ينقل عنه ابن حجر .

53 ـ ابو محمد عبد الله بن على اللخمى المرى ، المعروف بالرشاطى ، عالم بالانساب والحديث من اهل الراوية ، استشهد عند تغلب الروم على المرية سنة (642 هـ (76)) .

من مؤلفاته : « اقتباس الانوار ، والتماس الازهار » ـ فى الانساب ، افاد منه ابن حجر .

54 ـ ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى ، من اهل شلطيش ، سكن قرطبة كان من اهل اللغة والاداب الواسعة ، والمعرفة بمعانى الاشعار والغريب ، والانساب والاخبار ، ضابطا لما كتب . (ت 487 هـ (77)) .

من اشهر مؤلفاته : « معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع » ـ ينقل عنه ابن حجر .

---

(68) ـ البداية والنهاية 346/13 ، نيل الابتهاج 140 ، هدية العارفين 462/1 ، شجرة النور 199/1
(69) ـ الاحاطة 72/1 ، الدرر الكامنة 84/1 ، البدر الطالع 33/1 ، شذرات الذهب 16/6
(70) ـ لم اقف على من ذكر ترجمته .
(71) ـ انظر مقدمة الفتح 243/1 .
(72) ـ الدرر الكامنة 111/4 ، جذوة الاقتباس 180 ، بغية الوعاة 85 ، ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي 255 ، ازهار الرياض 147/2 ، الرسالة المستطرفة 134 .
(73) الدرر الكامنة 237/4 ، الديباج 327 ، شجرة النور 218/1 .
(74) ـ فى مقدمة الفتح 24/1 ـ (مسلم بن قاسم) ، ولعله تصحيف .
(75) ـ تاريخ علماء الاندلس 128/2 ، جذوة المقتبس 324 ، لسان الميزان 35/6 ، مفتاح السنة 151 .
(76) ـ الصلة 285/1 ، معجم اصحاب الصدفي 217 .
(77) ـ الصلة 277 ، طبقات الاطباء 52/2 ، بغية الوعاة 285 ، دائرة المعارف الاسلامية 48/4

55 ـ ابو الوليد يوسف بن عبد العزيز اللخمي ، من اهل اندرة نزل مرسية ، ويعرف بابن الدباغ محدث الاندلس في وقته . (ت 546 (78)) .

له « طبقات المحدثين والفقهاء » ينقل عنـــه ابن حجـــر .

56 ـ ابو العباس احمد بن يوسف التيفاشـــي نسبة الى تيفاش من قرى قفصة بافريقية ، ولد بهـــا وتعلم بمصر ، ولي القضاء ببلده ، ثم عاد الى القاهرة وبها توفي سنة (651 هـ (79)) .

له معرفة بالاحجار الكريمة ، ومن مؤلفاتـــه : « ازهار الافكار ، في جواهر الاحجار » .

تطوان **سعيد اعـــراب**

---

(78) ـ الصلة 644/2 ، شذرات الذهب 442/4 ، هدية العارفين 552/2 ، فهرس الفهارس 308/1 .

(79) ـ الديباج 74 ، شجرة النور 170 ، معجـــم المطبوعات 651 .





– I –

ها هو ذا عدي بن حاتم الطائي في طريقه من الشام الى المدينة ، في يوم من ايام شهر شعبان من العام العاشر من الهجرة ، يقصد رسول الله ليبايعه على الاسلام ، بعد ان تراءى له ان يبايعه على الاسلام .

وكان عدي سيدا في قومه من بني طيء ، شريفا في بلاده ، من ارض حائل ، وكان ملكا في قومه ، يصدرون عن رأيه ، ويسيرون خلف رايته ، ويقسمون له في الغنائم ، ويؤثرونه بالربع منها ، على ما كانت العرب تصنع لملوكها .

وكانت بلاده لقربها من الشام ، حيث حكم قيصر ، وحيث النصرانية ذائعة ، قد ذاعت بين اهلها النصرانية قبل الاسلام ، فكان عدي نصرانيا وكونيا ، اي ذو دين يجمع من شعائر المسيحية ، ووثنية الصابئة ، ما يجمع ، أشياء من هنا ، واشياء من هناك ، تتسم بسمة الدين ، فعدي عليها ملتزم بها .

وجاء الاسلام بنوره الوضاء ، واهتزت الصحراء بدعوته السمحاء ، وذاع نبؤها في كل مكان من جزيرة العرب : وعلم عدي كل ما كان في مكة والمدينة من احداث جسام .

وكان دين عدي ، ووثنية العرب من حوله يحولان بينه وبين ان يصغي لنداء السماء فكره الرسول ، وكره الاسلام كرها شديدا .

وتوالت انتصارات الاسلام : بدر ، خيبر ، فتح مكة ، حنين يوما بعد يوم ، وعاما اثر عام ، وطيء على ماهي عليه من ضلالها وبهتانها وعدي على ما انطوت عليه نفسه من كراهية للاسلام ، وحقد على الرسول .

واخذ يفكر في الأمر مليا وجيوش محمد في كل مكان ، رايات المسلمين تخفق فوق كل بقعة ، انتصارات جنود محمد من حوله تدوي بذكرها أرض العرب وقبائلهم والأمم من حولهم كأنها الشمس لا تخفى في أي مكان .

– ان محمد لن يتركنا .

– وان جيوشه لابد ان تقدم علينا في يوم قريب .

– لقد هدم المسلمون الأصنام في كل مكان ، فل يبقون على اصنام طيء وحدها ... لا ، لن يكون ذلك .

بهذا كان عدي يحدث نفسه .

واخذ يفكر في الامر : ماذا لو انقض المسلمون على بلادنا هنا وما يكون المصير ؟ انا الذي سوف يجيء عليه الدور في يوم من الأيام .

وقال عدى لغلام له ، كان راعيا لابله : اعدد لى ابلا صعابا شدادا ، تكون قريبا منى ابدا ، وعلى استعداد للسير فى أى وقت ، فاذا سمعت بجيش لمحمد قد قدم الى بلادنا فانبئني على عجل ، ولا تتوان فى اعلامى بذلك .

ونفذ غلامه كل ما امر به ... واخذ ينتظر قدوم خيول المسلمين وجيوشهم . ان قدمت الى بلاد حائل ، فى يوم من الايام ، ليخبره بذلك مولاه ، وليبلغه اول شيء بالنبأ ، لعله يجد من الخطب مخلصا .

– 2 –

ولم تلبث الأحداث ان صدقت ظنون عدى ، فها هو ذا على ابن ابى طالب يخرج من المدينة فى كتيبة من كتائب الاسلام ، فيها مائة وخمسون مجاهدا ، مائة منهم على بعير ، وخمسون على خمسين فرسا يتقدمهم على ومعه راية سوداء ، ولواء ابيض .

والكتيبة سائرة مجدة ، فى طريقها الى بلاد حائل لتهدم بيت اصنامها الاكبر ، الذي بنته طيء . واتجهت اليه تعبده من دون الله .

وفى سحر يوم من الأيام جاء غلام عدى اليه يقول له :

ياعدى ، ما كنت صانعا اذا غشيتك خيل محمد ، فاصنعه الآن فانى قد رأيت رايات ، فسالت عنها ، فقالوا : هذه جيوش محمد .

فقال له عدى : قرب الى ابلى .

فقربها الغلام ، فركب عدى هو واهله وولده وما خف من ماله وسار بها فى الصحراء . وقال : الحق بأهل دينى من النصارى بالشام واعجلته المفاجاة عن ان يأخذ اختا له معه .

وشنت كتيبة المسلمين الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر ، فهدموا بيت اصنامهم ، واخذوا من الغنائم والاسرى ما اخذوا ، وفى الاسرى اخت عدى ، وكان عدى قد نجا بنفسه واهله وولده .

– 3 –

وسار عدى الى الشام عن طريق الجوشية . وهى موضع بين نجد والشام . ونجا بنفسه من القتل او الأسر . او هكذا كان يتصور انه نجا بنفسه .

واقام فى الشام فى بلاد الغساسنة . مع اهل دينه . ولكنه عاش ذليلا حيران نادما على ما فرط فى جنب الله .

وعادت خيول المسلمين وفرسانهم بالنصر والغنائم والأسرى . ومعهم ثلاثة اسياف كانت فى خزائن عدى وكذلك ثلاثة ادرع له ، وعلى الأسرى ابو قتادة . وعلى الابل عبد الله بن عتيك . وقسم على الغنائم فى الطريق وعزل نصيب رسول الله ، ولم يقسم الأسرى من آل حاتم حتى قدم بهم المدينة .

ودخل الجيش الظافر المدينة . وبلغ على رسول الله بالنصر والبشرى فوضعت الأسرى من النساء فى بيت تجاه باب المسجد كانت توضع فيه السبايا .

– 4 –

وسار رسول الله الى السبايا .. يرى ويسمع ما يكون من مظلمة لهن . ومعه على بن أبى طالب .

فمر رسول الله باخت عدى فقامت اليه ، وكانت امراة جزلة . فقالت :

يا رسول الله . هلك الوالد . وغاب الوافد . فامنن على من الله عليك .

فقال لها صلوات الله عليه : ومن وافدك ؟ قالت : عدى بن حاتم .

قال لها صلوات الله عليه : الفار من الله ورسوله .

فسكتت ابنة حاتم . ومضى رسول الله فى طريقه وتركها .

وفى الغد ذهب رسول الله الى هؤلاء الأسيرات يرى ويسمع ايضا مظالمهم ، ومعه على .

فنهضت أخت عدى ، فقالت له ما قالته بالأمس ، وقال لها رسول الله مثل ما قاله بالأمس . ومضى وتركها .

وفى اليوم التالى ذهب كذلك رسول الله بنفسه اليهم ، فسار وخلفه علي فمر بها ، وقد يئست منه . فصمتت فاشار اليها علي : ان قومى فكلمى رسول الله فقامت اليه فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد وغاب الوافد ، فامنن علي من الله عليك .

فرد عليها رسول الله فى صوت جليل ، كان له رنة البشرى فى نفس هذه المرأة الذليلة .

« قد فعلت ، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون ذلك ثقة ، حتى يبلغك الى بلادك . ثم آذنينى ... »

فاقامت اخت عدى على وعد كريم ، وامل جد عظيم وهى تقول لنفسها :

اي ملاك كريم هذا الرجل ؟ واي انسان عظيم ـ قد اشربت نفسه الانسانية فى ارفع قيمها ـ هذا الانسان ؟

وجاء الى المدينة ركب من التجار من بلى او قضاعة ، فعزمت فى ـ نفسها ان تخرج الى اخيها ببلاد الشام .

فجاءت الى رسول الله ، فقالت : يا رسول الله قد قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ فكساها رسول الله ، واعطاها نفقة ، ووهبها راحلة تركبها .

وخرجت ابنة حاتم معهم ، حتى قدمت على اخيها فى الشام .

وفوجيء عدى بابل تؤمه ، وعلى احداها اخته تنزل من هودجها ، فاذا هى هى .

ونزلت اخت عدى لتقول له فى سخط شديد ، وغضب قوى ، وعتاب مرير ، وهى توجه كلامها اليه :

القاطع ، الظالم : احتملت باهلك وولدك ، فرحلت بهم وتركتني ، تركت بقية والدك ، عورتك وعرضك .

فلم يجد عدى ما يرد به علي اخته ، الا ان قال لها : اى اخت قولى بى خيرا ، ولا تقولى الا خيرا ، فوالله مالي من عذر ، لقد صنعت كل ما ذكرت واغرورقت عيناه بالدموع ، ونزلت اخته لتجد ما هو فيه من هوان وذلة بعد العز المكين ، والشرف الكبير ، فصمتت وتركت بقية اللوم فى طوايا نفسها .

واقام عدى واقامت اخته معه ، وقصت عليه ما لقيته من محمد واصحابه من كرم ونبل وخير .

وفى يوم من الايام ، اخذ عدى يستشير اخته ، وكانت امراة حازمة ذات عقل رصين . فقال لها :

اى اختى ماذا ترين فى امر هذا الرجل ؟ فردت عليه :

ياعدى ، ارى والله ان تلحق به سريعا ، فان يكن الرجل نبيا فللسابق اليه فضله ، وان يكن ملكا فلن تذل فى عز اليمن ـ وقبيلة طيء يمنية من كهلان على ما تعلم ـ واسترسلت اخت عدى تقول له : وانت انت .

ورد عليها عدى : والله ان هذا للراى ، وانى لارجو ان يجعل الله يده فى يدى .

وخرج عدى فى اهله وولده وبقية ماله ، حتى قدم المدينة ، سائرا مغذا يقصد رسول الله .

واناخ برواحله امام المسجد النبوي ، ودخل على رسول الله وهو فى مسجده جالس بين أصحابه .

— 5 —

هاهو ذا عدى يقف بين يدى رسول الله ، يردد : يا محمد .

فيرد عليه الرسول : من الرجل ؟

فيعود الجواب الى رسول الله : عدى بن حاتم ، ويكرم رسول الله عديا ، ويقوم اليه يصافحه ، وينطلق به الى بيته ، ويقول ياعدى ، جئت بغير امان ولا كتاب .

وفى الطريق ، طريق الرسول الى بيته ، ومعه ضيفه عدى بن حاتم تلقاه امراة كبيرة ضعيفة ، فتستوقف رسول الله ، فيقف لها طويلا ، تكلمه فى حاجتها ، ويستمع اليها ويطيل الاستماع .

ويتعجب عدى ، ويقول فى نفسه ، والله ما هذا بملك .

ويمضى رسول الله بضيفه عدى ، حتى يدخل به بيته ، ويتناول وسادة من ادم محشوة ليفا ، فيرمى بها الى عدى ، قائلا له : اجلس على هذه ويرد عدى : بل انت فاجلس عليها . فيقول له الرسول : بل انت ، فيجلس عدى عليها ، ويجلس رسول الله بالارض .

ويمضي عجب عدى من امر محمد الى غايته ، ويقول فى نفسه والله ما هذا بامر ملك .

ثم التفت اليه رسول الله وقال له :

- ياعدى ، هل تعلم من اله سوى الله ؟
- فاجاب عدى : لا : يا رسول الله .
- وعاد الرسول صلوات الله عليه : يقول له :
- ياعدى ، هل تعلم شيئا اكبر من الله ؟
- ويجيب عدى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان لا .
- ويعود رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الحديث :
- يا عدى ....

ان اليهود مغضوب عليهم ، وان النصارى ضالون .

- وسكت عدى .
- ويعود الرسول صلى الله عليه وسلم الى الحديث :

« يا عدى ، اسلم : تسلم .. » .

- ويقول عدى لرسول الله صلوات الله عليه : ان لى دينا .
- ويقول له رسول الله فى حلم وأناة :

« انا اعلم بدينك منك » .

« الست تراس قومك ؟ » .

- ويقول عدى : بلى .
- ويقول الرسول : الست تاكل المرباع ؟
- ويقول عدى : بلى .

وفى رواية اخرى ان رسول الله قال له :

ايه يا عدى بن حاتم .

الم تكن ركوسيا ؟

ويرد عدى : بلى .

فقال له رسول الله : او لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟

ويرد عدى : بلى .

قال له صلوات الله عليه : فان ذلك لم يكن يحل لك فى دينك .

قال عدى : اجل والله ، وملكه العجب ، وقال فى نفسه : والله ما هو بملك ان هو الا نبى مرسل .

ويتلفت اليه الرسول فيقول له :

ياعدى : اسلم تسلم ...

لعلك انما يمنعك من دخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم . فوالله ليوشكن المال ، ان يفيض فيهم حتى لا يوجد من ياخذه .

ولعلك يا عدى انما يمنعك من دخول فيه ماترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم . فوالله ليوشكن ان تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها ، حتى تزور هذا البيت لا تخاف .

ولعلك يا عدى انما يمنعك من دخول فيه انك ترى ان الملك والسلطان فى غيرهم ، وايم الله ليوشكن ان تسمع بالقصور البيض من ارض بابل قد فتحت عليهم . (1)

---

(1) وفى رواية اخرى : ان رسول الله قال له : قد أظن انه انما يمنعك من الدخول فى الدين غضاضة تراها من حولى ، وانك ترى الناس البا واحدا ـ هل رايت الحيرة ؟ فيقول عدى : لم آتها وقد علمت مكانها ، فيقول له الرسول : يوشك ان تخرج الظعينة منها بغير جوار ، حتى تطوف بالبيت ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز ...

ويملك التعجب من عدى كل اقطار نفسه فيقول لرسول الله فى استغراب شديد :

كسرى بن هرمز ..

ويقول له الرسول : نعم

ويستمر الرسول فى حديثه لعدى :

وليفيضن المال حتى يهم الرجل من يقبل صدقته .

ـ الاصابة لابن حجر ـ .

واخذ عدى يقول فى نفســه : يا الله ، مـاذا اسمع ؟ ما هذا الصوت الجليل الذى يردد : ياعدى ، ياعدى ،ياعدى،كيف يصنع محمد بي كل ما يصنع،يكرم اختي وانا عدوه ، ويكرمني وانا خصم له : ويرحب بي فى بيته ، وقلبى يتمنى له الهلاك ، ويجلس علــى الأرض امامى : وانا من انا : طريد شريد ذليل ... ماذا اسمع : ياعدى ياعدى ، ياعدى ، ماهو واللــه بملك : ان هو الا نبى مرسل ...

ولا يملك عدى الا ان يقول وهو فــى عجب شديد ، وقد افاق من غيبوبته الطويلة ، وتساؤلــه الملح : ما هذا الدين ، اي دين هــو ، اي شريعــة تلك ، اى عقيدة انسانية كانت تلك العقيدة . ومــد يديه لتعتنق يد محمد ، وهو يقول :

أشهد ان لا اله الا الله .

واشهد ان محمدا رسول الله (2) .

د . محمد عبد المنعم خفاجة

---

(2) مصادر المقال :

1 ـ تاريخ الطبرى ، الجزء الثانى فى اخبار الوفود ، عام 9 هـ . ومعنى ذلك ان هذه الوفادة كانت فى العام التاسع ، لكن فى كتاب « الاصابة » لابن حجـر (المتوفى عام 856 هـ) انها كانت فى شعبان من العام العاشـر .

2 ـ سيرة ابن هشام الجزء الرابع فى اخبار الوفود ، فى العام التاسع ايضا .

3 ـ الاصابة الجزء الثانى ص 461 .

4 ـ الاستيعاب لابن عبد البر على هامش الاصابة ص 42 الجزء الثالث .

5 ـ مختصر سيرة الرسول لعبدالله بـن الشيـخ محمد بن عبد الوهاب ص 388 ـ وقد توفى عدى بن حاتم عام 68 هـ . عن مائة سنة كما يذكر ابـن حجر ، او عام 67 هـ . كما يذكر ابن عبد البـر فـى الاستيعاب ، واغلب الروايات على انه عاش مائة وعشرين سنة فيكون ميلاده عام 53 قبل الهجـرة ، اى انه ولد فى العام الذى ولد فيــه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عام الفيل ، سنــة 571 م .

إشارات وأعلام

حول تاريخ الاتراك في الاسلام

للأستاذ محمد العربي الشاوش

حضرت الدولة التركية مؤتمر القمة الاسلامي بلاهور فى شهر فبراير سنة 1974 وذلك لاول مرة فى تاريخها الحديث . ولعل شعور الفرح والابتهاج بحضورها قد عم الدول الاسلامية ، لما عرفت به تركيا من ماض مجيد فى خدمة الاسلام ، وزعامة الامة الاسلامية اكثر من أربعة قرون كانت فيها قبلة انظار المسلمين قاطبة .

ظهور الاتراك :

فمنذ القرن الثامن الميلادي ابتدأ ظهور الاتراك فى المجتمع الاسلامي كمسلمين سنيين صادقين بعد أن فتح قتيبة بن مسلم قبائلهم فى آسيا . ثم كان لهم نشاط سياسي خطير فى الدولة الاسلامية من منتصف القرن التاسع للميلاد الى منتصف القرن العاشر حتى عرفت تلك الفترة بعصر نفوذ الاتراك فى الخلافة العباسية .

الاتراك السلاجقة :

ثم تجدد نفوذهم بطريقة اقوى واشمل فى القرن الحادي عشر للميلاد باسم السلاجقة ، نسبة الى سلجوق زعيم القبائل التركية الاسيوية فى القرن العاشر الميلادي . وظهرت كفاءة السلاجقة حتى اعترف الخلفاء بهم ، واعتمدوا عليهم ، ومنحوهم سلطة واسعة ، واطلقوا على قادتهم لقب سلطان .

وشارك السلاجقة فى الحروب الصليبية واستردوا بعض المراكز الاسلامية من يد الصليبيين . وغزوا آسيا الصغرى واستولوا على معظمها بعد انتصارهم على روم بيزانطة فى القرن الثاني عشر الميلاد .

ثم تقلص نفوذ السلاجقة فانكمشوا فى آسيا الصغرى بعد سقوط بغداد فى يد التتر بقيادة هولاكو سنة 656 هـ - 1258 م . وانتقلت الخلافة العباسية الى مصر التي كانت تحت نفوذ المماليك الذين آووا بني العباس واعترفوا بخلافتهم اعترافا روحيا فقط ، وبقي الامر كذلك الى ان انتقلت الخلافة الاسلامية الى العثمانيين .

الاتراك العثمانيون :

والعثمانيون انفسهم قبيلة تركية اسيوية فرت بزعامة قائدها أرطغرل من وحشية التتر وطغيانهم ، واستقرت فى آسيا الصغرى - التي هي اليوم تركيا نسبة الى الشعب التركي - تحت حماية ابناء عمومتهم السلاجقة الذين منحوهم ارضا اطلقوا عليها : «سلطموني» أي مقدمة السلطان ، وامروا عليها الزعيم ارطغرل اكراما لشجاعته ووفادته . ولما مات تولى الامارة بعده ولده عثمان ، وذلك فى مستهل القرن الرابع عشر ، والى عثمان هذا ينتسب العثمانيون ، فهو مؤسس سلالة الخلفاء العثمانيين فيما بعد وعميد بيت آل عثمان .

قيام الخلافة العثمانية :

فبعد ان دب الخلاف والضعف في دولة السلاجقة ابتدا آل عثمان يبسطون نفوذهم على آسيا الصغرى وما جاورها حتى تم لهم الامر ، ثم ابتدا طموحهم للخلافة الاسلامية بعد ذلك ، ثم تالق نجمهم بعد فتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية (بزانطة) على يد محمد الفاتح سابع امراء العمثانيين في منتصف القرن الخامس عشر ، تم اعلنوا « الخلافة العثمانية السنية » في اوائل القرن السادس عشر على عهد السلطان سليم الاول الذي يعتبر اول « خليفة » عثماني ، لان من سبقوه من عهد الامير عثمان الاول الى بايزيد الثاني بن محمد الفاتح كانوا يحملون لقب امير .

وقد نقل امير المؤمنين سليم الاول عاصمة خلافته الى القسطنطينية واطلق عليها اسم « اسلامبول » وتعرف كذلك باسم « الاستانة » و « استانبول » وهذا الاخير هو اسمها التاريخي الاصيل وبه تعرف الان .

وتم للخلافة العثمانية الاستيلاء على الشرق الاوسط ، وعلى شمال افريقيا الى حدود المملكة المغربية التي احتفظت باستقلالها التام ، وكانت علاقتها مع الخلافة العمثانية علاقة حسنة في ظل التضامن الاسلامي .

وصار خطباء المساجد يدعون للخليفة العثماني باعتباره أمير المؤمنين ، مالك البرين والبحرين ، وخادم الحرمين الشريفين . وكان بلاط الخليفة يعرف باسم الباب العالي .

وخلافا لبعض مؤرخي الادب العربي الذين وصفوا العصر العثماني بعصر الانحطاط الادبي والفكري بسبب تقصير الخلفاء العثمانيين في تشجيع وتنشيط الحركة الادبية والفكرية ، يمكننا ان نقول بأن اللائمة في ذلك لا تقع على العثمانيين ، فقد اعلن هؤلاء الخلافة العمثانية والعالم الاسلامي في حالة تمزق وتدهور نتيجة الغزو المغولي الذي اطاح بالخلافة العباسية وحطم معالم الحضارة الاسلامية باحراق الكتب وتدمير المنشآت العمرانية والمؤسسات العلمية ، وبازهاق أرواح الابرياء من العلماء والادباء والمثقفين على يد جنكيزخان وحفيده هولاكو ثم تيمورلنك الذي لم ينج من بطشه حتى الخليفة العثماني نفسه . فكانت هذه الوحشية التترية سببا في تدهور الاوضاع الثقافية والاجتماعية ، وما يصاحب ذلك من آثار نفسية عميقة ادت الى ركون الناس الى حياة الزهد والقناعة ، او الى الانغماس في حياة اللهو والعبث بسبب القلق والرعب الذي ورثه الابناء عن الاباء والاجداد نتيجة للاصداء التي خلفها ذلك الغزو الوحشي العنيد . وكل ذلك جعل الخلافة العثمانية تجتاز ازمة ركود فكري وادبي خطير لا ناقة للخلفاء فيه ولا جمل ، بل ان الخلفاء العمثانيين بذلوا جهودا مشكورة في اعادة الثقة والاطمئنان الى النفوس ، وترميم وتشييد ما تصدع او تدمر من اركان الحضارة الاسلامية العتيدة .

نعم ان الخلافة العثمانية عملت على نشر الثقافة التركية الى جانب الثقافة العربية ، ولكنها حافظت على الاصالة الاسلامية والعربية كذلك ، ولمعت في عصرها اسماء رجال اثروا الحضارة الاسلامية والخزانة العربية بانتاجهم الغزير ، نذكر من بينهم على سبيل المثال : صفي الدين الحلي أمير الشعراء في عصره ، وجمال الدين بن نباتة صاحب « الديوان الصغير » و « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » ، وجمال الدين ابن منظور صاحب « لسان العرب » ، وتقي الدين ابن تيمية صاحب « الفتاوي » و « السياسة الشرعية » ، وابن قيم الجوزية صاحب « زاد المعاد » ، وجمال الدين ابن هشام صاحب « مغنى اللبيب » ، وشمس الدين الذهبي صاحب « تاريخ الاسلام » ، وابن خلدون صاحب « المقدمة » ، والفيروزابادي صاحب « القاموس » ، والمقريزي صاحب « الخطط والآثار » ، والقلقشندي صاحب « صبح الاعشى » ، وشهاب الدين القسطلاني شارح البخاري ، وجلال الدين السيوطي صاحب التاليف في اللغة والتفسير والحديث . وغير هؤلاء كثير من الاقطاب الذين يمثلون العصر العثماني وكانوا اساتذة لائمة النهضة العربية الحديثة . وانك لتجد من بين شعراء النهضة من مدح الدولة العثمانية وتغنى بامجادها كحافظ وشوقي رحم الله الجميع .

ضعف الخلافة العثمانية :

وظلت الخلافة العمثانية محتفظة بسيادتها ، مرهوبة الجانب ، رافعة لواء الاسلام ، الى اوائل القرن الثامن عشر حيث بدأ الضعف يتسرب الى اجهزة الدولة بركون بعض الخلفاء الى حياة اللهو

والترف من جهة ؛ ومن جهة اخرى بالدسائس الاستعمارية الصليبية المتألبة على العالم الاسلامي من اجل تحطيم وحدته واغتصاب سيادته .

ظهور القوميات العربية :

وما ان حل القرن التاسع عشر حتى كان الزمام على وشك الافلات من يد الخلافة ، ولم يعد في وسعها مقاومة المد الاستعماري الجارف ، ولا الوقوف في وجه القوميات العربية والاسلامية المتوثبة . فاستقل عن الخلافة من استقل ، ووقع في قبضة الاستعمار الغربي من وقع ، فقد احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830 ثم فرضت حمايتها على تونس سنة 1880 ثم خضعت سوريا ولبنان للانتداب الفرنسي ايضا ، كما خضع العراق والاردن وفلسطين واقاليم عربية واسلامية اخرى للنفوذ الانجليزي ، ولم تنج مصر كذلك من الاحتلال الانجليزي سنة 1882 رغم استقلالها عن الخلافة بقيادة محمد علي باشا بعد الغزو الفرنسي لها بقيادة نابليون بونابرت 1798 — 1801 واعتبر هذا التاريخ مبدا للعصر الحديث .

ومن اجل اعتراف فرنسا بسيطرة انجلترا على الاراضي المصرية ، اعطت لندن الحق لباريز في السيطرة على المغرب طبقا لاتفاقية 1904 . وهكذا مهدت فرنسا لفرض حمايتها على المغرب سنة 1912 بالاتفاق مع اسبانيا وفقا لمؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906 . كما احتلت ايطاليا ليبيا بمقتضى معاهدة لوزان سنة 1912 . وكان من نتائج هذا الاحتلال الغربي للعالم العربي والاسلامي ظهور القوميات العربية الرامية الى التحرر والاستقلال .

قيام الجمهورية التركية :

وهكذا وجدت الخلافة العثمانية نفسها في مطلع القرن العشرين ممزقة شر ممزق ، وصار نجمها على وشك الافول ، واصبح مهد الاتراك ومقر الخلافة نفسه مهددا بالغزو من طرف خصومه الغربيين ، لولا ان تدارك الله تركيا على يد نخبة من رجالها الاحرار بزعامة اتا تورك مصطفى كمال الذي اطاح بنظام الخلافة في عهد السلطان محمد السادس آخر خلفاء آل عثمان ، واعلن الجمهورية التركية سنة 1923 وتولى رئاستها ونقل عاصمتها الى انقرة .

جامعة الدول العربية :

اما الاقطار العربية التي خضعت كرها للاحتلال الغربي فقد كافحت من اجل الحصول على استقلالها وسيادتها حتى تحررت واحدة تلو الاخرى ، ثم انتظمت المجررة منها في منظمة خاصة هي جامعة الدول العربية ، وذلك في سنة 1945 ثم انضمت اليها الدول التي تحررت بعد ذلك التاريخ بفترات متقاربة . ولم يبق خارجا عن هذا العقد العربي الا فلسطين الجوهرة العربية المغتصبة مع طرف الصهاينة بمقتضى وعد بلفور (2 — 11 — 1917) من جهة وبتواطؤ الاستعمار الامريكي واشياعه مع المغتصبين من جهة اخرى . ولسوف تعود فلسطين الى مكانتها اللائقة بين الدول العربية والاسلامية باذن الله .

تكتل الدول الاسلامية :

وكما تكتلت الدول العربية لشعورها بالحاجة الى هذا التكتل — والتكتل قوة ومظهر من مظاهر التطور والنضوج الفكري والاجتماعي — كذلك تكتلت الدول الاسلامية عربية كانت او غير عربية (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى . المسلم اخو المسلم) وكونت عروة وثقى لا انفصام لها ، متعاونة على البر والتقوى عاملة بقول الله عز وجل « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

حياد الجمهورية التركية :

لكن الجمهورية التركية في عهد رئيسها مصطفى كمال (1923 — 1938) اتجهت اتجاها غربيا لا دينيا خالصا بتوجيهات كمال الذي يبدو انه كان متأثرا بافكار غربية خطيرة حينما اقدم على تحويل تركيا من دولة اسلامية شرقية اصيلة الى دولة علمانية غربية محضة ، معرضة عن امجادها التاريخية الخالدة ، وعن حضارتها الاسلامية الشرقية العريقة ، وبذلك اصبحت تركيا منعزلة عن العالم الاسلامي ، ووقفت من قضاياه الهامة مواقف سلبية مؤسفة . وتأسف الضمير الاسلامي تأسفا بالغا من الوضعية التي آل اليها الاتراك بعد ان عاشوا في ظل الاسلام اثنى عشر قرنا ، ثم جاءت العاصفة الهوجاء لتحولهم رغم ارادتهم عن الطريق المستقيم الذي سار عليه الاباء والاجداد ، ولهم فيه عدد من المفاخر والامجاد !

ولكن نجم الاسلام لم يأفل من سماء تركيا ، بل ان الروح الاسلامية ظلت كامنة في قلب الامة التركية، غير ان الوضعية الثورية التي عاشتها تحت رئاسة كمال جعلت المظاهر الاسلامية تختفي كاختفاء الشمس وراء سحب كثيفة متلبدة !

وخلف كمال في الرئاسة عصمت اونو سنة 1938 . فكان اهم ما ظهر في عهده هو الغاء نظام الحزب الوحيد الذي فرضه سلفه ، وهكذا تألفت عدة احزاب زيادة على حزب الشعب الحاكم ، وكان الحزب الديمقراطي الذي الفه جلال بايار هو ابرز واقوى الاحزاب الناشئة .

طلوع فجر الاسلام :

وفي سنة 1950 سيطر الحزب الديمقراطي على الحكم ، وتولى جلال بايار رئاسة الجمهورية التركية، وكان من ابرز مظاهر عهده اطلاق الحرية الدينية والسماح للامة التركية باظهار شعائرها الاسلامية ، فكانت بشارة عظمى حيث طلع فجر الاسلام من جديد على الديار التركية الحبيبة ، مؤذنا بعودة الدولة الى احياء تاريخها الاسلامي المجيد ، وانتظامها في سلك اخواتها الدول الاسلامية العتيدة .

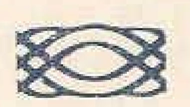
وقامت جمعيات وهيئات تبشر بالاسلام وتعمل على نشره بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتعزز موقف العاملين في هذا السبيل بظهور حزب السلام الذي يعد من الهيئات المنادية بعودة الدولة رسميا الى الاسلام ، وقد حققت هذه الهيئات تقدما بارزا في هذا الميدان .

وما الخطوة المباركة التي اقدمت عليها الحكومة التركية حين قررت حضور مؤتمر القمة الاسلامي بلاهور الا حجة صادقة على حسن نية الاتراك حكومة وشعبا من اجل تجديد اواصر الاخوة التاريخية الاصيلة وروابط المودة الراسخة مع العالم الاسلامي الناهض المتحرر من رواسب الرجعية والجمود ونعرة الجاهلية .

واذا رايت من الهلال نموه
ايقنت ان سيصير بدرا كاملا !

فهنيئا للشقيقة تركيا بنهضتها الاسلامية المباركة ، وهنيئا للعالم الاسلامي المتفتح بالتئام شمله وتوحيد كلمته ، وصدق الله العظيم اذ قال : « لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم » .

تطوان : محمد العربي الشاوش



نفحات جد عابرة

حول المدلول التاريخي والانساني لعالمية المدنية الاسلامية

للأستاذ المهدي البرجالي

جمعت الحضارة الاسلامية بين ثلاث قارات ،هي كل العالم القديم الذى كان معروفا أثناء القرون الوسطى قبل اكتشاف اليابسة فيما بين المحيطين ، الاطلسي والهادىء

لقد نبعت اصول هذه الحضارة من آسيا ، ثم ترعرعت فيما بعد ، بين هذه القارة وبين افريقيا ، وبينهما عبر البحر المتوسط وبين اوروبا ، فى اطراف مختلفة منها بالغرب والشرق

ومن ثم ، اتخذت الحضارة الاسلامية ، صفة « العالمية » باعتبار انها وسعت معظم العالم المعروف فى عهد تفوقها ، وبكل ما يعنيه هذا الشمول من تعدد شاسع فى العناصر ، وتنوع فى الحالات بيد ان هذا التعدد والتنوع ــ وهذه مائزة الحضارة الاسلامية ــ كانا واقعين فى اطار من التلاحم والتكامل ، جعل من هذه الحضارة ، مصهرا حقيقيا للشعوب التي شاركت فيها ، وسمة حاسمة فى تاريخ التطور الانساني بكامله

لقد استوعبت الحضارة الاسلامية اوسع مجموعة بشرية متكاملة عرفها التاريخ : شعوب شتى متنوعة الالوان والاعراق ، لغات بكل حرف ولحن ، امزجة جماعية وبيئات اجتماعية وطبيعية ، وانماط حياة ، ومجارى تاريخ على درجة بالغة من اختلاف الاوجه وتعدد المناحي ، بقدر تنائي جهات المحيط الاسلامي وكثافة الحوائل المنبثة بين آفاقه

ومع هذا ، فقد اتسعت الروح التي قامت عليها حضارة المسلمين لامتصاص مثل هذه التناقضات وتمثلها ، وأمكن بفعل ذلك ، بلورة كيان حضارى فريد ، يضم مفارقات الخصائص الاجتماعية والفكرية والثقافية عبر القارات ، الا ان الطابع المعنوى العام المتميز به هذا الكيان ، طابع مشترك ، تبدو سماته فى اقصى الشرق ، كما في أقصى الغرب ، لا اختلاف جوهريا من هذا المعنى ، فيما يوجد هنا ، او هناك

ولا يفهم من هذا ، ان مظاهر الحضارة فى مختلف الآفاق الاسلامية هي هي ، بحث لاتجد من خلالها فروقا بين طبيعة الحياة وآثارها فى الشرق الاقصى الاسلامي مثلا ، وبين مثل ذلك فى اواسط افريقيا الزنجية الاسلامية ،او بين هذه المناطق وبين غيرها فى ناحية خليج البنغال ، او على شواطىء الشرق الافريقي .

ان مثل هذا الفهم للاشياء ، غير وارد بطبيعة الحال ، ولهذا قيدنا القول حول تشابه وجوه الطابع الحضارى الاسلامى بكون هذا التشابه واقعا خاصة فى النطاق المعنوى ، اي فى دائرة المفهوم الحضارى الأعمق ، المتمثل فيما يحتضن من قيم ومثاليات معنوية ، وما ينطبع به الفكر العام في تكيفه بموجب مثل هذه المؤثرات ، ثم ما يرتد من ذلك على الاخلاق والسلوك فى عمومياته ، وما ينعكس منه فى مضمار العادات والتقاليد ، يومية او موسمية ، ونحو ذلك

مما يتصل بانماط الحياة الاجتماعية ، وكثير من اوضاع الحياة بشكل عام ؛

ان هذه المجالات نفسها ، لا تعرض بالضرورة حالة تشابه تام على صعيد المجتمع الاسلامي في اطلاقيته ، الا ان هناك في هذا النطاق قدرا واسعا من التماثل في الاحوال ، تبررها وحدة النبع الروحي والثقافي ، القائمة به الصفة الاسلامية اساسا عند المسلمين وتجانس الشروط و لمعايير التي مافتىء يتم بها تطورهم المجتمعي ، ضمن نطاق من المؤثرات من بينها اساسا ، المؤثر الديني وملابساته ، وهذا قاسم مشترك ، ذو فاعلية مهمة في ربط الشعوب الاسلامية بعضها ببعض على لصعيد المعنوي للحضارة ، كما يتضح اثر ذلك في حياة هذه الشعوب العقلية والاجتماعية ، وفي روح التراث المتخلف لها من تاريخها الاسلامي على امتداد ابعاده .

وحتى على المستوى المادي للحضارة ، فاننا سنجد ان صورة الحياة الاسلامية — اذا ماذهبنا نتبينها من هذه الزاوية — تعرض علينا كثيرا من القسمات المتشابهة فيما بينها على مناح متعددة ؛ خاصة ما يتصل من ذلك بالطراز المعماري الديني ومرافقه ، ثم ما يدخل في باب الالبسة التقليدية ، ومشهد الاسواق وسوى ذلك .

ان الحضارة الاسلامية ظاهرة وحيدة ، مختلفة اختلافا كيفيا عن الحضارات غيرها ، وتتميز — من حيث ابعادها المادية — بطاقة شمول واستيعاب جد شاسعة ، والملحوظ أن حيوية المدنية الاسلامية بهذه الصورة ، لا تختص بعصر دون آخر ، فهذه الحيوية ، لم تنحصر في عهود ازدهار نفوذ المسلمين السياسي ، كما انها لم تتراجع عندما جزر مد سلطانهم ، وآل بعد توسعه الدافق الى نضوب ؛ لقد احتفظت الحضارة الاسلامية بديناميتها هذه ، حتى عندما تهاوت الاوطان الاسلامية ، تحت غمرة السطوة الاوربية اثناء القرون الاخيرة وغدا اهلها خلال الحقبة ، معرضين لعمليات التحويل المراد منها خلخلة رسوخ اصالتهم الحضارية ، واكثر من هذا ، فان جاذبية القيمة العليا للفكر الاسلامي وهي لعقيدة ، قد استمرت خلال فترات تدهور المسلمين على حال سواء من الفاعلية والنشاط ، مثلما كان حالها ابان سؤددهم ، ومن ثم ، بقي الافق امام الدعوة مفتوحا لاكتساب مزيد من المواقع ، وتحدى الحملات التبشيرية المنظمة والواقعة في الكثير من الحالات ، — تحت اشراف القوات الاستعمارية نفسها ؛ وبقدر ذلك التألق المستمر في جاذبية الدعوة — رغم قيود الظرف وسلبياته — كان تألق مضمونها الثقافي وملابساته الحضارية يتمثل ذلك في تجدد مقدرتها على اعادة صياغة مفاهيم اولئك الذين يعتنقونها ، وتحوير علاقتهم بأنفسهم وبالناس ، وتطعيم حصيلاتهم من المعرفة ، بفيض من المعاني والدلالات الجديدة ، تنعكس على نظرتهم للحياة ، ومسلكهم فيها ، ان مثل هذه التأثيرات ، لتشكل قاعدة مبدئية لحالة خصبة بامكانيات التطور الحضاري ، مثلما يحدث دائما بالنسبة لمن يأخذون بمبدا ما ، فيجدون فيه مورد فكر وثقافة ونهج في الحياة ويرتسم لهم بذلك سبيل لمراجعة موقعهم في مضمار لحضارة ، وتطوير ممارستهم الحضارية على ضوء هذه المراجعة .

ان الانتشار الذي مافتىء الاسلام يحققه في انحاء افريقيا وغيرها من مناطق العالم في عصرنا ، لينطوي في محتواه على بذور تحولات حضارية من هذا المعنى ، تتناول في المدى القريب ، وجهة لتفكير والتقييم عند الجماعات التي يتخذ الاسلام بين ظهرانيها مراكزه ، وتنفذ — عبر ذلك — من منظور الامد البعيد — الى تغير الصورة الحضارية لهذه الجماعات ، وفقا لمحتويات الثقافة التي تحصلت لها بتعرفها على مصادر الفكر الاسلامي الذي اعتنقته ،وبما يتأتى لها من ذلك ايضا ، عن طريق التفاعل الفكري ، مع بقية العالم الاسلامي ، في ارتباطها به .

ومن ثم ، فالمعروض ، امامنا باستمرار ، عن الظاهرة الحضارية الاسلامية ، هو توالي قوة الدفع الايجابي في صلب هذه الحضارة ، خلال عصرنا ، مثلما توفر لها من طاقة على هذا النحو اثناء الحقب الماضية ، وليس هناك ، الا مايؤذن بأن هذه الطاقة موصولة الفعل في مقبل الازمنة ، متجذرة الاثر اكثر ، نتيجة لقرب المفهوم الاسلامي من ذهنية المجتمعات التي تتعرف على هذا المفهوم وتعتنقه ، ولما يقدمه هذا المفهوم من حلول لقضايا هذه المجتمعات ، وتنسيق لمصالحها ومواقفها ، في اتجاه البحث عن تعايش عالمي افضل ، واستكشاف سبيل ثقافة انسانية سمحة ومتحررة .

وفي الرجوع للاصول التاريخية تعرفا على عوامل الشمول والاستيعاب في الكيان الحضاري

الاسلامي ، نرى ان الطابع الانساني لتلك الحضارة ، كفل لها ، على مدى الدهر الطويل ــ سمة القابلية التي توفرت لها كمصهر مثالي لعبقريات الشعوب ، ومحور استقطاب ملائم لهذه العبقريات

لقد قامت الحضارة الاسلامية ــ فيما يخص النظرة الى العلاقات بين الناس ــ على مبدأ التماثل بين الاجناس في القيمة ، فلا تفاوت فطريا بين عرق وآخر من الاعراق ، ولا اعتبار لاختلاف الالوان والسحن والخصائص الجسمية بين السلالات ، ومن ذلك ، كان انصهار الشعوب بسهولة في بوتقة هذه الحضارة ، وكان منه بالتالي ، صفتها عبر القارية ، التي شملت العالم القديم في جل اطرافه .

والى هذه السماحة في روح الحضارة الاسلامية، مما ساعد على سهولة الاندماج السلالي في حظيرتها ، فقد هيأت مثالية العلم ، التي سادت تلك الحضارة ، المناخ المناسب لكافة العناصر المتساكنة ، كي تدلي بما لديها من تراث عملي ، في تشييد البناء الحضاري الذي كان آخذ في التكامل .

ومن مجموع المساهمات هذه ، تبلورت ــ كما يعلم ــ قيمة حضارية عالمية الوجهة ، غنية من حيث محتواها الفكري والثقافي ، هي هذه القيمة المدعوة بالحضارة الاسلامية ، والتي ملأت الفراغ الحضاري في العالم كله ، اثناء الحقبة الطويلة بين اوائل العصر الوسيط الى مشارف العصور الحديثة .

ولا مجال للمقارنة هنا بين عالمية الموضوع الحضاري في اطاره الاسلامي ، وبين عالمية المدنية التي تبسط ظلها على العالم الآن .

فالمدنية التي ترعرعت في حظيرة العالم الاسلامي ، والتي تصطلح على دعوتها بالمدنية الاسلامية تنتسب انتسابا صميميا الى المسلمين عامة ، وتستمد كثير من مواضعاتها ، من خصائصهم وعبقرياتهم القومية ، في تفاعل دقيق بين المفهوم الاسلامي الذي اخذوا به ، وبين عطاءات هذه الخصائص والعبقريات .

وحيث ان المسلمين كانوا يعمرون حيزا كبيرا من العالم القديم ، ويؤثرون بنفوذهم واشعاعهم على ما حولهم من القطاعات الاخرى من الارض ، فان الحضارة التي تفتقت عن ظرفهم ، كانت تبدو بحكم هذا الاعتبار ، كابرز نموذج يطبع وضعية العالم الحضارية في ذلك الحين .

والامر بالنسبة للمدنية الحديثة ، يختلف عن هذه الصورة بفارق اساسي .

ذلك ان الحضارة الحديثة ، وان كانت تؤثر بفاعلية حقا ، في تشكيل جوانب من صورة الحياة عند مختلف الشعوب المعاصرة ، بما فيها ــ بطبيعة الحال ــ الشعوب الاسلامية ، فان هذه الحضارة لا ترقى مع ذلك ، الى مستوى الحلول محل القيم الحضارية الخاصة عند هؤلاء او الآخرين .

ومن ثم ، تبقى المدنية الحديثة ، مدنية عالمية في نطاق فهم لهذه الصفة ، محدود بحدود معينة .

اما المدنية الاسلامية ، فيمكن ــ على درجة من المناقضة لذلك ــ اضفاء سمة العالمية عليها ، بالنسبة لظرفها التاريخي ، وذلك ضمن مفهوم اكثر اطلاقية ، وبالتالي ، أوفى شمولا .

المهدي البرجالي

من وحي البعثات العسكرية

في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في الشام

للأستاذ الحاج أحمد البوعياشي

في خضم التنافس المتكالب بين الفرس والروم. وفي هذا العهد كان يحكم اقطار الشام امبراطور روماني، يعرف عند العرب بهرقل، وكانت له سيطرة على مجموعة من بلدان البحر المتوسط، وهو الذي خاطبه صلى الله عليه وسلم بكتاب يدعوه الى الاسلام في السنة السادسة للهجرة اي في سنة 628 م. وحمل الرسالة دحية بن خليفة الكلبي، وكان كثير التردد على الشام للتجارة، ويعرف اقطارها بدقة، فسلم الكتاب اليه، وهو في رحلة له من حمص الى بيت المقدس، وكانت تدعى دولة هذا الامبراطور « بدولة الروم الغربية » وكانت هناك امبراطورية اخرى تدعى « دولة الروم الشرقية »، عاصمتها القسطنطينية، يحكمها امبراطور روماني آخر يدعى « فوكاس ». وفي هذا الاوان نشبت بين الامبراطورين حرب ضروس، تغلب فيها الاول، واحتل اقطار الدولة الشرقية. ولكن كان من عواقب هذه الحرب — كما هي سنة الحرب — ان قامت فوضى في الامبراطورية، وبالاخص في الشام، مما جعل جارتها الوثنية، اي دولة الفرس، تهتبلها غرة، وهي بطبيعة عقيدتها الوثنية تعادي المسيحية، فقامت بغزو الروم في عقر اقطار الشام، فاستولت عليها، واحتلت مدينتي القدس ودمشق، وانتزعت من القدس الصندوق المقدس، الذي يحتوي على الخشبة التي يقال بأن السيد المسيح صلب عليها، وكانت تحتفظ بها كنيسة القيامة في بيت المقدس، كما كانت تحتفظ بصندوق آخر، يقال انه يحتوي على الايزار الذي سجي فيه المسيح بعد موته، وقد عمدت الى ذلك نكاية للروم في عقيدتهم.

وبذلك، فان حرب الفرس للروم، كانت حربا عقائدية، تتسم بابادة المسيحية من الشرق، واستبدالها بعبادة الشمس — وهي معبود الفرس — ويدل على ذلك، جواب كسرى الفرس « خسرو الاول »، للامبراطور هرقل، لما عرض هذا على الاول الصلح، فاجابه « خسرو الاول »، ان قيصر الروم ثائر وعبد آبق، ولن امنحه سلاما حتى يترك عبادة الصليب، ويعبد الشمس.

وقد اثار هذا الجواب حمية الروم حكومة وشعبا، فتحمسوا لاسترجاع اقطار امبراطوريتهم، بالقاء درس على الفرس، واشعارهم بان الروم لن تموت، فأشعل هرقل حربا لا هوادة فيها، وجمع قواته فاتجه صوب حلب، واحتل مدينة قنسرين وهي مدينة شمالي سوريا، وكانت مركزا لاجناد الروم، وسار شرقا الى الفرات، وقد احدث رد الفعل هذا في نفوس الفرس فزعا، فتقهقروا الى داخل بلادهم، مكتفين بالدفاع عنها وتحصنوا في العراق الذي لم يكن على اي حال من اقطار الروم.

وقد جرى كل هذا في اول البعثة الاسلامية، وهنا نجد، ان القرآن اعتنى بهذه الحرب بين الوثنيين والمسيحيين اصحاب كتاب سماوي. فالاولى يحاربها الاسلام اساسا لانها لا تقول بوجود الاله ولا تعترف بالرسالات السماوية وهي عقيدة نفسها التي يحاربها في المشركين الذين يعبدون الاصنام وفي الوقت نفسه، كانت شوكة المشركين من عرب الجزيرة العربية وبالاخص عرب قريش لم تخضد بعد فاحتد الجدال بين المشركين والمسلمين الذين

يعطفون على المسيحيين لانهم اهل الكتاب . فقال المشركون فى جدالهم للمسلمين ، لو كان اهل الكتاب من اتباع الحق والهدى كما تقولون لما كسروا وهزموا من الشام ومصر فرد المسلمون عليهم بأن ينتظروا فان الانتصار سيكون للروم لانهم اهل الكتاب ، فنزل أثر هذا اللجاج قوله تعالى « الم غلبت الروم فى ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ، لله الامر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

واذا قد علمنا ان الاسلام فى اول نشأته كان يناصر اهل الكتاب ، فانه يجدر بنا ان نشير هنا اشارة خاطفة ، الى انه كان يوجد فى الجزيرة العربية كما فى اقطار الشام ديانتان سماويتان ، هما : المسيحية والموساوية أو بعبارة النصرانية واليهودية. وقد بقي الاسلام وفيا لكلتا الديانتين معا الا انه مما سجل تاريخيا انه بالنسبة للنصرانية فانه لم يعثر ان وقعت قطيعة بين المسلمين ونصارى الحجاز فى المراحل الاولى للاسلام ، كما أن المسيحيين الذين كانوا يتواجدون بمكة بكثرة يمتهنون مختلف الحرف والصنائع كما كانوا يوجدون فى قبائل شتى كسكان مواطنين مثل نجران وغيرها ، لم يقاتلوا المسلمين ولم يخاتلوهم ، بل احتفظوا بالحياد ، فلم يتدخلوا لصالح اعداء المسلمين كما لزم هؤلاء نفس الخطة ، فعاش المسيحيون فى احضان دولة الاسلام عيشة الهناء والاطمئنان ، حتى ان نصارى نجران ، وهو موضع باليمن لجئوا الى المدينة المنورة فقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم على دينهم ، على ان يعطوا الجزية فيما يخص بعضهم واسلم البعض الاخر ، ولم يكن يقبل النبي صلى الله عليه وسلم من الوثنيين الا الاسلام .

وتتجلى ايضا عاطفة التسامح بين المسيحيين والمسلمين بما لقيه هؤلاء من النجاشي ، حينما هاجرت طائفة منهم الى الحبشة ، اذ قوبلوا بالترحاب هناك ، فردا فردا ممن كانوا على الشرك فى ذلك الوقت ردا خائبا لما طلبوا منه تسليم اخوانهم الذين اعتبروهم آبقين كما يزعمون ..

الفدائيـة فى الاسـلام :

اما اهل الكتاب الاخرون وهم اليهود الذين كانت ارض الحجاز تزخر بهم بفعل هجراتهم من الشام لاضطهادهم من قبل الروم المحتلين ، فانهم لم يكن صنيعهم مع الاسلام صنيع المسيحيين ، بل خاتلوا وخاضوا ضد النبي صلى الله عليه وسلم وضد الاسلام كعقيدة سماوية نزل بها كتاب مقدس وهو القران ، كما نزل من قبله كتاب آخر مقدس وهو التوراة ، ولم يتركوا اية ذميمة الا وركبوا متنها للنيل من النبي شخصيا واتباعه ودبت فيهم حركة عدائية سافرة ومخاتلة شيطانية اقلقت بال النبي (صلى الله عليه وسلم .

ولما لم يجد فيهم الصبر الذي قابلهم فانه عمل على رد كيدهم احيانا بالغزوات العلانية التي كان يبعثها للاغارة على تجمعاتهم ، وكثيرا ما كان يتفاءل اذا سمع كلمة تقتضي التفاؤل فيقول خربت خيبر مثلا ، والغزوات العلانية كثيرة ومعروفة فى كتب السير ، ولكن اريد هنا ان لا نمر مر الكرام على اعمال اخرى فردية كان يامر بها النبي صلى الله عليه وسلم للقضاء على رؤوس الفتنة فى ديارهم وعلى طريقة الكتمان وهي التي دعيت الان بالاعمال الفدائية .

وبهذا الاعتبار ، فان اول ما عرف الاسلام من الفدائية هي التي امر بها النبي صلى الله عليه وسلم وبذلك تعتبر عملا تشريعيا اسلاميا للاعمال الفدائية التي يقوم بها المسلمون فى الاقطار التي تحرر من الاستعمار والصهيونية فالموتى منهم يعتبرون شهداء لله والوطن ، ومن الاجدر ان نسرد هنا حرفيا بعض تلك الاعمال لطرافة تلك القصص الخالدة :

منها ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله ان النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : من لكعب بن الاشرف — (وهو من رؤساء اليهود شمالي الحجاز) — فانه استعلن بعداوتنا وهجائنا وقد خرج الى المشركين يجمعهم على قتالنا وقد اخبرني الله بذلك، ثم قرا على المسلمين « الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين ءامنوا سبيلا ، اولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا »

قال محمد ابن مسلمة يا رسول الله اتحب ان اقتله ، قال نعم .

اما كيفية انجاز العملية فلنستمع الى محمد بن اسحاق يروي لنا هذه القصة ، قال : فرجع محمد ابن مسلمة لا ياكل ولا يشرب الا ما تعلق به نفسه

فذكر ذلك لرسول الله فدعاه ، فقال له لم تركت الطعام والشراب ، فقال يا رسول الله قلت لك قولا لا ادري اوفين به ام لا ، قال عليك الجهد ، قال ثم مشى معهم الى بيته وهو في ليلة مقمرة واقبلوا – يعني محمد ابن مسلمة وعشيرته وهم ابو نائلة اخو كعب بن الاشرف من الرضاعة وعباد بن بشر والحارث بن معاذ – حتى انتهوا الى حصنه (اي كعب) وكان حديث عهد بعرس فهتف به ابو نائلة فوثب من ملحفته فاخذته امرأته لناحيتها وقالت انك امرؤ تحارب وان اصحاب الحروب لا ينزلون في مثل هذه الساعة ، قال انه ابو نائلة لو وجدني نائما ما ايقظني، قالت والله اني لاعرف الشر في صوته ، فنزل فتحدث معهم وقالوا هل لك يا ابن الاشرف ان نمشي الى شعب العجوز فنتحدث فيه بقية ليلتنا ، فقال ان شئتم فخرجوا يتماشون ساعة ثم ان ابا نائلة شام يده في فود راسه – وهو الشعر الذي على جانب الراس مما يلي الاذنين الى الامام – ومعنى شام يده اي ادخلها للشم – ثم شم يده ، فقال ما رايت كالليلة طيبا اعطر ، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ثم اخذ براسه وقال اضربوا عدو الله فضربوه فاختلفت عليه اسيافهم فلم تغن شيئا فاخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن الا واوقدت فيه النار فتذكرت مغولا – المغول هو النصل الطويل – حيث رايت اسيافنا لا تغني فاخذته ووضعته في ثنته ثم تحاملت عليه حتى عانته فوقع عدو الله ثم لما رجعوا كبروا فعرف رسول الله انهم قتلوه فقال افلحت الوجوه فقالوا وجهك يا رسول الله .

ومنها ما رواه البخاري ايضا عن اسرائيل بن ابي اسحاق عن البراء بن عازب قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ابي رافع اليهودي رجالا من الانصار وامر عليهم عبد الله بن عتيك وكان ابو رافع يؤذي رسول الله ويعين عليه وكان في حصن له فلما اتوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم قال عبد الله لاصحابه اجلسوا مكانكم فاني منطلق ومتلطف للبواب لعلي ان ادخل ، فاقبل حتى دنى من الباب ثم تقنع بثوبه كانه يقضي حاجته – البشرية – وقد دخل الناس فهتف به البواب يا عبد الله – لم يرد اسمه الشخصي – ان كنت تريد ان تدخل فادخل فاني اريد ان اغلق الباب فدخلت فمكثت ، فلما دخل الناس اغلق الباب وعلق الاغاليق – المفاتيح – على وتد قال قمت الى الاغاليق فاخذتها ففتحت الباب وكان ابو رافع يسمر عنده وكان في علالي – جمع علي وهو الموضع المرتفع – له فلما ذهب عنه اهل سمره صعدت اليه فجعلت كلما فتحت بابا اغلق علي من داخل فانتهيت اليه فاذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا ادري اين هو من البيت قلت ابا رافع قال من هذا فاهويت نحو الصوت فاضربه ضربة بالسيف وانا دهش فما اغنيت شيئا وصاح فخرجت من البيت وامكث غير بعيد ثم دخلت عليه فقلت ما هذا الصوت يا ابا رافع فقال لأبيك الويل ان رجلا في البيت ضربني قبل بالسيف قال فاضربه ضربة اثخنته ولم اقتله – يقال اثخنته الجراح ان اوهنته – ثم وضعت ضبيب سيفي – حده – في بطنه حتى اخذ من ظهره فعرفت اني قتلته قال فجعلت افتح الابواب حتى انتهيت الى درجة له فوضعت رجلي وانا ارى اني قد انتهيت الى الارض فوقعت في ليلة مقمرة فانكسر ساقي فانتهيت الى رسول الله فحدثته فقال ابسط رجلك فمسحها فكأنها لم اشكها قط .

ومنها ما جاء في الاثر ان عبد الله بن انيس استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في اغتيال سفيان بن نبيح الهذلي وكان من مشركي العرب فاذن له وكان يجمع المشركين بوادي عرنة قرب عرفات على عداء المسلمين وقال له ايته واقتله فقال له عبد الله صفه لي حتى اعرفه فقال (صلى الله عليه وسلم) اذا رايته هبته ووجدت له قشعريرة وذكرت الشيطان فذهب اليه ووجد معه الاحابيش وكان عبد الله ابن انيس استأذن رسول الله في ان يقول ما يتستر به فساله سفيان ممن انت فقال من خزاعة سمعت انك تجمع الناس لمحاربة هذا الرجل الذي فتن الناس فقال نعم اني لفي جمع له وانه لم يلق احدا يشبهني وقال عبد الله انه وجده يتكيء على عصى يهد الارض هدا فدخل عليه وسامره حتى اذا ذهب عنه الاحباش قتله في بيته وبين عشيرته وفر واختفى في غار وتبعه قوم سفيان فجاء رجل حاملا دواة ونعلين – الدواة اناء من الجلد – فلم يرني وذهب قائلا لاصحابه ليس هنا احد وترك الدواة والنعل فشرب من الدواة ولبس النعلين وكان حافيا ومشى مستخفيا اثنتى عشرة ليلة الى ان وصل الى المدينة فقال رسول الله افلح الوجه فقال وجهك يا رسول الله

وفي ذلك يقول شاعر الرسول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

لله در عصابة لاقيتهم
يابن الحقيق وانت يابن الاشرف

يسيرون بالبيض الخفاف اليكم
مرحا كاسد في عرين معرف

حتى اتوكم في محل بلادكم
فسقوكم حتفا ببيض ذفف

مستنصرين لنصر دين نبيهم
مستصغرين لكل امر مجحف

البعثات العسكرية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الى الشام

هكذا كان الصراع في الجزيرة العربية حتى اذا استتب امر الاسلام فيها وجه (صلى الله عليه وسلم) عنايته لنشر الاسلام خارجها فاتجهت اهتماماته الاولى نحو الشام للاهمية التي اشرنا اليها .

ومن المعروف تاريخيا ان النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يعرف الشام قبل البعثة النبوية بواسطة الرحلتين اللتين قام بهما اليه فقد زاره لاول مرة وعمره لا يتعدى 12 سنة في قافلة عمه ابي طالب التجارية الموسمية التي جاءت في قوله تعالى « لايلاف قريش ايلافيهم رحلة الشتاء والصيف » وكانت القافلة وصلت الى بصرى وكانت عاصمة حوران ؛ ثم زارها ايضا للمرة الثانية وهو في الثلاثين من عمره وكان يتولى تجارة خديجة التي اصبحت ام المؤمنين فيما بعد ، وكان يصحبه فيها غلامها ميسرة ويقال ان ابابكر كان في القافلة ايضا ووصل الى بصرى وعندما اتم اعمال التجارة رجع الى مكة وكانت الرحلة سببا في تزوجه بخديجة ام المؤمنين لما علمت من نجاحه في تلك التجارة وما حكاه لها غلامها من علامات الفلاح والصدق والامانة .

ومن ناحية اخرى ، فان اقطار الشام كانت معروفة لدى رجال قريش على مختلف المستويات ، خاصة وللحجازيين عامة بفضل الرحلات التجارية التي كان يقوم بها هؤلاء اليها مما تمتاز به من خصوبة الارض والرواج الكبير في اسواقها لانها محطة التجارات التي كانت تتقاطر عليها من الاقطار المجاورة فتوجد بها صناعات الروم والفرس على السواء ، وكانت قوافل العرب التجارية ترد عليها من كل حدب وصوب للبيع والشراء والامتراء ثم ترجع الى بلدانها وقد حملت من خيرات المنتوجات الفلاحية والصناعية، وبذلك كان جمع من الصحابة خبروا دروب الشام وجالوا في اسواقها ومدنها .

ولما استتب الاسلام في الحجاز ونجد واليمن ودخل عامة الناس بعد الفتح – فتح مكة – والقضاء على اليهود المناوئين اما بالغزوات العلانية او الاغتيالات السرية كما راينا نماذج منها وكلها في السنوات الاربع الاولى من الهجرة ، وجه عنايته في اوائل السنة الخامسة من الهجرة الى اقطار الشام وكانت في ذلك الوقت تؤلف الاقطار التي نسميها الان : شرقي الاردن – سوريا – فلسطين – لبنان – اما العراق فلم تكن داخلة فيما يسمى بالشام وان كان يحده وكان محتلا بالفرس .

وكان سكان الشام خليطا من العرب المتنصرين واليهود واليونان والارمن فضلا عن الروم المحتلين الذين اناخوا بكلكلهم عليه ؛ وتبعا لذلك فكانت هناك لغات مختلفة وهي لغة الاشور السريانية ولغة الروم اللاتينية والعربية والعبرية واليونانية .

اما غزواته (صلى الله عليه وسلم) فيمكن ان نجملها في ثلاث حملات كلها وضعت في حياته وبامر منه وهي حملات كبرى عدا السرايا التي كان يبثها الى هنا وهناك للاغارة على الجيوب من العرب المتنصرين او للاستطلاع .

وهذه الحملات الثلاث هي :

1 – حملة دومة الجندل – ويقال لها الجوف – وكان سكانها من نصارى العرب والمسافة بينها وبين المدينة حوالي 600 كلم تستغرق الرحلة فيها بالابل نحو 15 يوما ، والمؤرخون يجعلونها حملتين اثنتين ، ولكن بما ان الحملة الاولى لم تسفر عن اية نتيجة وانما اكتفى المسلمون بالاغارة على سرح القوم – ماشيتهم – ثم رجعوا ، لانها كانت في الصيف وهو موسم الحرارة المفرطة فان سكان دومة الجندل لم يقابلوا المسلمين بالقتال ، بل فروا امامهم فاكتفى المسلمون بالسرح ورجعوا واني ارى ان الحملة التي تستحق التسجيل هي الثانية ، ولذ اكتفي بها هنا لانها كانت عملا حاسما هيات الجو للحملات التي اتت بعدها .

وقد كانت هذه الحملة في شهر شعبان عام ست للهجرة الموافق لسنة 627 ميلادية وقاد هذه الحملة الصحابي الجليل احد المبشرين بالجنة وهو عبد الرحمن بن عوف وعندما دفع اليه النبي صلى الله عليه وسلم اللواء اوصاه بان يغزوا في سبيل الله ويقتلوا من كفر بالله ولا يغلوا ولا يغدروا ولا يمثلوا ولا يقتلوا وليدا قائلا هذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم .

ان سماحة الوصية واضحة لا غبار عليها فهي تدل على ضبط النفس في ميدان القتال وهو ميدان قل ان يربط المرء فيه جأشه لانه ميدان غليان الدم – اي دم الانتقام – وفي هذه الحالة فقد اوصى النبي صلى الله عليه وسلم قائده بأن الغزو يجب ان يكون محتسبا لله وليس لغرض الاستيلاء او التوسع وانما لنشر العقيدة السمحة، فلا غلو ولا غدر ولا تمثيل بالموتى او الاحياء ولا يقتل من لم يكن مسؤولا عن الحرب وعلى نهج هذه الوصية سار جيش المسلمين الى الباب الرئيسي لاقطار الشام لطرقه وكانت قوة المسلمين تتألف من 700 مقاتل ووصلت الحملة الى المكان الموجهة اليه فقامت خلال ثلاثة ايام فقط باعمال جليلة ، كان لها ما بعدها ، وقد خضع السكان للحملة، واسلم ملك دومة الجندل ، وهو عربي ، الذي كان تحت سيطرة الروم ، ويدعى الاضبع بن عمرو الكلبي من بني كلب ، وتعد دومة الجندل منفذا للشام ، ولذا كان افتتاحها يعتبر من اهم غزوات الاسلام .

اما الحملة الثانية فهي حملة مؤتة ، التي اعقبت حملة دومة الجندل ، وكانت في شهر جمادى الاولى من السنة الثامنة للهجرة الموافق لشتنبر سنة 629 م ، وتقع قرية مؤتة في جنوب شرقي الاردن ، وتبعد عن المدينة بنحو 750 كلم ، وبهذه الحمله فان المسلمين يكونون قد نفذوا الى صلب اقطار الشام ؛ حيث اصطدموا لاول مرة ومباشرة مع الجيش الرومي، وقد احتد القتال بين الفريقين الى درجة المعارك المشهود لها بالضراوة ، وكانت قوة المسلمين مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل ، امر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ، وكان يعلم ان المسلمين سيخوضون قتالا عنيفا مع الروم فاعد صلى الله عليه وسلم عدته للقيادة اثناء المعركة ، ونظمها تنظيما عجيبا ، فقال صلى الله عليه وسلم ان اصيب زيد بن حارثة فجعفر بن ابي طالب ، فان اصيب فعبد الله بن رواحة ، فان اصيب فليرتض الناس رجلا من بينهم يولونه عليهم ، وقد كان الامر كما تنبأ صلى الله عليه وسلم ، فاصيب زيد ومات ، ثم خلفه جعفر بن ابي طالب ، واستمات ، في القتال وحضانة اللواء معا ، حتى انه قطعت يده اليمنى في القتال فاخذ اللواء بيده اليسرى فقطعت يده اليسرى فاحتضن اللواء الى صدره ، والدم ينزف منه بغزارة ، فلم يطلق اللواء الا بعد ان شطر شطرين ، ثم اخذ اللواء عبد الله بن رواحة ، وقتل ، وبعد هؤلاء الثلاثة ارتضى المسلمون خالد بن الوليد سيف الله المسلول على اعداء الدين ، فكان النصر لجيش المسلمين ، لما عهد في خالد بن الوليد من انه لم يهزم له لواء قط ، لما عرف عنه من مهارة القائد الحسن الطالع ، العارف بنقط الضعف في العدو ونقط القوة في جيشه ، فيستعمل كلا في وقته المواتي .

ولضراوة القتال ، فقد استشهد من المسلمين مائة وعشرون شهيدا ، وهو عدد من الاصابة لم يتعود المسلمون كثرتها بمثل هذه الدرجة في مواقعهم المشهورة ، ولكن اذا علمنا انه كان على المسلمين ان يواجهوا قوتين اثنتين قوامهما مائتا الف مقاتل ؛ وهما قوة العرب الغسانيين الذين حشرهم شرحبيل ابن عمرو الغساني ، وكان يضمر الكراهية الشديدة الدين الجديد ، حتى انه لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسوله الحارث بن عمر الاسدي ، الى صاحب بصرى الحارث بن ابي شمر الغساني ، واصحبه رسول الله بكتاب الى هذا الاخير ، فلما نزل قرية مؤتة اوثقه شرحبيل هذا وقتله بضرب عنقه ، وهو الرسول الوحيد الذي قتل لرسول الله ، وقد استعلن شرحبيل بعداوة النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذا جاهلية جهلاء .

اما القوة الثانية فهي التي حشرها هرقل بنفسه وكان يتواجد في مآرب وعبا فيها قوته في الشام ، ولذلك انه كان يعتقد ان هؤلاء العرب الذين جاءوا من الصحراء سيقضي عليهم بهذه الحملة ، وينتحرون ولا تقوم قائمة من بعد ، ولذا حشر كل ما عنده من الجنود ، وما كان من العرب المتنصرين ، الذين ينضوون تحت لواء الدولة الرومانية .

ولذا فان استشهاد مائة وعشرين من المسلمين بالنسبة للقوتين المتقاتلتين – اي لاقلية المسلمين وهي ثلاثة آلاف مقاتل فقط ، ولاكثرية العدو وهي مائتا الف – ليس بكثير ، لان العدو كان يظن انه سيفتك بالمسلمين فتكا ذريعا لا يبقى احدا ، وذلك لان الله جعل من سنته ان فئة قليلة من المسلمين تغلب فئة كثيرة من الكفار باذن الله .

وقد يكون من الحكمة في اصابة المائة والعشرين ان الله اراد اذكاء حماسهم لاخذ الثار ، لتسهيل الفتح وهو ما وقع ، فان النبي صلى الله عليه وسلم هيأ حملة بعد ذلك صغيرة تحت قيادة اسامة بن زيد بن حارثة ، وامره بان يرتاد قرية مؤتة ، وامره بان يطأ بخيله الموضع الذي قتل فيه ابوه للانتقام من الاعداء

هناك ، وان كانت هذه الحملة لم تصل الى مؤتة ، بل وصلت الى بلاد قضاعة ، وهم دون مؤتة ، ثم رجعت بعد ان غابت اربعين يوما .

3 ـ غزوة تبوك : ولم يهدأ بال رسـول الله صلى الله عليه وسلم بعد معركة مؤتة ، وقد حز فى نفسه ان يفقد مائة وعشرين من خيرة المسلمين الاولين ، فعمل على تهيئة حملة يقودها بنفسه ، وهي الحملة الاولى والاخيرة التي قادها بنفسه الى الشام وقد راى انه لا بد من منازلة الروم ومتنصرة العرب فى الشام ، فبعث الى اطراف قبائل الحجاز والى مكة ، يدعو المسلمين لان يتقاطروا على المدينـة ، لشن حرب علانية ، وتعتبر هذه التعبئة الانتفاضة الاسلامية لفتح اقطار الشام .

وقد تقاطر المسلمون من مكة وقبائلها والمدينة وقبائلها ، واجتمع حوالي ثلاثين الف مقاتل ، وقيل حوالي اربعين ، وقيل حوالي سبعين ، على اختلاف الروايات ، وقد رجح بعض المؤرخين ان يكون العدد ثلاثين الف ، لان تهيىء العدد الكبير يحتاج الى وقت متسع ، وبالاخص ان اقطار الحجاز اصابها قحط .

وهناك سبب آخر لهذه الحملة حسب روايـة اصحاب السير ، وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم علم بواسطة الاقباط الذين كانوا يفدون على المدينة المنورة لبيع الزيت ، الذين يجلبونه من الشام ، ان الروم يهيئون قوة ضخمة من جيوشهم النظاميـة ، معززة بقوة من عرب قبائل الشام ، من لخم ، وجذام وغسان ، وان الروم يستعدون للزحف على المدينـة نفسها ، وذلك لرد الفعل على الاغارات التي يقوم بها المسلمون على مشارف الشام ، فى الحملتين الآنفتي الذكر ، والسرايا التي يبثها صلى الله عليه وسلم بين حين وآخر .

وفعلا فان أخبار الانباط كانت صحيحـة ، فان الروم كانوا يتجمعون فى البلقاء ، وهـي اراضـي شرقي الاردن ، بينما قامت حركة غير عاديـة بين الملوك المحليين العرب ، الذين خافـوا من فقـد نفوذهم على قبائلهم ، لانهم عرفوا ان الاسلام لا يقـر الحكم المطلـق .

واذا علم النبي (صلى الله عليه وسلم) ذلك فانه عليه ان ياخذ بالمبادرة الاولى ، فلا يترك للعدو فرصة المباغتة بل النبي هو الذي يباغتهم .

وكما قلنا فان التعبئة كانت علانية ، خلاف مـا كان تجري عليه الارساليات قبل ذلك ، حيث تكـون تحت الكتمان ، الى ان تصل الى المحل المراد مباغتته، وذلك لان شوكة المسلمين اصبحت قوية بفضل مـا كان عليه تمرسهم على قتال الروم فى مؤتة ، فهـي علمتهم ان العدو لا يجرؤ على الفتك بهم رغم قتلهم .

وهكذا فان المسلمين تقاطروا وتجمعوا فى ثنية الوداع بالمدينة ، ولم تكن المدينة شهـدت تجمعـا اسلاميا ضخما مثلما شهدته فى ذلك الوقت ، وهـو شهر رجب عام تسع من الهجرة النبوية ، الموافـق لشهر شتنبر سنة 630 ميلادية .

ولما رأى المسلمون عزيمة النبي واهتمامـه الشديد ، حيث عزم على قيادة الحملة بنفسه ، وكان الوقت وقت الحر والشدة والضيق من ناحية المادة، فان المسلمين الاولين الذين لهم فضل مال ، بذلوا فى تجهيز الحملة بسخاء لم يعهد له نظير مثله ، او بعده.

وهكذا جهز عثمان بن عفان القسم الاكبر بالابل للركوب والمال والسلاح ، ولما وضع رضي الله عنه بين يدي النبي المال الذي قدمه للمجاهدين قال له لا يضرك ما عملت بعد ، او كما قال صلى الله عليـه وسلـم .

وقد سميت هذه الحملة « غزوة العسرة » ، اي الشدة ، وسماها القرآن كذلك فقال ثناء على المسلمين الذين لم يتاخرون لعذر او لغيره « الذين اتبعـوه في ساعة العسرة » لان الحملة كما ذكرنا كانت فى أواخر الصيف اي شهر شتنبر ، والارض صحراء محرقة ، والماء مفقود فيها بطبيعتها ، حتى ان الوسيلة الوحيدة لتوفير الماء فى الطريق ، انهم كانوا يتركون الابل دون شرب لمدة غير قليلة ، ثم يوردونها الماء ، فتشرب بنهم ، حتى اذا اكتفت قادوها معهم ، فاذا عطشـوا ذبحوا منها لتقطير كرشها فيشربون ماءها ، وكانـوا يتناوبون على البعير الوحيد اثنان او ثلاثة .

وقد رتب (صلى الله عليه وسلـم) الحملـة بنفسه ، وجعلها على الكيفية النظاميـة من القلـب والميمنة والميسرة والمؤخرة ، فى كراديس ، وكان دليله فى الطريق علقمة بن الفغواء الخزاعي ، وكان خريتا فى الصحراء .

واشرك فى القيادة كبار الصحابة ، وهكذا عقد اللواء الاعظم لابي بكر الصديق ، وعقد الراية العظمى للزبير بن العوام ، واعطى راية الاوس لأسيد بن حضير ، وهو من الاوس احدى قبائل الانصار ، وراية الخزرج للمنذر بن حباب ، وهو من الخزرج ، القبيلة الثانية للانصار ، الذين ءاوا النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين ، وهما من قبائل المدينة التي عاشت حروبا فيما بينها ، الى ان جاء الاسلام فقضى على تنافرهما وتناحرهما فى الجاهلية ، والف الله بينهم فى الاسلام ، بفضل سماحته .

وقد سارت الحملة تحت عنايته صلى الله عليه وسلم ،الى ان وصلت الى تبوك ، وهو موضع يبعد المدينة شماليها بنحو 600 كلم ، ويقال ان الذي سماها تبوك هو النبي نفسه ، لانه قال لرجلين سبقا الى عينها « مازلتما تبوكانها » وكانت عينا شحيحة الى ان غسل بمائها صلى الله عيله وسلم ورد الماء فيها ففززت .

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم مضمون النصر بمسافة شهر ، كما روي عنه ، فان الروم انكمشوا ولم يقدروا ان يتحركوا ، فوصل النبي الى تبوك وامر اصحابه بضرب الخيام هناك ، فاستقروا فيها من دون ان يعثروا على الروم ومن لف لفهم ، اي اثر ، لان الرعب سبق الى قلوبهم ، ففزعوا فانكمشوا فى اماكنهم ، ولم يقدروا ان يتحركوا الى الامام ولو خطوة واحدة ، بل جعلوا يقدمون رجلا ويؤخرون اخرى ، وهي حقيقة تاريخية بقي الباحثون الى الان مشدوهين امامها ، وكل واحد يضرب على نغمة ، وبالاخص الباحثون المستشرقون .

وعند ما لم يجد صلى الله عليه وسلم من يقاتله ، فانه جعل يبث السرايا فى اطراف الارض وما حول تبوك ، لترداد الاساكين النائية ، والاغارة على اهلها ، فارسل خالد بن الوليد فى اربعمائة وعشرين مقاتلا الى جهة دوحة الجندل ، واغار على سكانها هناك ، واسر صاحبها اكيدر بن عبد المالك ، وهو عربي نصراني كان ملكا عليها من قبل هرقل ، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم قبل ان يتوجه « انك ستجده يصطاد البقر ليلا ، فتأخذه » ، وكان كذلك ، فجاء به الى النبي صلى الله عليه وسلم بتبوك ، وكان خالد صالحه عند اسره على شروط ، **وهي :**

1 ـ ان يفتح دومة الجندل ويسلمها للمسلمين بدون قيد ولا شرط .

2 ـ وان يسلمهم الفي بعير وثلاثمائة فرس واربعمائة درع واربعمائة رمح ، فقبل اكيدر واستسلم ، بعد ان نشب قتال بين الفريقين ، ومات فى المعركة اخواكيدر ويدعى حسان ، ولما وصل خالد باسراه الى النبي صلى الله عليه وسلم وافق على ما اشترطه خالد ، واسلم اكيدر واصحابه ، وصالحهم ، وكتب لهم عهدا جاء فيه : « تقيمون الصلاة لوقتها ، وتوتون الزكاة لحقها ، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ، ولكم به الصدق والوفاء ، فرجع اكيدر لقومه الى دومة الجندل مسلمين .

ويلاحظ من الشروط التي قبلها اكيدر ان سكان دومة الجندل كانوا فى قوة ، مالا وسلاحا ورجالا ، لان الجزية التي فرضت كانت تتعلق بالعدة الحربية ، وهي ضخمة نسبيا ، وقد خلف صلح اكيدر واسلامه وقعه المحمود لصالح المسلمين ، فان الاقطار الاخرى من اطراف تبوك التي سمعت بذلك ، هرعت لعقد صلح ، واسلامهم ، وهكذا جاء يوحنا بن رؤبة صاحب العقبة ، وكانت تدعى ايلة ، وتبعد عن تبوك بنحو 300 كلم ، جاء طائعا ، فكتب له النبي صلى الله عليه وسلم عهدا جاء فيه : « لهم ذمة الله ومحمد نبيه ، ولمن كان معهم من اهل الشام ، واهل اليمن واهل البحر » .

وجاءه ايضا يهود من اطراف العقبة فصالحهم على ثلاثمائة دينار لكل سنة ، وعلى ربع غللهم الفلاحية ومنتوجاتهم الصناعية ، وكتب لهم عهدا جاء فيه : « فانكم ءامنون ، ولكم ذمة الله وذمة رسوله » وكما جاء ايضا اهل جرفا واهل ادرح من بلاد شرقي الاردن ، وهي التي تدعى ببلاد الشراة ، وهي اراضي جبلية وصالحهم على مائة دينار سنويا .

وفى هذا العرض للاعمال التي قام بها صلى الله عليه وسلم التي منها ما كان سلميا بحتا ، ومنها ما كان شبيها بالسلم كقضية اكيدر ، تبين الفتح المبين الذي ادركه صلى الله عليه وسلم فى هذه الحملة ، التي لم يفقد فيها ولو رجلا واحدا ، مع تفتح قلوب تلك الجهة للاسلام ، واحتكاكهم بالمسلمين ، حيث عرفوا نهجهم فى معاملة الاخرين ، واطمئنوا الى تلك الاخلاق التي تحمل على الوفاء ، وعدم الغدر ، او الاستيلاء الا ما كان عن حق ، وعدم احتقار تلك الذمم **التي جاءت فى عهده لهم .**

ولذا فان هذه الفتوحات تعتبر عظيمة الفوائد ، ومحمودة العواقب ، فقد اصبح الاسلام يتعزز خارج الجزيرة العربية ، الذي استهدف نشر المبادىء الجديدة التي شده لها الاخرون ، الذين كانوا يتحكمون الى القوة ، وليس الى العقل ، والى القوي وليس الى الضعيف ، وفضلا عن ذلك فقد تمرس المسلمون على القتال ، وخبروا قوة الروم النظامية ، التي كانت تطغى على الامم ، فسارت الفتوحات على هذا النهج من السرعة شرقا وغربا ، ولم يشهد التاريخ حسب ما انتهى اليه الباحثون ان انتشرت عقيدة ما بالسرعة التي انتشرت بها عقيدة الاسلام ، التي تقبلها اهالي الاقطار التي تفتح ، وعضوا عليها بالنواجذ ، واستماتوا دونها ، بعد ما ذاقوا حلاوتها ، وهذا امر لا يختلف فيه اثنان ، وقد يستمر ذلك الى يوم يبعثون .

ان هذه الاعمال الجليلة التي قام بها النبي صلى الله عليه وسلم في تبوك لم تستغرق اكثر من عشرين يوما ، ولذا تعتبر هذه الايام العشرون من الايام الخالدة في تاريخ الاسلام ، وكانت مفتاحا لما اتى به الخلفاء من بعده ، ولما كانت هذه الغزوة بهذه المثابة فقد اعتنى بها الوحي الالاهي ، وتتبع احداثها التي صاحبتها ، وهي احداث ذات أهمية .

منها ما كان امتحانا للمسلمين انفسهم ، فقد ميز القرآن بين الطوائف التي تعرضت لذلك الامتحان ، ولذا سماها « ساعة العسره » اي الشدة ، لما كانت عليه من شدة الحر وقلة الماء وقلة الظهر — المركوب — وقلة النفقة .

ولم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم ان يؤخرها او يتمهل فيها لما اسلفنا من انه صلى الله عليه وسلم كان ياخذ بالمبادرة الاولى ، فكان سباقا لمباغتة العدو قبل ان يباغته ، وهي احدى الخصال العظيمة التي يجب ان تتوفر في القيادة الحربية ، وقد توفرت فيه صلى الله عليه وسلم مع خصال اخرى اهلته لان يكسب للعقيدة التي حمل مشعلها انتصارا لا زال يمتد الى الآن .

ففي هذه الغزوة بالذات بادر للخروج الى مقابلة الروم ، الذين تجمعوا لقتاله ، وجاءوا الى البلقاء بقوتهم ، فندب صلى الله عليه وسلم واعلم المسلمين بالمكان الذي يقصده ليتاهبوا ، لان المسافة طويلة ، وعدد العدو كبير ، وتنظيماته راقية ، مع القبائل التي اجلبت معه من جذام ولخم وغسان ، وهي قبائل الشام العظيمة ، التي كانت لها السيطرة المعنوية على سكان الشام قاطبة ، وهذه القبائل نفسها هي التي استحثت هرقل للخروج الى المسلمين للقضاء عليهم ، معللين له قائلين ان هذا الرجل الذي يدعى النبوة واصحابه اصابتهم سنون عجاف ، فهلكت اموالهم ، وانه آن الوقت لكي يتخلص الروم وعرب الشام منهم ، فكان لزاما على النبي بعدما بلغه ما يعدون ان لا يترك للعدو متسعا من الوقت ، حتى يهاجم المدينة التي هي مركز الاسلام وعاصمته ، لما قد يترتب على ذلك من اوخم العواقب .

اما امتحان المسلمين انفسهم ، فان منهم من تسابق عن رضى وشغف للمشاركة فيها بالنفس والمال ، وكان الانفاق من بعضهم بغزارة كعثمان بن عفان ، الذي جهز ثلث الجيش بماله الخاص ، وكان ذا ثروة ، فاذا علمنا ان الحملة كان عددها يبلغ 30 الف مقاتل ، كما هي الحد الادنى للروايات الثلاث ، فيكون عثمان جهز عشرة آلاف مقاتل ، وهو قدر عظيم لا يتحمله الا من ينفق بسخاء وكل السخاء ، ثم جاء الآخرون كل بقدر ما يتحمله ماله ، وهكذا تصدق ابو بكر الصديق لما سمع النبي يحث على الصدقة ، جاءه بأربعة آلاف دينار ، فقال له صلى الله عليه وسلم هل ابقيت شيئا لاهلك ، قال ابقيت لهم الله ورسوله ، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله فقال له هل ابقيت شيئا لاهلك فقال نصفه ، وحمل العباس وطلحة وسعد بن عبادة على ابلهم ، وجاء عبد الرحمن ابن عوف بمائتي أوقية ، وتصدق عاصم بن عدي بسبعين وسقا من التمر ، وفعل غيرهم مثل ذلك ، حسب طاقة كل واحد ، ومن لم يجد ما يجود به جاد بنفسه في سبيل الله .

اما المنافقون ، فقد امتحنوا بشكل علني افتضاحي حتى سميت بذلك هذه الغزوة عند الصحابة بغزوة الافتضاح ، ذلك ان جماعة من المنافقين جعلوا يقولون للناس لا تنفروا في الحر فرد عليهم الله بقوله « قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون » .

وبما ان كل المصائب تاتي من اليهود ، فان هؤلاء المنافقين كانوا مجتمعين في دار يهودي يدعى سويلم ، وجعلوا يثبطون العزائم عن المشاركة في الغزوة ، فبعث صلى الله عليه وسلم طلحة بن عبد الله في نفر من المسلمين ، وامرهم ان يحرقوا عليهم

بيت سويلم ، ففعلوا ، وهناك طائفة سموا بالمعذرين هكذا بالذال المسكورة اي الذين انتحلوا عذرا ، والحال انه ليس لهم عذر فى الواقع ، وهم اثنان وثمانون ، وتعللوا لدى النبي بالجهد ــ اي الفقر ــ وكثرة العيال ، فاذن لهم صلى الله عليه وسلم بالتخلف ولم يعذرهم ، اي لم يقبل عذرهم ، فنزل فيهم قوله تعالى « وقعد الذين كذبوا الله ورسوله » .

اما الآخرون وهم ثلاثة فقد تاخروا من غير ان يشكوا فى امر النبي ولا ارتياب ، بل كانوا جازمين انه خاتم النبيئين ، ومع ذلك تخلفوا من دون ابداء عذر ، وهم من الانصار : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن امية ، ونزل فيهم قوله تعالى « وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت » اي تاب على الذين خلفوا ، وانزل سكينته عليهم .

وهناك فريق من المسلمين يمكن ان نسمي حالتهم انهم وقعوا فى ازمة ضمير ، ومن هؤلاء البكاؤون ، لبكائهم عندما لم يجدوا ما يركبون عليه للسير مع القافلة ، فجاءوا الى النبي صلى الله عليه وسلم ، يلتمسون منه مركوبا ، فلما لم يجد لهم مركوبا ، قال لهم « لا اجد ما احملكم عليه » فرجعوا يبكون ، وهم عشرة على احدى الروايات « واعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون » .

وقد اهتم (صلى الله عليه وسلم) بهؤلاء البكائين ، وبحث لهم عن المركوب ، فاشترى ستة ابعرة ، وقد حكى احدهم وهو عبد الله بن قيس « ما لبثت ان سمعت بلالا ينادي اين عبد الله بن قيس ، فاجبته ، فقال اجب رسول الله ، فلما أتيته قال خذ هاذين القرينين لبعيرين مقرونين وهذين الى ستة ابعرة ابتاعهن لهم ، فانطلق بهن الى أصحابك فقل لهم ان رسول الله يحملكم على هؤلاء ــ اي الابعرة ــ .

وممن وقع فى ازمة ضمير ابو ذر الغفاري وابو خيثمة ، فالاول كان له بعير اعجف فقال اعلفه اياما ، ثم الحق به النبي ، ولما راى انه قد يتاخر ولا يلحق القافلة فانه اختار ان يركب الصعب ولو فيه هلاكه ، فاخذ على كتفه زاده وتبع الحملة الى ان لحق بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ، فى الطريق ، وكان يسير وحده وكاد العطش ان يهلكه ، فلما اشرف على الحملة رءاه المسلمون من بعيد ولم يتبينوا من هو ، لان السراب جعل يرفعه ويخفضه تارة ، ويخفيه ويظهره تارة اخرى ، فاعلموا النبي بما يرونه ، فقال صلى الله عليه وسلم كن ابا ذر ، فلما وصل قال له رحم الله ابا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده ، وقد صدقت نبوة رسول الله فانه لما نفاه عثمان بن عفان الى الربذة بعيدا عن العمارة ، وحضره الموت وكانت معه امرأته وغلامه ، قال لهما ان انا مت فاغسلاني وكفناني ثم ضعاني على قارعة الطريق ، فاول ركب يمر بكما فقولا هذا ابو ذر صاحب رسول الله اعينونا على دفنه ، ولما فعلا به ذلك اقبل عبد الله ابن مسعود فى رهط من اهل العراق ، فلم يرعهم الا والجنازة على قارعة الطريق ، وكادت الابل ان تطأها ، فجعل عبد الله بن مسعود يبكي ويقول صدق رسول الله .

واما ابو خيثمة فانه ذكر عن نفسه فقال تخلفت عن رسول الله ، فدخلت حائطا ــ الحائط هو الجنان من النخيل ــ فرايت عرشا ــ العريش هو بيت من عروش النخيل يظلل ــ قد رش بالماء ورايت زوجتي ، فقلت ما هذا بانصاف رسول الله من السموم والحر وانا فى الظل والنعيم ، فقمت الى ناضح ــ هو البعير الذي ينضح عليه الماء ــ اي يسقي عليه ــ وتمرات ، وخرجت فلما طلعت على العسكر رآني الناس ، قال (صلى الله عليه وسلم) كن ابا خيثمة فجئت فدعا لي»

وقوله (صلى الله عليه وسلم) كن ابا ذر ، كن ابا خيثمة هو بمعنى الدعاء اي اللهم اجعلهما ابا ذر وابا خيثمة كما تقول اسلم اي سلمك الله .

اما نفي عثمان لابي ذر الى الربذة فلم يكن بمطعن فى دينه او صحبته ، وانما كان ابو ذر معروفا بالافكار الاشتراكية المتطرفة ، وكان ينادي بها فى الاسواق والمدن والطرق ولا يبالي ، فخاف عثمان أن يفتتن القوم به ، فابعده على الاقطار المزدحمة بالسكان ، وهو الصحابي الجليل الذي قال له رسول الله لما وصل اليه حينما قال كن ابا ذر ان قال له « غفر الله لك يا ابا ذر بكل خطوة خطوتها الى ان لقيتني » .

ومن الفوائد التي نجمت عن هذه الغزوة ، ان المسلمين كلهم اجتمعوا على صعيد واحد وراو النبي (صلى الله عليه وسلم) ، بما فيهم سكان القبائل النائية التي لم تقدر عادة على التنقل الى المدينة ، وراوا فضلا عن ذلك معجزات نبوته فى الطريق ، وفى جميع مراحل هذه المسيرة المظفرة ، فقد راوا رسول الله يقول كن ابا ذر كن ابا خيثمة فكان كما طلب .

ومنها ان الحملة لما وصلت الى موضع هلاك ثمود ، وكان غير معروف للنبي ولا للمسلمين وكان يدعى بالحجر بواد بين المدينة والشام ، اعلمهم النبي (صلى الله عليه وسلم) ، بانه موضع هلاك القوم الظالمين ، فأمر اصحابه بان لا يشربوا من مائها، ولا يتوضئوا فيها ، وما كان من عجين معجون بذلك الماء فلا ياكلوه ، بل يعلفوا به دوابهم ، وذلك خوفا ان تقسو قلوبهم او يلحقهم ضرر في ابدانهم ، وقال لهم لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم ان يصيبكم ما اصابهم الا ان تكونوا باكين ، ثم نع رسول الله راسه واسرع السير حتى جاز الوادي .

ومنها انه (صلى الله عليه وسلم) امرهم بأن لا يخرج احد الا ومعه صاحبه ، فما كان من رجلين من بني ساعدة ان خرج احد منهم لحاجته ، والآخر في طلب بعيره فالاول خنق اي صرع في موضعه ، والثاني حملته الرياح العاتية الى جبل طيء ، فاخبر بذلك رسول الله ، فقال « الم انهكم » ثم دعى لهما فشفي الذي صرع ، واما الثاني فلما رجع (صلى الله عليه وسلم) الى المدينة أهدته له طيء .

ومنها ايضا ان عين تبوك كانت تنضح ماء قليلا فغسل من مائها وصب الماء في العين فجرت عينا معينا .

ومنها ما سبق ان اعلم خالد ابن الوليد لما وجهه الى دومة الجندل ، حيث قال له ستجد أكيدر يصطاد البقر ليلا فتاخذه فكان كما قال (صلى الله عليه وسلم) .

وهكذا كانت هذه الغزوة فتحا مبينا سواء للمسلمين الذين شاهدوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو تظهر عليه هذه المعجزات كما شاهدوا اخلاقه الالهية التي غمرتهم حبا فيه وايمانا .

وعلى كل حال فان الرحلة كانت شاقة وشيقة معا ، وكانت خاتمة أعماله (صلى الله عليه وسلم) الحربية ، فانه بعد ما رجع الى المدينة لم يلبث ان استاثر به الله بعد ما خلف خططا حربية للمسلمين خارج الجزيرة العربية ودخلت العقيدة الى الشام من بابها الواسع ، وخلف هناك صدى واسعا يرن في تلك الارجاء وكان على من ياتي بعده من الخلفاء ان يتمم ما بداه ولم يخب ظن المسلمين في خلفائه .

وبعد .

فان انطلاقات عرش المغرب ، عندما يرسل سهمه الى الشرق او الغرب يتوخى هدي الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، هذا الهدي الذي كان نبراسا لحفيد الرسول عاهل المغرب العيظم جلالة الحسن الثاني ، عندما جرد قوات عسكرية الى نفس الاقطار، ولنفس الغرض .

فاذا كانت اقطار الشام ، يقع جزء منها في هذا العصر ، تحت كابوس الاحتلال الصهيوني الجائر ، فانه لم يكن بأقل من احتلالها بجحافل الروم الظالمة ، في وقت الزحف الاسلامي الاول ، تحت راية سيد الخلق (صلى الله عليه وسلم) .

ثم اذا كانت الصحراء المغربية ، الى وقت قريب ئن تحت نفس الكابوس الهجين ، فان زحف المسيرة الخضراء كان مستوحى بدوره من هدي زحف الرسول، في مسيرته السلمية الى مكة المكرمة .

وهكذا قدر لانطلاقات المغرب ، أن يصحبها التوفيق ، ولو في خضم المكابرات العنيدة ، التي هي سنة البشر الكونية ، الا ان القافلة تسير ، والولد للفراش وللعاهر الحجر .

الحاج احمد البوعياشي



ان الشيخوخة والهرم نذير الزوال والفناء ، فاذا ما حل بالجسم ، او نزل بالفكرة ، فلن ينفع معه علاج ولن يدفعه طب ولا استرقاء .

وكثير من الافكار البراقة فى حين من الاحيان ، تجد صدى ورنينا لانها ضربت على بعض أوتار القلوب ، تفقد رواءها ، ويتعدم التجاوب معها بعد فترة ، وذلك لانها لم تعد تتجاوب والناس الذين طرحت عليهم . فقد شاخت ، واقتربت من شفير النسيان ، ولو حاول سدنتها والمنتفعون منها ان يسطوها فلن يفلحوا ، ولو حققوا بعض الانتصارات فهي فقاقيع ستتلاشى لان الفكرة هي فى طريق الموت، وهي اشبه بالشمعة حين توشك أن تنطفىء !!! والفكر الماركسي بعد الستينات قد ظهرت أعراض الشيخوخة فيه ، وبدأت تزداد مع الأيام ، وهي الآن أوضح منها فى اي يوم مضى رغم فقاعات هنا وهناك ، وهي دليل الضعف والانهيار القريب .

وشيخوخة الفكر الماركسي قد جاءت من ناحيتين اثنتين :

أولاهما : الطوباوية المهلهلة في أصل النظرية ، والفكرة الماركسية .

وثانيتهما : عدم صلاحيتها فى مجال التطبيق وحيز الواقع ، وكلا الناحيتين تتصل بالاخرى .

1 ـ اما الطوباوية المهلهلة فى النظرية التى أطلق عليها خداعا ومراوغة ـ الاشتراكية العلمية ـ فقد كانت هذه المتناقضات من الأفكار التى جمعها ماركس ماهي الا رد فعل على بعض الاوضاع الاجتماعية التى نتجت عن الثورة الصناعية فى اوربا ، فقرر ان تاريخ الانسانية هو البحث عن الطعام وان ادوات الانتاج هي التي تحدد القيم والمبادىء ، والاخلاق والعقائد ، وتخلق الصراع المستمر بين الطبقات الاجتماعية .

ومن هذا المنطلق دعى طبقة الصعاليك الى القيام بالثورة ضد من عداهم ـ اي بقية طبقات المجتمع ومعنى هذا : ان الماركسية هي قرينة الجهل ، وذلك لانها تريد ان يبقى المجتمع كله عمالا وفلاحين لكي يحكموا انفسهم ، ويصبحوا هم السلطة !! ونحن لا ندري كيف سترتقي امة يرسم لها سياستها ويخطط لها نظام حياتها الداخلية والخارجية عمال وفلاحون !! وربما كانت هذه خدعة للدهماء .

وبناء على المبدأ الماركسي فلسنا بحاجة الى ثورات على العادات والتقاليد والاعراف بل هي ستتغير دون ان نجهد انفسنا ، ونكلفها عناء التغيير لان هذه المهمة منوطة بادوات الانتاج والاقتصاد ، وهذا يكذبه الواقع الماركسي قبل غيره ، وقد اصبح ظاهرا للعيان اكثر من اي وقت مضى ، ووقف فى وجه هذه الفكرة واثبت زيفها عدد من كبار العلماء الباحثين فى شتى حقول المعرفة الانسانية ، وفيهم عدد من اقطاب الماركسية ذاتها فيكون مصيرهم على اقل تقدير التنحية عن منصبهم وطردهم ، ان لم يكن مستقرهم ومستودعهم مجاهل سيبريا ومن هؤلاء العالم الشهير (افليوف) المتخصص فى البيولوجيا والوراثة عندما اداه بحثه (الى انه ليس بامكاننا أن ننقل عن طريق الوراثة خصائص نكتسبها اثناء حياتنا ، كما أن اي تحول سياسي فى طبيعة اي جنس لا يحدث الا عن

طريق التناسل الموجه او الطبيعي ، فبينما تتغير الخصائص المكتسبة بتغير الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، نرى ان الطبيعة الانسانية تبقى ثابتة ، وهذا تمزيق النظرية الماركسية شر تمزيق لهذا استبدل برجل آخر مغمور – ليزانكو – (سعيا وراء تأكيد مبدأ نقل الخصائص المكتسبة عن طريق الوراثة خشية تحطم المبدأ الذي يبشر بانسان جديد) ...

هذا وقد بقيت الماركسية مدة غير قليلة تخضع حقائق العلم لرقابة المبادىء وتذللها لشاءت هذه المبادىء أم ابت حتى اتسع عليها الخرق ، ولم يعد بمقدورها اخفاء ذلك ، وفضل كثير من العلماء التخلي عن مزاولة الأعمال العلمية لئلا تقلب الأمور ويشوه وجهها ، وكثير منهم واجه الموت بضمير العالم ، وفضله على الحياة الرخيصة .

علما بأن الماركسية قد طوت جيلين من البشر او اكثر علها تجد لها مكانا في عقل الانسان او قلبه ، ولكنها ايقنت انه لا يمكن ذلك .

2 – وكم وعدت عمال العالم بجنات وارفة الظلال ، ومنتهم أماني حلوة جميلة هرعوا اليها تحت قساوة الراسمالية الغشوم ووطأتها التي لا ترحم ، فلما اصبحت الماركسية حقيقة واقعة ما الذي حدث ؟ الذي حدث انها فشلت فشلا ذريعا وتهاوت وهي مستمرة في انحدارها حتى تصل الى رمسها الذي يواريها قرونا عددا .

انها من اول يوم اضطر اصحابها للعبث بها ، وتعديلها وتغييرها ، وهكذا مع الايام يزداد التلاعب لتلائم الواقع ، وما تعديلات لينين ، وستالين ومن والاهم الا تحطيم لأواسي لنظرية التي لم يمر على الانسانية مبدأ نادى بالحتميات كما نادت بها الماركسية واذ بها لا تلتزم بواحدة منها ، منذ اعلان ماركس ان قيام الشيوعية محتم في اكثر البلاد راسمالية – – انكلترا ، واوربا الغربية – الى ايامنا هذه – ونحن نسمع الحتميات التي تتمرغ على اعتاب سياسة الوفاق ، متنكرة للمبدأ .

وان اسلوب التطبيق كان بأبشع انواع الميكيافيلية ، ومن يقرأ نظرية ميكافيلي ، ويطلع على اسلوب التطبيق الماركسي يوقن ان (نيكولو ميكافيلي) يساوي تلميذا غبيا في مدرستهم ، فهم لا يتورعون عن الوصول الى غاياتهم باي وسيلة كانت شريفة أو غير شريفة فلا ضوابط من خلق ، ولا رادع من ضمير ، وهذا مما أفقد الماركسيين الكبار ثقتهم ببعضهم .

والماركسية – كما ادعت – تقوم على اكتاف العمال والفلاحين ولأجلهم ولكن التطبيق اظهر ان الطبقة العاملة خلف السور الحديدي مسحوقة سحقا شنيعا ، فقد طالبتها السلطة بكل قدراتها وطاقاتها ، ولم تعطها الا قدر الكفاية ، وذلك حسب المبدأ – من كل حسب طاقته ولكل قدر حاجته – فاوجد هذا لمبدأ النتيجة الحتمية !! بناء على المذهب الى وجود جماعة تأخذ الفارق بين الطاقة – القدرة – والحاجة ، وهي الدولة التي سخرت هذا الفارق لبناء آلات الدمار والهلكة عوضا عن ردها رفها ورفاهية للذين اقتطعت منهم ، ونشأت راسمالية الدولة الماركسية ، ولهذا تقاعس العمال عن الانتاج والعمل فهبط في جميع القطاعات ، ولم تعد (السخرة) تكفي نفسها حتى اضطرت الدولة الراسمالية ! في حقيقتها الى استيراد الغذاء لهم .

ولك ان تقارن بين شطري دولة شاءت الاقدار ان تقسم وتحكم احداها بالماركسية ، وهي المانيا ، فالغربية عملاق يهدد العالم ، والشرقية الماركسية ، لا تذكر بشيء يستحق الاهتمام سوى منع الفارين منها الى الشطر الثاني ، مع علمهم يقينا بأن نجاتهم بمقدار واحد من عشرة آلاف خصوصا بعد عام 1965 حيث جددت التحصينات على سور برلين الشهير فوضع عليه وحوله 231 برجا للمراقبة ، و 132 غرفة محصنة تحت الارض ، 214 مركزا معززا بالكلاب البوليسية و 100 كيلومترا من الانفاق المحصنة، و115 كيلومتر من الاسلاك المفخخة والمكهربة ، و 114 كيلومتر من الممرات الخاصة بالدوريات . ومع هذا يفضل الكثيرون الموت على الحياة في ظل الانظمة الماركسية ، (وليس هذا تقريظا للنظام الراسمالي في المانيا الغربية لا ، لا، فهناك ثلم ستؤدي به الى الانهيار قطعا ، ولكن على اية حال قدمت للانسان مالو عرف كيف يستفيد منه ، ووضعه موضعه الصحيح ، لسعد بذلك .

ويستتبع تطبيق الماركسية تركيز السلطة بيد فئة قليلة جدا – سمها ما شئت – وهي الوصية على المبادىء التي ترعى بها القصر ، فكل من يحاول الاعتراض والانتقاد ، محقا او مبطلا ، فهو عدو الشعب ، عدو الثورة ، رجعي فتلصق به هذه التهم ويدخل محكمة علمت احكامها مسبقا .

وفي سبيل ذلك ينشط الجهاز البوليسي الرهيب ، وتتحكم المخابرات ، واجهزتها الظاهرة والمخفية ، وفي قمة الهرم رجل واحد يصرف الامور على هواه فهو السلطة التشريعية والتنفيذية ، والقضائية .

ولئن بليت الانسانية في هذا العصر بالدكتاتوريات ، لكن اشدها وأطغاها ، وبسفور واعلان ما كان يحكم بالمبادىء الماركسية .

ومن شك في هذا فليتذكر كما تذكر خروتشوف !! اذ يقول : «واضحت عمليات القمع اسوا من قبل بعد ان استلم يزهوف في 1936 المسؤولية الأولى في المباحث ، وبدا ما يمكن وصفه حرفيا بالمجزرة ، وسقطت جماعات كبيرة من الشعب تحت سكين المسلخ » مذكراته ص 107 ولن نذكر ملايين المسلمين الذين بخرهم من الوجود لينين وستالين ، بل نتحدث بشكل عام ، والزعيم خروتشوف يحدثنا عن لينين الذي يقدسه كثير من الدهماء فيقول: « ولكن يمكن التاكيد ان لينين لا يتورع قط عن اتخاذ اقسى الاجراءات واشدها عند اعداء الثورة ، عندما يرى ذلك .... فقد لجا لينين الى اتخاذ اجراءات وتدابير لا هوادة فيها ولا رحمة ضد اعداء الثورة وطبقة الكادحين ... ويمكنكم ان تعودوا بالذاكرة الى كفاحه مع قادة الثورة الاشتراكيين » مذكرات خروتشوف .

وان الغزو العسكري الذي مارسته الماركسية ضد ارادات الشعوب ولفظها للماركسية ، من العوامل الرئيسية التي أسرعت بها الى نهايتها ، فانشقاق يوغوسلافيا ، وتحويرها المبدا بشكل يخالف كثيرا ماهو الحال عليه في بقية البلدان وأصل الفكرة ، وغزو المجر ، وتشيكوسلوفاكيا ، وتبادل الاتهامات بين الدولتين الكبيرتين — روسيا ، والصين — ليس مجرد شيء عابر .

ولم يعد عاقل يخدع بهذه الصواريخ العابرة ، والمدمرات الكاسحة التي تملكها الشيوعية فماهي الا اقوات ومقدرات الشعوب التي تئن تحت وطأتها ، ومن حق هذه الشعوب قبل غيرها الثورة على الماركسية، وتركة لينين وستالين ... وهذا الذي سيكون طبقا لسنة الاجتماع والحياة .

وان بحث الماركسية عن اماكن الحروب في العالم لاشغالها واستغلالها ، وآخرها ما كان منها في انغولا رغم النصر الظاهري الذي أحرزته الا انها احدثت رد فعل عنيف وعميق اظهر كثيرا مما حاولوا اخفاءه زمنا عن الناس ....

وهكذا نجد ان الخلل والاضطراب والنقص في الفكرة جعلها عندما تنتقل الى حيز التطبيق تتحطم متناثرة تحت مطارق الواقع ، ودوافع الفطرة وهي سائرة في طريق الانقراض لا محالة ونحن معشر المسلمين — : ليس هناك خيانة اكبر من تعلقنا الآن باذيال الفكر الماركسي بعد ان اثبت عدم نجاحه وصلاحه ، ولا يزيد عليها خيانة سوى تسخير مقدرات الامة الاسلامية في سبيله ، وما زالت ترن في اذني كلمة احد الشباب العرب المتحفزين — وهو يشغل منصبا مهما يتصل بقطاع العمل والعمال — يقول لي ونحن في مناقشة حول استغلال المركسية للعمال : ان بريق الماركسية قد انطفا ، وفتيلها احترق بين العمال ، فقلت له : هذا يبشر بخير ، والمسرح البشري اليوم مهيأ لفكرة جديدة فهل تستفيق امتنا وتبصر الطريق ؟! ذلك ما نرجوه ولنعمل في سبيله .

فاروق حمادة

مقامات ...

للأستاذ محمد بن تاويت

اريد بكلمة « مقامات » مدلولها اللغوي الاول ، وهو « مواقف » ومنه كانت نشاة التسمية في المقامات ، بمعنى المواقف العلمية او الادبية . وفي القرآن الكريم « يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا » اي توقفوا عن مشيهم ، ومن القيام بهذا المعنى يوم القيامة ، اى الوقوف بين يدى الله ، بعد الحشر من الناس ، ويصح أن يكون منه ، قول الشاعر :

فقام يذود الناس عنها بسيفه
وقال الا لا من سبيل الى هند

والوقوف الذى فسرنا به كلمة القيام ، ما كان في أصله الا متعديا ، ولم يكن بهذا القصور الذي انتهى اليه فيما بعد ، ولم يرد في القرآن الا متعديا كذلك ، قال تعالى « وقفوهم انهم مسؤولون » « ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد » « ولو ترى اذ وقفوا على ربهم قال اليس هذا بالحق » « ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم »

بل ان مصدرها « الوقوف » ما حل بها الا وهي قد قصرت وكفت عن عملها . ومن الخطأ ما وقع فيه الزوزني وغيره عند شرح البيت :

وقوفا بها صحبي علي مطيهم
يقولون لا تهلك اسى وتجمل

حيث جعل الوقوف فيه مصدرا وهو في الواقع جمع واقف ، حالا من الضمير في يقولون ، وجاز تقديمه لانه منصوب بفعل متصرف كما نرى . أما المصدر الاصلي لوقف ، فكان الوقف ، ومنه الوقف المعروف في الفقه ، وبه كانت وزارة الأوقاف، مثلا قائما عندنا وعند غيرنا

ومهما يكن فان من مقاماتنا ، هذه ما وقع من بعض الأساتذة الشرقيين ، الذين يعملون في كلياتنا ، فقد سأل احدهم زميلا لنا ، عن ضبط كلمة « المقرى » أبتخفيف القاف ، ام بتشديدها ؟

فاجيب ، بانها بالتخفيف

والجواب الصحيح ، هو ما نجده من المقرى نفسه ، ومن بعض أصدقائه في المغرب وفي المشرق

ونكتفي به وباصدقائه المغاربة ، اما المشارقة ، فربما اجتهدوا في التسمية لغيرهم كما يجتهد المغاربة كذلك ، ومن هنا نشأ الخلاف في الغزالي ، فقوم في الشرق يخففون لزاى وآخرون في الغرب يشددونها . وكما حصل لنا في تسميتنا بالشرق وبالغرب الأوربي بل حصل فيها ما حصل بالمغرب نفسه ، فهي عند الاسبان شيء وعند الفرنسيين شيء آخر ، مما كبدنا كثيرا من المتاعب في السجلات

ولنعد الى المقري ، فنجد له في نفح الطيب ، هذه الابيات :

وخط هذا المقرى العاصي
اجير يوم الاخذ بالنواصي

وخط هذا احمد البادى الوجل
المقري المالكي الذي ارتجل

وخط هذا المقرى من وجــل
مرتجيا من ربه عــز وجــل

وخط هذا المقرى عن عجــل
مؤملا من ربه عــز وجــل

هذه الابيات وردت فى أواخـر اجازاتـه المنظومة ، نقتصر عليها ، ثم نأتى بمـا ورد فـى قصيدة ،وجهها اليه بعض اصدقائه مـن مراكش مطلعها :

الى المقرى الحبر صدر الأيمة
من المخلص الوداد ازكى تحية

واخرى مطلعهـا :

لله در العالـم الجيانـى
كأنمـا ينظـر بالعيـان

للمقـرى العالـم المفضـال
منظـرا بأحسـن المثـال

وهذا بيت آخر جاء ضمن أبيات من قسنطينة :

يا احمـد المقـرى دامـت
بشـراك تصحبهـا الرعايـة

واخيرا فهذا بيت قيل فى جده :

ونفس العلم ان شانت لشخـص
فما للمقري فى العلم شانـي

خاطبه به ضمن أبيات عالم من فاس فهذه الابيات كلها لا تدع مجالا فى كون المقرى صاحب النفـح بتشديد القاف ، نكتفى بهذا ولا نتحشر فى اصـل النسبـة

ومن مقاماتنا المذكورة ، ان زميلا من زمـلاء الاستاذية بكلية الآداب ، قال ان فلانا الباحـث الاسبانى اكتشف كون الشاعـر أبـى المخشـى ، بتشديد الشين ، وليس اسم مفعول مـن خشي ، وقد نشر ذلك معربا ، فاستغله كما قـال أستاذ شرقى معروف بنشاطه فى نشر التراث الأندلسي من غير ما يذكر مصدره . ولما رجعنا الـى نفح الطيب ، الذى اعاد نشره هذا الاستاذ ، نشرا علميا نزيها ، يشكر عليه كثيرا ، وجدناه نفسه قد اطلع على هذه الأبيات ــ لا محالة ــ وهي لابنة الشاعر ، وفيها هذا الاسم الذى لا يتزن الا بما قال ذلـك الباحث الاسبانى وغيره ، من المطلعين على الابيات التى مطلعها :

انى اليك ابا العاصى موجعـة
ابا المخشي سقته الواكف الديم

فهذا البيت كاف فى أن الاسم ، بتشديـد الشين ، وأن المطلع عليه لا يحتاج الى تنبيه ، شاكرا العروض واوزانها وحدها دون غيرها وكنت منـذ عشر سنوات ، وجهت الى هذه المجلة الغـراء ، كلمة بعنوان « شاعرة وشعر فـى فجـر الادب الاندلسي » تنشر قلت عنها اذ ذاك بالنص ، امـا الشاعرة فهي حسانة التميمية ، بنت ابي الحسين الالبيرى التميمى

هكذا كانت تعرف عندنا ، واخيرا سمعنـا ان استاذا اسبانيا باحثا ، اكتشف أنها بنـت أبـي المخشي ، فكان اكتشافه هذا يطبل به ويزمر ، مع ان كتب التراجم الأندلسية القديمة صريحة فى هذا ، تقول هذه التراجم ما نصه :

حسانة بنت ابي المخشي ، عاصم بن زيد بـن يحيى بن حنظلة بن علقمة بن عدى بن زيد العبادى التميمي ، كانت شاعرة مطبوعة ومدحت الاميـر عبد الرحمن بن الحكم ، ذكر ذلك ابو عامر السالمي ، وفي خبرها عن ابن عباد .

ويقول المصدر نفسه ، فى ترجمة والدها ما نصه:

عاصم بن زيد بن يحيى بن حنظلة بن علقمـة بن عدي بن زيد العبادي التميمي ، من اهل قرطبة ، وابو زيد هو الداخل من المشرق الى الاندلس ، يكنى ابـا المخشي ، شهر بالشعر ، كان فى زمان عبد الرحمن ، بن معاوية ، وامتحن بابنه هشام ، فقطع لسانه وسمـل عينيه ، ذكر ذلك ابن حيان وغيره .

ومن المعروف عن الشاعرة ، انها لجات الـى الحكم ، بن هشام ، وقد توفي ابوها ، فقالت هذيـن البيتيـن :

اني اليك ابا العاصـي موجعـة
ابا الحسين سقته الوكف الديم

فقد كنت ارتع فى نعماه عاكفـة
فاليوم آوى الى نعماك ياحكـم

واما مدحها لعبد الرحمن بن الحكم ، فلا نعرف عنه الا ما ورد في الترجمة ، والذي نريده منها انها تثبت صراحة كون الشاعرة ابنة ابي المخشي ، كما افادتنا الترجمتان معا ، نسبته الى الشاعر زيد العبادي المعروف ، وانه كان مشهورا بالشعر على عهد عبد الرحمن الداخل وتذكر التراجم وكتب الادب ايضا ، انه توجه ، بشعره الى عبد الرحمن ، بعد ما سملت عيناه ، فقال :

خضعت ام بناتي للعدا
ان قضى الله قضاء فمضى

ورات اعمى ضريرا انما
مشيه في الارض لمس بالعصا

فاستكانت ثم قالت قولة
وهي حرى بلغت مني المدى

ففؤادي قرح من قولها
ما من الادواء داء كالعمى

وزادت ترجمة الشاعر ، هذه ، انه قطع لسانه ، وهذا لا نعرفه الا فيها

ومن تلك المقامات ، اني كنت احد ثلاثة ، اناقش رسالة وردت فيها هذه الابيات المعروفة لاوس بن حجر

ايتها النفس اجملي جزعا
ان الذي تحذرين قد وقعا

ان الذي جمع السماحة والنجـ
ـدة والحزم والقوى جمعا

الالمعي الذي يظن بك الظـ
ـن كان قد راى وقد سمعا

والمتلف المخلف المرزا لم
يمتع بضعف ولم يمت طبعا

والحافظ الناس في تحوط اذا
لم يرسلوا خلف عائذ ربعا

وعزت الشمال الرياح وقد
امسى كميع الفتاة ملتفعا

وشبه الهيدب العبام من الا
قوام سقبا ملبسا فرعا

وكانت الكاعب الممنعة الـ
ـحسناء في زاد اهلها سبعا

لبيبك الشرب والمدامة والـ
ـفتيان طرا وطامع طمعا

وذات هدم عار نواشرها
تصمت بالماء تولبا جدعا

وكان الألمعي وما بعده مضبوطا بالفتح ، فقلت لصاحب الرسالة ، انه بالضم ، فاعترض احد الاستاذين الصديقين : بل هو بالفتح ، وايده في ذلك الصديق الآخر ، فقلت : اين الخبر اذن ؟ فقالا في بيت آخر لم يذكر هنا

فهذا « الدفاع » له وجهه في حد ذاته ، ولكن : هل يعقل ، ان المبرد او غيره ، يأتي باستشهاد مبتور هكذا فيقتصر على نصف الجملة ؟ ان اردنا ان نتصور هذا الوضع ، فلنحذف هذا البيت بتمامه ، لأن اهميته ليست الا تبعا لما قبله ، على الصفة ، كما نقول ـ لا البدلية كما قالا ـ هذا :

ان الذي جمع السماحة والنجـ
ـدة والحزم والقوى جمعا

ونقتصر على هذا ، من غير ما نذكر له خبرا فما راى القارىء الكريم في هذا الاستشهاد الذي يؤتى به على معنى لا يقرر الا في جملة الكلام اما البيت الذي اراده الاستاذان خبرا ، لما تقدم ، فهو :

اودى فما تنفع الاشاحة من
شيء لمن قد يحاول البدعا

وهذا البيت لم يرد في نسخة من الكامل للمبرد نفسه ، فلاشك انه اعتبر الخبر البيت الذي قلنا بوجوب رفع الالمعي فيه ، اما النسخة التي ورد فيها هذا البيت ، فان وروده ، كان قبل البيت المذكور مباشرة هكذا :

ان الذي جمع السماحة والنجـ
ـدة والحزم والقوى جمعا

اودى فيما تنفع الاشاحة من
شيء لمن قد يحاول البدعا

الالمعي الذي يظن بك الظـ
ـن كان قد رأى وقد سمعا

فالبيت كخبر استقر في محله قبل البيت الأخير وانتهى الأمر به ، وأتى ما بعده من الابيات مرفوعا كلماتها الأولى هكذا :

« الامعى » ، و « المتلف » وما بعده (والحافظ » ، على سبيل ليس من قبيل ماقيل من البدلية وشيء كما تقدم به القول ، للهم الا ان يكون الأعمى بدلا من الضمير في اودى ، وهو جائز اخذ بالمثال ثم بالمفهوم من قول الألفية

ومن ضمير الحاضر الظاهر
لا تبدله الا ما احاطة جلا . الخ . .

وفي هذه الحال ، يكون مرفوعا ، ايضا ، لا منصوبا، كما زعم الزاعمون ، والغالب ان البيت : اودى الخ ، اقحم من الناسخ في هذه النسخة ذلكم ان الابيات العشرة المذكورة ، هي التى بعينها في الكامل ، بنسخته الاولى ، تماما خالية من ذلك البيت الواغل عليها .

ومن المقامات ما كان بيني وبين استاذة في كلمة نفزة ونفزاوة

لقد كان اتصالى بنفزة سنة خمسين ، حينما كتبت بمجلة رسالة المغرب ، بحثا تحت عنوان « كيف أسس عبد الرحمن الداخل دولته » ثم كان اتصالي بنفزوة سنة ست وخمسين ، في بحث نشر بمجلة Tamuda تحت عنوان « بزوغ الثقافة العربية بالمغرب » ولعل هذا الأخير راق صديقنا الأستاذ عبد السلام بن سودة ، فادرجه في كتابه « دليل مؤرخ المغرب الأقصى » ضمن ما زاده واضافه الى الكتاب في طبعته الثانية

وقد تحدثت مع صديق حول هذا ، ثم سلمته العدد المذكور من المجلة ، ليطلع على الموضوع ، وكفادته اصلح في صمت كلمة « نفزاوة » بكلمة « نفزة » وقد ورد ذكرها ، كمدينة في الصفحة 188 من العدد

والواقع انني لم اكلف نفسي التحقيق في الكلمة ، وان جعلت نفسي منها على ذكر ، الى ان اجتمعت اخيرا باستاذ كان يتحدث عن وجود اسماء متشابهة لقبائل بعضها في المغرب وبعضها في الجزائر او تونس ، فكان منها « بني عروس » التي قلت له انها كذلك موجودة بالساحل الشرقي لاسبانيا بهذا الاسم وانتهزت الفرصة فسالته ، هل توجد نفزة ؟ اجاب : نعم ، ولكنها تعرف الآن بنفزاوة

وهنا قلت من الغريب ان نفزة ، كانت معروفة بالمغرب الأقصى ، وكان عبد الرحمن الداخل ، له خؤولة بها . . . فتدخل استاذ آخر معترضا بان ذلك كان بطرابلس ، فقلت له ، بل انها في كثير من كتب التواريخ يذكر بانها كانت قريبة من طنجة ، فلم يرجع عن رايه . . . ورجعت انا الى كتبي وبيتي ، واعتمد على القديم ، فوجدته هكذا

هناك تفرقة بين « نفزة » « ونفزاوة » فالاولى كانت بالمغرب ، وكانت ايام ادريس الاصغر على قرب من تمسان ، وهي الى جانب ذلك تعرف ، كمدينة ، كما تعرف كقبيلة ، ولهذا ذكرها صاحب معجم البلدان ، من القبائل التى سميت بها الاماكن ولم تكن هذه المدينة ، بالمغرب فحسب ، بل كانت حتى في الاندلس ايضا ، وان كثيرا من الاندلسيين ، منسوبون اليها ، ولعل منهم ابا حيان النحوى والمفسر ، وكنت فيما قبل اعتقد انه منسوب الى نفزة المغرب ، فيما نشرت عنه منذ نيف وعشرين سنة بمجلة « لسان الدين »

اما نفزاوة فهي قبيلة بافريقية ، في نواحى الزاب الكبير ، كما نقل ياقوت وهى مدينة ايضا وبهذا ورد ذكرها في المسالك والممالك للبكرى الذى وصفها في الجملة ، ولم يذكر نفزة الا يكون ادريس الاصغر « غزا نفزة وتلمسان ، » ولكن ياقوت ذكرها بانها « مدينة بالمغرب بالاندلس » ، مع انها بالاندلس غيرها بالمغرب ، ونقل عن السلفى بانها « قبيلة كبيرة منها بنو عميرة وبنو ملحان المقيمون بشاطبة » ثم ذكر رجالا اشتهروا من الاندلسيين بالعلم ، وهم منسبون الى « نفزة » هذه بينما لم يذكر عالما او غيره ينسب الى نفزاوة ؟

فهل نفزة هي نفزاوة ؟

لا أعتقد هذا ما دام اصحاب المدن يفرقون بينهما ، وما دامت كتب التاريخ وغيرها تفرق

كذلك ، فابن خلدون فى تاريخه ، يذكر نفزة ونفزاوة على انهما مختلفان . والمقرى فى النفح « نفزة » وقد نسب اليها طارق بن زياد ، نقلا عن عقبه وعند تعرضه لأخوال عبد الرحمن الداخل ، يقول انهم « نفزة من برابرة طرابلس » ، ولكنه يقول فى موضع آخر ، نقلا عن « بعض المؤرخين من اهل المغرب » ان عبد الرحمن « لم يزل متوغلا فى سيره الى ان بلغ المغرب الاقصى ، ونزل بنفزة ، وهم اخواله ، فاقام عندهم اياما ، ثم ارتحل الى مغيلة بالساحل ، فارسل مولاه بدرا بكتابه الى مواليهم بالاندلس »

فهذا الأخير صريح فى كون « نفزة » كانت بالمغرب ، ويؤيده ما ورد فى جغرافية اليعقوبى ، من ان صالح بن سعيد الذى ادعى انه من حمير ، لا يسلمون له هذه الدعوى ، لأن « اهل البلد يزعمون انه من اهل البلد « نفزى » واسم مدينته العظمى التي ينزلها « نكور » . ومن هذه المدينة ، جاز رجل من ولد هشام بن عبد الملك بن مروان ومن معه من آل مروان الى جزيرة الاندلس « لما هربوا من بنى العباس » ، يعنى عبد الرحمن الداخل ، الذى ركب البحر من هذا المكان الى المنكب ALMONECAB الذى يقابله من بر الاندلس والمهم ان نفزة كان معها شان عظيم ورجال اشتهروا فى الاندلس والمغرب وفى الشرق ، فكانت ام عبد الرحمن الداخل نفزية مغربية ، وكانت ام جعفر المنصور كذلك ، وقد تقدم ان طارقا نسب اليها ، ولمكانتها فى الدولة والمجتمع ، فقد اختصت بمدينة من مدن الاندلس، عمرتها او اسستها ، وكان من رجالها علماء ذو شهرة فى الشرق والغرب

لقد استمعت الى كلمة للأستاذ فاضل بن عاشور ، يلقيها فى بغداد بمناسبة المهرجان الالفى بعد المائة لهذه العاصمة فذكر ان ابا جعفر المنصور ، درس بالقيروان ، او اتى اليها ونزل بها (لا اذكر بالضبط) ولما انتهى من كلمته ، سألته التفسير لهذا ففسره بأن أمه كانت من تونس « نفزاوية »

هكذا قال الاستاذ العظيم ، ولكن المعروف لي انها من « نفزة » مغربية ، لا من نفزاوة ، مع احترامي الكبير لمعلومات الاستاذ المتثبت .

وربما كان معهما الصواب ، فكانت نفزة هذه تونسية اخرى غير المغربية او ان « سلامة » ام ابي جعفر المنصور ، كانت من نفزاوة ... كان يعير بو جعفر ، بكونه بن « سلامة » البربرية ، كما نجد فى « مقاتل الطالبيين » لابى الفرج الاصبهاني ، ومن هنا ندرك تمجيد ابي جعفر المنصور ، لخصمه عبد الرحمن الداخل ، وتلقيبه اياه بلقب « صقر قريش » ، فهذا اللقب لم يكن « لله فى الله » ، بل كان فى الواقع اشادة بابن البربرية ، ضمن هذه « القرشية » ، وقد سمع من احدهم — وقد قال له يا ابن اللخناء — : — ابن اللخناء من قامت عنه مثل امك سلامة » فلم يجد ما يقول سوى : « اضربوا عنقه فضربت عنقه»... بعد ما كان محمد بن عبد الله بن الحسن ، كتب اليه معرضا به فقال « فانا اوسط بنى هاشم نسبا وخيرهم اما وابا لم تلدنى العجم ولم تعرق فى امهات الاولاد »

لقد ذكرت نفزة بين القبائل البربرية التى بايعت ادريس الاكبر ، ولم تذكر نفزاوة ، كما فى روض القرطاس وغيره ، مما يزيدنا اعتقادا بان نفزة مغربية من المغرب الاقصى ، وان خؤولة عبد الرحمن الداخل وابى جعفر المنصور ، فى المغرب الأقصى

ومن المقامات كتبت مرة هذه العبارة : انهم سيرسلونني كذا ...

وكان مرادى « انهم سيرسلون لي كذا »

فلما رددت القراءة ثانية ، وجدت صداها ، يبعث فى شيئا من الرضى عن هذه النون ، ووجدت فهمي يتفتح لشيء كان له مغلقا ، ووجدت اطيافا من المعالم وشخوصا من المفاهيم ، يتراقص بعضها فرحا ويطرب الآخر مرحا

فقلت فى نفسي ، ياله من غلط مبارك ، هدانى الى خفي الصواب ، ولولاه ما اهتديت الى ذلك الصواب ، وقد غطته سحب الاعراف بمفاهيم الناس ، واحتضنه المانوس فطواه فى حضن الماضى ، وغطاه فى خضم باعدت ما بيننا وبينه شواهق السواحل ، فعد فى الفرقى الى الابد

قلت : لماذا لا يكون الأصل فى نون الوقاية هذه ، هو لام الجر ؟ لم لا يكون التطور الحيوى للغة ، عمل عمله فى هذا ؟

ليست النون تحل محل اللام فى بعض اللهجات العربية :

قالت وكنت رجلا فطينا
هذا لعمر الله اسرائينا

فاذا قارنا بين اللغات ، فاننا نجد مثلا هذه اللام تستعمل فى العربية للنفي ، على حين نجد المستعمل للنفى فى غالب اللغات هو النون ، وهذا يدل على هذه العلاقة التى لم تات جزافا ، بل الفطرة الأولى للانسانية ، هي التي جعلتها تنطلق بالرفض وهي تنطق بالنون او اللام معبرة عن رفضها هذا

ومن الرفض ما يدعو اليه كالنهي مثلا ، والعلاقة بين النفي والنهي واضحة ، لدرجة ان جل اللغات لا يفرق فيها بينهما . وان بعضها ، كالفارسية ، كانت تفرق ، فتجعل للنفي النون وللنهي الميم ، ولكنها عدلت اخيرا ، عن هذه التفرقة ، فعممت النون فيهما .

ان نون الوقاية ، سميت كذلك كما قال النحاة الذين سموها — لانها تقي الفعل من الكسر

اذن هي لا تكون الا فى الفعل ؟

كلا : بل تكون فيه ، كما تكون فى الاسم ، وتكون فى الحرف ، الا أن كونها فى الفعل ، مقيس لا يحتاج الى سماع ، بخلافه فى الاسم والحرف ، فهو مسموع فى كلمات منهما فحسب . .

فقد قالوا فى الاسم : قدني ، وقطني كما قالوا : قدى ، وقطي ، وقالوا : لدني ، بالتشديد ، ولدني ، بالتخفيف ، وبدون وقاية .

وقالوا فى الحرف : انني ، وعلني ، كما قالوا : اني ، وعلي ، او لعلني ، ولعلي . ومنه ليسني ، وليسي ، فليس ما كان فى الواقع الا من قبيل الحروف ، وليس من قبيل الافعال . ومنه ايضا ، مني ، بالتشديد ، ومني بالتخفيف ، وحذف نون الوقاية منها وقالوا : ليتني ، كما قالوا : ليتى ، بحذف نون الوقاية ، من هذا الحرف . وكذلك كانني وكاني ولكنني ولكني بذكر نون الوقاية وحذفها فيهما وهما من الحروف ، كسابقهما ولا شك .

وانشد النحاة فى هذا شواهد ، منها هذه التى اتى بها شراح الألفية :

قدني من نصر الخبيبين قدى
ليس الأمير بالشحيح الملحد

فقلت أعيراني القدوم لعلني
اخط بها قبرا لابيض ماجد

عددت قومي كعديد الطيس
اذ ذهب القوم الكرام ليسي

كمنية جابر اذ قال ليتى
أصادفه ويذهب جل مالي

أيها السائل عنهم وعني
لست من قيس ولا قيس مني

عندما يشير الى ذلك ابن مالك بقوله :

وقبل « يا » النفس مع الفعل التزم
نون وقاية وليسي قد نظم

وليتني فشا وليتى ندرا
ومع لعل اعكس وكن مخيرا

فى الباقيات واضطرارا خففا
عني ومني بعض من قد سلفا

وفى لدني لدني قل وفى
قدني وقطني الحذف أيضا قد يفي

فالنون اذن ليست خاصة بالافعال ، حتى سميناها « نون الوقاية » لأنها تقي الفعل من الكسر ، بل هي فى الاسماء والحروف كذلك ، ولم تحاول ان تختص بالأفعال الا متأخرا ، من مرحلة النشوء والارتقاء ، فلم يكتب لها النجاح مطلقا ، بل بقي غيرها متشبثا بحقه فى قوة تارة وفى ضعف أخرى ، كما أشارت الى ذلك الأبيات الألفية السالفة

قال أستاذنا المأسوف عليه Paul Krau فى دروسه التي تلقيناها عنه ، بجامعة فؤاد الاول ، سنة 1942 — 1943 ، وهو يتكلم عن الضمير المتفصل فى حالة النصب « أن العربية لا تستعمل هذا الضمير الا عند ارادة اظهار النصب ، وكثيرا ما تستعيض عنه تعوضا أن تقول : ضربه اياك ، تقول : ضربه لك .

فهي لهذا ، قليلا ما تستعمله ، او هي مقتصدة فـــي استعمالـــه »

هذه اللمحة التي لمحها استاذنا الفقيد ، تفيدنا بطريقة عكسية ، فنقول : ان ضربه له ، هو الاصـل ، مستأنسين في هذا بكون بعض اللغـات لا تعـدي الافعال ، مباشرة ، بل بواسطة حـرف ، وذلـك كالاسبانية مثلا . فهذا مبدأ وان كان مخالفا فـي التفاصيل ، لان الاسبانية تستعين بهذا الحرف فـي تعدية الفعل الى الظاهر . اما ان كانت التعدية الـى الضمير ، فلا تستعين في ذلك بحرف مطلقا . بخلاف ما نعديه في العربية غالبا . فهي تستعمل ضربه له ، اكثر من استعمالها ، ضربه لزيد ، كما قال استاذنـا ملاحظا للاستعمال فيها .

والنتيجة التي انتهينا اليها،او التيما زالتتلوحلنا، من بعيد او قريب ، هي أن نون الوقاية كانت في اصلها لاما ، وان الفرق بينها ، حصل عند مرحلة الافـراز والتصنيف التي يقتضيها التطور والرقي : المرحلـة التى عرفت فيها اللغات ما يسمى في النحو الاوربي باسم Comdirect و Indirect ، ثم لما صاروا يفرقون بين ما يسمى عندهم باسم Accusative و Dative ...

نقول هذا ، ولسنا نريد ان نوقع الفوضى فـي نظام لغتنا ، بل اننا نعترف ان استعمال « برسلونني » مثلا ، بدل « برسلون لي » خطأ ولحن فاضح ، لا يغتفر لغويا . اولا يستعمل الا حينما يستغنى في التعدية عن حرف الجر في هذا الفعل ، كما استغنى عن ذلك في بعض الافعال اخرى ، كدخل وسكن مثلا ، حينمـا يستعلان متعديين بنفسهما وقد كان يعديان بحـرف جـر .

اعني ان هذا البحث ، بحث فقهي بحث ، يبحث عن التطور ولا يبحث عن قانون الاستعمال ، الذي فرغ منه ، ولو الى حين ، قد يطول او يقصر ، بحسب ما يكتب لهذا الاستعمال من عمر مديد او قصير .

* * *

ومن المقامات ، اني في سنة 58 ـ 59 ، كنت بلندن نقوم فـي جامعتها بدراسة حـول العلاقـات التاريخية بين المغرب وانجلترا

وبما ان هذه العلاقة بدات منذ عهـد سحيق ، وعلى عهد محمد الناصر ابن ابي يوسـف يعقـوب الموحدي ، فقد انساق بي الحديث الذى كان يـدور بيني وبين بعض الموظفين فى سفارتنا ، الى ذكـر موقعة العقـاب

ذكرت العقاب ، بكسر العين ، كما هو منصوص عليه ، فى ترجمة المستشرق البلنسي ، هويسـي ميرندا ، لجزء من البيان المعرب ، فراجعني صديقان بان المعروف ان العقاب بضم العيـن ، فادليـت بمستندى ، ولكنى لاحظت عدم اقتناع منهما ، فقلت فى نفسي ، لا باس على الاخوين ، وهما فى السفارة ، وليسا مثلنا فى الخسارة ....

ومضت السنون والأعوام ، وتكررت القصـة ، فذكرت لطلبتي بكلية الآداب من فاس ، موقعة العقاب ، بكسر العين ، فراجعوني بما روجعت به منـذ خمس عشرة سنة ، واجبت بما اجبت

ولكن بعضهم لم يقتنع ، مما دفعني الـى الامعان فى هذا الاسم امعانا جديا

فتوجهت اولا الى الاسم فى المصادر الاسبانية ، وهو فى تاريخها « LAS NAVAS DE TOLOSA » فبقي علي ان ابحث فى القواميس عن مفرد هذا الجمع فوجدته فى القاموس الاسبانى الذى بيـدى هكـذا « Nava Tierra Muy Llana y Rasa » ومعناه ارض جد مستوية ومكشوفة . وتفسر الكلمة في القواميس الاجنبية هكذا ففى التركيـة وفـى الانجليزيـة FLAT COUNTRY وفى الالمانية FLACHLAND .... ففي هذه القواميس ، ما عدا التركية منها ، لا يخرج المعنى عن الاستواء ، وهو المعنى الأصلى فى الكلمة الاسبانية ، ولعل الملاحة لها اتصال بمادة الكلمـة ، لاستواء السفن على سطح الماء . والاختلاف البسيط فى بعض الحركات ليست له اهمية جو هرية ، فكلمة « فلات » التى تقدمت فى الانجليزية ، يتصـل بهـا «فليت» Fleet فيها ، ومعناها الاسطول البحـرى وعلى كل حال ، فلسنا هنا بهذا الصـدد ، امـا موضوعنا فلم يسعفنا فيه بوضـوح ، الا القامـوس التركي ، اذ ينص على ان معنى الكلمة ، هو مرتفـع قليل من الأرض ، لأن « جه » هنا بعد « مرتفع » العربى الاصل ، جاء للتصغير . ولعل اعتراضا يوجه الينا فى الاستغاثة بغير القاموس الاسباني ما دامت الكلمـة اسبانية . وهذا الاعتراض له وجاهته ومـع ذلك الاستيناس بالقوامس الاجنبية بغيرنا وكثيرا ما اسعفت بها حتى فى بعض الكلمات العربية فاسعفتني ...

ومن هنا ننتقل الى الأستاذ عنان ، الذى نأتى بنص كلامه ، من كتابه « عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس » (القسم الثانى الصفحة 313 — 314) « تعرف في التواريخ النصرانية . . . بموقعة هضاب أو عقاب تولوسا . . . لوقوعها فوق مجموعة من الوديان الصغيرة ، التى تحيط بها الربى . . . واما فى التواريخ الاسلامية ، فانها تعرف بموقعة العقاب ، من مفردها عقبة ، وذلك فيما يرجح ، لوقوعها بين الربى والتلال المانعة » وهنا علق على الكلمة بقوله « جـاء فى القاموس المحيط ، ان عقبة بالتحريك هى مرقى من الجبال ، والجمع عقاب بكسر العين »

اذن فقد اتضح وجه التسمية بالعقاب ، جمعـا لعقبة ، وهذا الجمع مطرد ، فى وزنه ، كما قال ابـن مالـك :

فعـل وفعلـة فعـال لهما
وقل فيما عينه اليـا منهما

وفعـل ايضـا لـه فعـال
ما لم يكن فـى لامـه اعتـلال

اوبك مضعفـا ومثـل فعـل
ذو التا وفعل مع فعل فاقبـل

ومثله هضبة وهضاب واكمة واكمام واجمة واجام

ويزيد الاستاذ عنان فيقول « وليس بمعنـى المعاقبة على الذنب ، وان كـان بعـض الكتـاب والشعراء ، قد نسبوا اليها مثل هذا المعنـى ، فى معرض التلويح بغضب الله ، وعقابه للموحدين ، لانهم حادوا عن جادته ، وبغوا وتجبروا ، واعتمدوا علـى كثرتهم ، ولم يعتمدوا على عونه »

ونزيد فنسوق فى هذا العقاب ، ما ورد فى كتاب البيان المعرب ، من « ان الموحدين لم يجدوا فى تلك الغزوة ولا نصحوا فيها لاجل نكبة اميرهـم الناصر ، لاشياخهم وقتله واستئصاله لهم ، على يـد المفوض ذلك اليه « ابن مثنى » . . . ولت جمـوع المسلمين ، فمشت الهزيمة عليهم ، وثبت الناصـر لدين الله ، ثبوتا كاد يرى به ويمكن العدو منه ، حتى وصلت رماحهم اليه . . . وذكروا ان بعض الناس ، كان يقول « مدها قل لابن المثنى يردها » ، يعنـون بذلك صاحب الأشغال ، الـذى نكـب أشيـاخ الموحدين »

وعلى هذا فان هؤلاء الشامتين ، ربمـا جعلوا انتقامهم بتقاعسهم وتثبطهم عقابا لأميرهم فنسبوا ، من باب الاتفاق ، هذه الوقعة الى ذلك المعنى المذكور هنا وقد قلنا من باب الاتفاق ، لأنه يستقل فى كثير من الاحيان ، والا فالنسبة الى المكان لا محالة .

ثم يقول الاستاذ عنان « وينفرد صاحب روض القرطاس الى جانب تسميتها بموقعة العقاب ، بموقعة حصن العقاب او حصن العقبان

ونقول انه كان هناك حصن ، وما زالـت بعض اطلاله قائمة ، ولكن القريب هو التسميـة بحصـن العقبان ، فهذا الوزن جمع لفعال بالضم كما يقـول ابن مالك :

« وللفعل فعلان حصل »

فلا يخلو حينئذ اما ان يكون تصحيفا من الناسخ، واما ان يكون خطا من المؤلف ، انجر اليه كما انجـر غيره ، بالتداعي الموجود فى العقاب (بالضم) الراية التى شبهت بالعقاب ، الطائر المعروف من الكواسر ، هذه الراية للنبى عليه الصلاة والسلام

والنتيجة ان وقعة العقاب بكسر العين قطعا ، وليس بضمها ، كما شاع بين الكثيرين

وبقى ان نعود الى هذا الملك العظيم ، الـذى كان من اعاظم الموحدين ، بل كان سيكون اعظمهم على الاطلاق ، وكان العالم النصراني الاوربي يحسب لـه حسابا خطيرا ، فيتودد اليه صاحب صقلية النورمندى ويهاديه ، بهدايا فاخرة ، كانت فيها جوهرة عظيمة جدا رصع بها المصحف العثماني ، وكان ملوك اسبانيا ، وخصوصا الشمالية يحالفون ، مثل ملك نفرة وملـك برشلونة الذي غدر ، وخاس بعهده ، بل ان الملـك جون ، John ملك بريطانيا قد وجه اليه سفارة ، برئاسة اسقف كبير ، يستنجده على دوقات فرنسا ، اذ كان فى نظره ، كما فى الواقع ، اعظم ملك على ذلك العهـد

ولكن للأسف كانت موقعة العقـاب ستعترض سبيل هذه العظمة ، فتنزل بالموحدين كارثة ذهبـت بها عظمتهم ، وكانت اول ضربة قاضية على مملكـة الاسلام بالأندلس

لقد قتل في هذه المعركة عشرات الآلاف من المسلمين ، وتبالغ الرواية الاسبانية فتجعل عدد القتلى مائة الف ، ومن صلفهم المعهود ، انهم كانوا منذ بضع عشرة سنة ، يسجلون في الطرقات التي تسلكها السيارات ، مواقع الحوادث بها ، فيكتبون مثلا « هنا قتل اثنان » تنبيها للسائقين فكتبت الصحافة ، من باب السخرية ، أنه على هذا يمكننا ان نكتب ، عند المكان الذى وقعت به تلك الواقعة « هنا مات مائة الف » .... يريدون عدد الصرعى من بموقعة العقاب

والعجيب ان الملك الذى انتصر جيشه على المسلمين في هذه الموقعة ، كان نفس الملك الذى انهزم جيشه في موقعة « الأرك » على عهد يعقوب المنصور ، الذى انتصر عليه وسحق جيشه ، ففر ناجيا بنفسه الى طليطلة ، ولكنه آلى عليها ان لايصيب نعيما حتى يمحو العار ، عار الهزيمة التي منى بها جيشه الكثيف

واعجب منه ان الناصر ، بعد هذه الهزيمة ، يوجه رسالة الى الحضرة بمراكش، يعتذر فيها عما وقع في هذه الوقعة ، ويقول « واذا كانت وفقكم الله الجيوش موفورة ، والرايات منشورة ، والعزائم باقية، وكفايات الله واقية ، فلا تهنوا فانا لانهن ، وانتظروا الكرة على الكفار ، والامداد عليهم بجند الله الذين هم خير الانصار ، فما كان الله ليترك المومنين حتى ياخذ أعداءهم اخذا وبيلا « ولن يجعل الله للكافرين على المومنين سبيلا »

وعرفناكم لتكون عندكم هذه الوقيعة على وجهها ، والنازلة على كنهها ، ولتعلموا انه لم يدر للموحدين قتيل ولا اصيب منهم كثير ولا قليل ، والسلام

وكتب في أواخر صفر سنة تسع وستمائة

فماذا يعني بالموحدين الذين لم يصب منهم لا كثير ولا قليل ، ولا درى لهم قتيل ؟

اهم قوادهم العظام ، دون هذه الجيوش التي سقطت قتلى بعشرات الآلاف ؟

اننا لا ندرى ماذا تعني الرسالة ، بهؤلاء الناجين من الموحدين ، وفي الوقت نفسه لا نتهم رسالة الملك التي حبرها كاتبه النابه ، ابن عياش

تطوان **محمد بن تاويت**



« ياسلمان ، احب العرب لثلاث : نبيك عربي ، وقرآنك عربي ، ولسانك في الجنة عربي » . حديث نبوي كريم (1) ، يجسده قول الحسن الثاني في هاتين العبارتين الملهمتين : « ونحن نعلم كلنا ان هذه البيئة وهذه الامة لم تكن قط امة ولا دولة الا منذ ان دخلها الاسلام ومنذ ان استعملت العربية واللغة العربية كاداة للتعامل بينها وللاشفاع داخل حدودها (2) » . وقد « حافظ المغرب الأقصى على تراث العرب وعبقرية العرب ، وعلى شخصية العرب ، ورغم البعد والنوى كان اقرب الى اخوانه في الشرق من حبل الوريد ، وما يزال الى الآن يقدم تلك الخدمات ويقوم بتلك الواجبات متضامنا مع اخوانه واشقائه من البلدان العربية ، واملنا وطيد في ان يبقى المغرب وفي ان تدوم بلادنا على هذه السيرة الى ان يرث الله الارض ومن عليها (3) » ، واذا كانت بلادنا على هذه السيرة الحميدة ، فان المسيرة الخضراء أحمد ، لانها نبعت من قلب المغرب ، وانبجست من وطنية المغاربة ومن عزيمة رائدهم الذي ينظر بنور الله :

حلف الزمان لياتين بمثله
حنثت يمينك يازمان فكفر

ان من أحب الله احب رسوله العربي حبا صردا ، وآثره باعزازه ، ومن احب الرسول العربي احب العرب جميعا والمسلمين كافة لانتمائهم — ولو دينيا — الى الكتاب العربي المبين ، ومن أحبهم احب العربية ، واعتز بها ، وعني بها ، وصرف همته للاخذ بها الى مدارج الكمال ، ذلك لان اللغة هي شرايين حياة الامم ، فهي تجعل من الامة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانين ، وهي الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الاجسام وعالم الأذهان ، وهي تلازم الفرد في حياته وتمتد الى اعماق كيانه ، وتبلغ الى اخفى رغباته وخطراته . (4) والعرب خير أمة اخرجت للناس ، ولغتهم من اجمل لغات اهل الارض ، فضلها الله على جميع الالسنة ، كما فضل الكتاب المنزل بها على سائر الكتب ، ولقد قالوا ان الله علم آدم اسماء كل شيء ، وعلمه اللغات كلها ، فكان يتكلم بسبعمائة لغة

---

1) أورده الدكتور محمد فائز المط في كتابه « قبس من نور محمد صلى الله عليه وسلم » ص . 432 . نقلا عن البخاري .

2) — من خطاب القاه الحسن الثاني بمناسبة اجتماع لجنة اصلاح التعليم الاصيل يوم الاربعاء 10 يناير 1973 — 5 ذي الحجة 1392 .
انبعاث امة . ج 18 ص . 20

3) — المصدر السابق ج 10 . ص 84 . من خطاب ارتجل بمقر الجامعة العربية بالقاهرة ، يوم الجمعة 8 ذي القعدة 1384 — 12 مارس 1965 .

4) فلسفة اللغة العربية للدكتور عثمان أمين ص. 18

افضلها العربية ، كما نسبوا اليه شعرا بالعربية . يروى عن ابن عباس انه لما قتل قابيل هابيل كان آدم بمكة فاشتاك الشجر وتغيرت الاطعمة وحمضت الفواكه ، واغبرت الارض ، فقال آدم : قد حدث فى الارض حدث ، فاتى الهند فوجد قابيل قد قتل هابيل ، ولما رجع آدم سال قابيل عن اخيه فقال : ما كنت عليه وكيلا . فقال : بل قتلته ، ولذلك اسود جلدك . ومكث آدم بعد قتل هابيل مائة سنة لا يضحك ، ورثاه بشعر فقال :

تغيرت البلاد ومن عليها
فوجه الارض مغبر قبيح

تغير كل ذي طعم ولون
وقل بشاشة الوجه المليح (6)

واخرج ابن عساكر فى التاريخ ، عن ابن العباس ، أن آدم عليه السلام كانت لغته فى الجنة العربية ، فلما عصى سلبه العربية فتكلم بالسريانية ، فلما تاب رد الله عليه العربية (7) ، والعربية كلام اهل السماء ، فانه لما حشر الله الخلائق الى بابل بعث اليهم ريحا ، فاجتمعوا ينظرون لماذا حشروا له ، فنادى مناد : من جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره ، واقتصد البيت الحرام بوجهه فله كلام اهل السماء . فقام يعرب بن قحطان فقيل له : يا يعرب بن قحطان بن هود ؛ انت هو ؟ فكان اول من تكلم بالعربية المبينة (8) ، نعم انه بالعربية نزل كتاب الله المعجز الخالد الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، انه اعظم الكتب المنزلة اجمعه معانيها . وانه الجنسية اللغوية التي تجمع اطراف النسبة الى العربية فلا يزال اهله مستعربين به ، متميزين بهذه الجنسية حقيقة او حكما (9) ، وانه « تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » . (10)

ومن كان له انس بهذه اللغة الشريفة او تصرف فيها ، او مزاولة لها حمته السعادة بها ما يصار اليه من الشقوة بالبعد عنها ، والاقبال على تعلمها سمة من سمات المروءة ، وشرط من اشراط الشهامة ، وعنوان كرم الاخلاق وسيماؤها . اذ هي من صميم الدين وبها يتم تفهم كتاب المسلمين والوقوف على أسراره ، ومعرفتها فرض واجب ، وفهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهم الا بالعربية ، وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ، واللغة ليست مجرد صوت ، ولكنها صوت يجسد « اتجاها عقائديا » تختص به الامة التي تنطقها بالطبيعة .

ان العربية التى سميت باللغة الشاعرة ، واللغة الموسيقية ، واللغة الولود ، هي فى الحقيقة فى لسان كل الشعوب العربية التاريخية التى نزلت عليها

---

5) ــ لباب التأويل فى معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد المعروف بالخازن ج.4.ص.208 ، وبهامشه مدارك التنزيل وحقائق التأويل لعبد الله بن احمد بن محمود النسفي .
وقد اثار القول بافضلية العربية كثيرا من الحفائظ ، ومن ذلك التعليق الذي نقراه فى ص 2 من مقدمة الادب للزمخشرى ، القسم الاول « انتشارات دانشكاه تهران 848 » يقول المعلق ردا على الزمخشرى الذي يقول مفتتحا كتابه المذكور : « الحمد لله الذي فضل على جميع الالسنة لسان العرب ، كما فضل الكتاب المنزل به على سائر الكتب » :
« ان هذا الا بهتان عظيم : تعالى الله عن ذلك ؟ فان الله لم يفضل اية لغة على اخرى ، فقد اختار الله رسوله من العرب وانزل كتابه بلغة العرب ، وهم ــ اذ ذاك ــ امة منحطة تعيش فى صحراء قاحلة تكتنفها تلال البعر وكثبان الرمال ، بلغت من الامية الوحشية شأوا عظيما .
أمة قد خيمت على عقولها الساذجة عناكب الخرافات ، كانوا يدسون البنات فى التراب دسا ويعبدون ما ينحتون ، وما اراد الله بهذا الا اظهارا لعظمته ، واكبارا لجلالته ، حيث اختار احسن رجل واحكم كتاب من اخس قوم واسوء لغة 110 هـ .
6) ــ المصدر السابق ج 1 ص . 450
7) ــ المزهر للحافظ جلال الدين السيوطي ج 1 ص 30 .
8) ــ المصدر السابق ج 1 ص 32
9) ــ نحو وعي لغوي للدكتور مازن المبارك ص . 20
10) ــ سورة فصلت ، الآية الاولى والثانية .

الكتب المقدسة ، « لغة دينية » لقد نزلت التوراة ونزل الانجيل بلهجتين من لهجاتها ... ونزل القرآن بها في ذروة تمامها ... انها لغة دينية — اردنا او لم نرد — ومعنى هذا ان التعبير عن الله هو رسالتها الاساسية ، وان الدعوة الانسانية والاجتماعية التي تميز المؤمنين ، هي مضمون وجودها وحركتها ، لذلك فان هذه اللغة لا تزال تستعصي على اكراهها لغاية بعيدة عن غايتها ، وفكرة مضادة لفكرتها ، انها لغة ايمان ، لغة حياة بالنظر الا بعد لمفهوم الحياة ، لغة حاضنة لمبادرات الشعب الذي يتكلم بها في كل مجالات شرف الانسان ، وحرية الانسان ونقاء الانسان ، ومجد الانسان ، وايمان الانسان ، (11) والدين والعلم لا يتناقضان ، ولن يبلغ الكمال عالم يحيا بغير دين ، وان حاول ذلك فقد جعل الفناء قرينا لدنياه ، والاضمحلال حتما لازما لها ، وهوت به الريح في مكان سحيق ، ان الايمان حقيقة يدعمها العقل ، ويزكيها العلم ، ولا يعيها الا الصدور الامينة والاحلام الرزينة ،

وقد مكن الله للغة العربية مالم يمكن لاي لغة اخرى من لغات بني الانسان ، فجعل منها لغة الدين والفكر والعلم في بقاع من هذه الارض واسعة شاسعة ، وخلق منها وشيجة القربى في وطن واسع الرقعة يمتد في ملتقى ثلاث قارات ، متصلا متواصلا ، لا تقوم بينه حواجز ، ولا يفصل بين اجزائه طارىء دخيل ذو قيمة لولا الدويلة الدخيلة التي فرضها الاستعمار في فلسطين .

وقد صارت بفضل كتاب الله ورسالة الاسلام لغة انسانية ، فلم تعد مثل سائر اللغات لغة قوم تعز اذا عزوا وتنهار اذ انهاروا ، كالذى حدث لليونانية واللاتينية والعبرية . اما العربية . فقد اصبحت بعد ان نزل بها القرآن لغة المسلمين في بلادها وفي بلاد العالم الاسلامي ، بها يتعبدون ، وبلسانها يقرأون كتاب الله مجمع شريعتهم ومناط زلفاهم الى خالقهم . (12)

والدين بمفهومه الانساني هو مع اللغة اساس من مقومات الامة العربية ، اي هو مقوم بتفسيره الايجابي للحياة بعيدا عن مزالق وتيارات التعصب الطائفي ، والجدل المذهبي الذى لا يعمل على اثارتها وتاجيج عداوتها الا الاستعماريون اعداء الشعوب (13) .

ولقد كان هذا — في الحق — اعظم ما اصابته اللغة العربية في عصور حياتها التي تمتد الى قرون موغلة في القدم ، ثم لم يكفها ان اصبحت لغة انسانية ينطق بها في اعتزاز وتقديس ملايين من بني الانسان، يعدون ذلك قضاء لفرض من فروض الدين ، بل لقد وصلها ذلك بلغات اولئك الاقوام فاثرت فيها وتأثرت بها ، حتى اصهرت الى كثير من لغات آسيا وافريقية ، فانشات بذلك اسرة من اسر اللغات جديدة في طبيعتها وفي تكوينها ، تلك هي اسرة اللغات الاسلامية (14) .

ولا احسب امرأ يفهم العربية ويتذوقها ، ويدرك معاني الفاظها ، ويتملى بجمال عبارتها ، ويتتبع ما يجرى بها على اسلات الاقلام من مختلف الاساليب ، لا احسبه يلحد في آيات الله او يستكبر عنها او يستهزىء بها ، او يكفر بربه ، او يجدف عليه ، الا اذا كان معتوها اهبل ، فاقد العقل والتمييز مبلد الاحساس ، مقحما نفسه حاشرا لها في زمرة ضعاف الاحلام والمحرمين : « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (15) ، فالقرآن عربي بالحق نزل وبلسان العرب نزل ، اودعه الله من العلوم النافعة ، والبراهين القاطعة ، غاية الحكمة وفصل الخطاب ، وخصه باللطائف الخفية ، والخصائص العلية ، والدلائل الجليلة ، والاسرار الربانية ، وجعله في الطبقة العليا من البيان ، وأعجز به الثقلين ، واعترف علماء ارباب اللسان بما تضمنه من الفصاحة والبراعة والبلاغة والاعراب والاغراب ، وجعله قولا فصلا ليس بالهزل ، وحكما عدلا ليس بالجائر ، وآية بادية ومعجزة باقية .

---

11) — الاسلام وقضايانا المعاصرة ، لاحمد موسى سالم . ص . 97
12) — العربي عدد 80 ، يوليو 1965 ص . 47 — 48
13) — الاسلام وقضايانا المعاصرة لاحمد موسى سالم ص . 98
14) العربي عدد 80 ، يوليو 1965 ص . 47 .
15) — سورة الحشر ، الآية 21 .

وان اكثر من ضل من اهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى اليها ، فانما استهواه واستخف حلمه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي خوطب الكافة بها ، وعرضت عليها الجنة والنار من حواشيها واحنائها ، فلم يدركوا مرامي تشبيهاتها ، ولا مقاصد مجازاتها ، ، واعوزهم فهم كناياتها واستعاراتها ، فافضى بهم ذلك الى اعتقاد التشبيه لله تعالى بخلقه منها ، وجاز عليهم بها وعنها . (16)

والانسان كلما تعمق في دراسة العربية ومدارستها زاد ايمانه بالله ، واناط به ثقته ، واخلد الى رحابه ، وانس بناجيته ، وفوض اليه امره ، وبائته سره وباطنه ، واستنام اليه في الشهادة والغيب ، ولو لم يكن في تعلم العربية ومعرفة مبانيها ، وتدبر معانيها ، والبحث في حقائها ومجازاتها ، الا ثقة القلب ، وراحة الضمير ، وجلاء الهموم ، وقوة اليقين في معرفة اعجاز كتاب الله المبين ، وزيادة التبصر في اثبات النبوة التي هي عمدة الايمان وذروة سنامه ، لكفى بالعربية فضلا يحسن اثره ، ويبقى على مر ايام ذكره ، ويطيب في الدارين ثمره ، ولذلك قال عمر بن الخطاب « تعلموا العربية فانها من دينكم » لان بين العقل واللسان أواصر روحية وعقلية لا ينكرها الا من يجهل ان اللسان ترجمان القلب ، وان القلم رسول العقل .

ونحن نعلم ان الاصل في اسلام عمر كان هو القرآن ، وذلك انه بلغه ان أخته دخلت في الدين الجديد ، فغضب لذلك اشد الغضب ، وزارها في بيتها ليلومها على ما فعلت بترك دين آبائها الاولين، فلما جلس اليها ، واخذ في تأنيبها اسرعت فناولته صحيفة فيها شيء من القرآن ، فلما قراها ملكت عليه شغاف قلبه فعرض اسلامه على الرسول وصدق برسالته لتوه ، فالحمد لله الذي جعل معجزات هذه الامة عقلية لفرط ذكائهم ، وكمال أفهامهم ، وفضلهم على من تقدمهم ، اذ معجزاتهم حسية لبلادتهم ، وقلة بصيرتهم ، وانما الشريعة الاسلامية لما كانت باقية على صفحات الدهر الى يوم القيامة ، خصها الله بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر ، فاظهر دينه وخرق العادة في اسلوب كماله وبلاغته وحلاوته ، حتى التذ العرب بسماعه الذ من اهل اللهو في لهوهم .

وانما يعرف فضل القرآن من كثر نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الاساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات ، فانه ليس في جميع الامم امة أوتيت من العارضة والبيان ، واتساع المجال ، ما اوتيته العرب خصيصى من الله لما رهصه في الرسول ، وأراده من اقامة الدليل على نبوته بالكتاب ، فجعله علمه ، كما جعل علم كل نبي من المرسلين من اشبه امور بما في زمانه المبعوث فيه (17) .

وليس في الارض كلام هو امتع ولا آنق ، ولا الذ في الاسماع ، ولا اشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا افتق للسان ، وأجود تقويما للبيان ، من طول استماع حديث الاعراب العقلاء الفصحاء ، والعلماء البلغاء ... وسخيف الالفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وقد يحتاج الى السخيف في بعض المواضع ، وربما امتع بأكثر من امتاع الجزل الفخم من الالفاظ ، والشريف الكريم من المعاني ، كما ان النادرة الباردة جدا قد تكون اطيب من النادرة الحارة جدا ، وانما الكرب الذي على القلوب ، ويأخذ بالانفاس ، النادرة التي لا هي حارة ولا باردة ، وكذلك الشعر الوسط ، والغناء الوسط ، وانما الشأن في الحار جدا والبارد جدا ، (18) والعرب انطق ، ولغتها اوسع ، ولفظها ادل ، واقسام تأليف كلامها اكثر ، والامثال التي ضربت فيها أجود واسير ، والبديهة مقصورة على العرب ، والارتجال والاقتضاب

---

16) ــ الخصائص لابي الفتح عثمان بن جني ج . 3 ص . 245 بتحقيق محمد علي النجار .

17) ــ تأويل مشكل القرآن لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ص. 10. بشرح وتحقيق السيد احمد صقر .

18) ــ البيان والتبيين لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ج 1 ص . 145 بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون .

خاص فيها ، وهي تقطع الالحان الموزونة على الاشعار الموزونة ، فتضع موزونا على موزون (19) .

وقد يرتجل الخطيب من العرب كلاما فى نكاح او حمالة ، (20) او تحضيض أو صلح ، أو ما اشبه ذلك ، ولا يأتي به من واد واحد ، بل يفتن فيختصر تارة ارادة التخفيف ، ويطيل تارة ارادة الافهام ، ويكرر تارة ارادة التوكيد ، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على اكثر السامعين ، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الاعجميين ، ويشير الى الشيء ويكني عن الشيء ، وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال ، وقدر الحفل ، وكثرة الحشد وجلال المقام .

ثم لا يأتي بالكلام كله مهذبا كل التهذيب ، ومصفى كل التصفية ، بل تجده يمزج ويشوب ليدل بالناقص على الوافر ، وبالغث على السمين ، ولو جعله كله بحرا واحدا لبخسه بهاءه وسلبه ماءه ، ومثل ذلك الشهاب من القبس تبرزه للشعاع والكوكبان يقترنان فينقص النوران ، والسخاب (21) ينظم بالياقوت والمرجان والعقيق والعقيان ، ولا يجل كله جنسا واحدا من الرفيع الثمين ، ولا النفيس المصون (22) .

ونحن باستقرائنا لكثير من نصوص الادب العربي ، نجده يطفح بالمشاعر اللطيفة والعواطف النبيلة ، فى قليل من اللفظ مع كثير من المعاني ، انظر مثلا قولهم فى الجار وما يتطلبه من الاعتناء وحفظ الذمم ، والابتعاد عن كل ما يتأذى منه :

اني حمدت بني شيبان اذ خمدت
نيران قومي وفيهم شبت النار

ومن تكرمهم فى المحل انهم
لا يعلم الجار فيهم انه جار

وقول شاعرهم فى تمجيد الجوار وحفظ عهده والحث على مصافاة الجار ايضا :

اذا كان لي شيئان يا أم مالك
فان لجاري منهما ما تخيرا

وقول الآخر فى حب المساعدة والصفح ، والاحتمال وايثار الغير ، وتقدير الصبر والبعد عن الانانية :

وما أنا بالطاوي حقيبة رحلها
لا بعثها خفا واترك صاحبي

اذا كنت ربا للقلوص فلا تدع
رفيقك يمشي خلفها غير راكب

انخها فاردفه فان حملتكما
فذاك وان كان العقاب فعاقب (23)

ومن اسمى العواطف الانسانية وحسن الاخاء ورقة العاطفة ، وحسن العزاء قول متمم بن نويرة يرثي أخاه :

لقد لا مني عند القبور على البكا
رفيقي لتدراف الدموع السوافك

فقال أتبكي كل قبر رأيته
لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك

فقلت له ان الشجا يبعث الشجا
فدعني فهذا كله قبر مالك

---

19) ــ نفس المصدر ج . 1 ص 384 ــ 385 .
20) ــ الحمالة بفتح الحاء : ما يحتمله الانسان عن غيره من دية او غرامة ، مثل ان يقع حرب بين فريقين تسفك فيها الدماء ، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى ليصلح ذات البين .
21) ــ السخاب عند العرب : كل قلادة كانت ذات جواهر او لم تكن ، وقد تكون قلادة من سك وقرنفل ومحلب بلا جوهر ، والسك مادة من الطيب تطبخ مع المسك وتجفف فى هيئة حبوب تثقب وتتخذ منه القلائد ، وهي طيبة الريح وكلما قدم عهدها زادت طيبا ، يقول ابن زيدون :

وردت معين الطبع اذ ذيد دونه ... الناس لهم فى حجرتيه لؤاب
وانجدني علم توالت فنونه ... كما يتوالى فى النظام سخاب

22) ــ تأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ص 10 ــ 11 بشرح وتحقيق السيد احمد صقر .
23) ــ المعاقبة هنا : المناوبة على ركوب الراحلة .

فالعربية كانت تعبر عن حاجات العرب ، وما تجود به قرائحهم ، وما يدور بخلدهم ويضطرب فى مخيلتهم او يتلجلج فى صدورهم ، فما احسوا عجزا فى « ميزانية اللغة » وما نضب معين الكلم النثر فى الاستجابة الى كل ما أراده من فنون القول ، وقد اتسعت ابواب شعرهم ، وكثرت اغراضه وانفسحت آفاقه ، وطرقوا به كل باب ، وصالوا وجالوا فى كل ميدان من ميادين الكلمة ، والعبارة الموحية ، وتصرفوا فى المعاني ، واحسنوا سبك الالفاظ ، وارسلوا فكرهم فى رياض العربية الغناء ، فجاسوا خلال خمائلها وتنقلوا فيها بين ايكها وغصونها ، وانسوا بما يتجاوب فيها من لحن الطير ونجوى النسيم .

غير ان الكلمة العربية تلتزم التقيد بمقتضيات طبيعتها الخاصة ، وتستمد سلامتها من صيغة ليس لتداولها بين الناس اية صبغة شرعية يضفيها عليها ، مثل الكلمة العربية كمثل الحياة التي هي امتداد لها ، فكما ان انتشار المرض وانتقاله عبر الاجيال لا يغيران من طبيعته كحالة ميل ، فكذلك الكلمة الموضوعة وضعا شاذا فى اللغة العربية ، لا يقوى الزمان على توكيد سلامتها ، حتى لقد ترجع صورة العربي الى المثل الاعلى ، الى نزوع كلماته الى تخطى الواقع المتعارف عليه نحو مثل تستكمل به شروط سلامتها ، فهل من تفسير لظهور مئة واربعة وعشرين الفا من الانبياء بجزيرة العرب غير تفسير الاتفاق فى الصبوة نحو المثل الاعلى بين الكلمة العربية وصاحبها ؟ وذلك ما يجعل الاختلاف فى التطور بين لغتنا وبين لغات غيرنا من الاقوام . فبينما كانت الكلمة عند غيرنا تتطور من جيل الى جيل حتى تصبح فى نهاية الامر مختلفة المعالم عن نشأتها ، كانت الكلمة العربية تبقى على ما هي عليه لا يؤثر فيها الزمان وكل ما كان يحدث هو ان اجدادنا اذا ما انتقلوا من مرحلة تاريخية الى اخرى كانوا يسقطون من التداول الكلمات المعبرة عن الاوضاع المهملة ، وينشؤون فى حدود نظام اللغة ما يعنى منها بالتعبير عن حاجات المرحلة التاريخية المعاصرة ، ولو قارنا بين قصيدة من الادب الجاهلي كقصيدة عبد المطلب جد الرسول مثلا ، وبين قصيدة اخرى من الادب الفرنسي فى عهد شارلمان المتاخر خمسمائة سنة عن عبد المطلب ، لوجدنا القصيدة الاولى تختلف من حيث السهولة على افهام الاجيال منذ وضعت حتى الآن ، ولوجدنا القصيدة الثانية تعز على افهام الفرنسيين اليوم الا الذين اختصوا منهم باللغة الرومانية . (24)

---

24) ـ العبقرية العربية فى لسانها لزكي الارسوزي ، المجلد الاول من المؤلفات الكاملة ص ، 50 .

هذا وقد استمعت ـ وبحثي هذا قد تمت كتابته ـ الى مقابلة اجراها القسم العربي بهيئة الاذاعة البريطانية مع الشاعر نزار قباني ، وذلك مساء يوم الاحد 16 نوفمبر 1975 فى برنامج « ساعة الاحد » واجرى المقابلة معه السيد الطيب صالح ، وكان مما قال نزار :

ان الشعر العربي القديم الذى استمر من العصر الجاهلي الى مطلع القرن العشرين كان شعرا صعبا بالفعل لانه كان يعتمد على التراكيب اللغوية وعلى النقش والزخرفة ، وانه فى عصور الانحطاط كانت القصائد عبارة عن قصيدة واحدة منسوخة على ورق كربون لان الشاعر لم يكن يبذل اي جهد ليفهم عصره ، او ليغوص فى اعماق عصره ، او ليفهم قضية الانسان ، والعملية كلها كانت بالنسبة للشعر العربي خلال الف سنة الاخيرة عبارة عن نوع من اكتشاف ماهو مكتشف ، كانت عبارة عن كيمياء لغوية تعاد .

ونزار يرى ان الشعر ليس هو اللغة والقاموس لا يستطيع ان ينظم قصيدة وانما الانسان هو الذى ينظم القصيدة هذه ، لذلك فان القاموس فى نظره سقط بكل محدود ياته القديمة ، سقط كمجموعة من الالفاظ والتراكيب والقوانين الصارمة التى لا تحتمل المخالفة ، فهو يجب ان يكون مع الحياة لا مع النصوص الميتة .

ولي على ما يقوله نزار ردود :

1 ـ ان الشعر العربي الذي استمر من العصر الجاهلي حتى مطلع القرن العشرين لم يكن صعبا كله ، وبذلك فلا يجوز التعميم ! ان شعرا كشعر عنترة وطرفة وابى نواس ، والبحتري والبارودي . وغيرهم كثيرون من شعراء العصور العربية الزاهية لكفيل بدحض هذا الزعم ، ان اغلب شعرنا يناسب رقراقا سلسا جميل الرونق رائع البهاء موحي الفكرة ، فهو لم يكن شرا ـ

والسبب في ذلك هو ان اللغة العربية اصيلة في نفسها ، وتؤصل حتى الاجنبي من الكلمات التي تدخلها ، وتصير رشدة غير ضاربة فيها بعرق اشب .
ان العربية لغة اشتقاق ونحت وتعريب ، تخضع ما ليس منها اصلا اذا ما قبلته لعوامل الجرس والايقاع ، ان بعض اللغات روائع من العبقرية والمنطق المتسق ومن التشابك في الوقت نفسه . وانه لمن المستحيل ان نفهم كيف نما هذا البناء المتشابك والجميل لهذه اللغات ، ذلك لان نمو اللغات خارج عن نطاق الشعر الى حد بعيد ؛ ان اللغات الطبيعية كانت موجودة قبل ان يفكر الانسان بالنحو او باللغة بزمن طويل ، وقابلية اللغة العربية للتزاوج مع غيرها من اللغات هو الذي جعل منها لغة حية متطورة تطورا دائبا أعان العرب على عقل وحفظ لغة آبائهم واجدادهم . يقول ارنست رينان :

ان من اغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة باديء ذي بدء ، فبدأت فجأة في غاية الكمال سلسلة اي سلاسة ، غنية اي غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ يومنا هذا اي تعديل مهم . فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لاول امرها تامة مستحكمة ولم يمض على فتح الاندلس اكثر من خمسين سنة

ـ كله ولا يمكن التعميم مهما بلغ المرء من العلم او ادرك من الاستقصاء لان الادب والشعر فرع عنه شيء ذاتي تختلف فيه اذواق الناس وتتعدد مشاربهم .

2 ـ ان الشعر العربي لم يكن كله نقوشا وزخارف ، وانما كان ذلك في فترة معينة وعند شعراء معينين .

3 ـ كون الشعر العربي في عصور الانحطاط عبارة عن قصيدة واحدة منسوخة على ورق كربون شي ، طبيعي ، فالشعر صورة للعصر الذي يقال فيه وللناس الذين يقولونه ، يزدهر بازدهارهم وينحط بانحطاطهم ، ان الشعر بالنسبة لعصوره كالاحذية بالنسبة للناس الذين يلبسونها ، كل على حسب قياس قدميه . ونحن لا تلبس الطفل حذاء أبيه ، ولو فعلنا ذلك لظلمناهما جميعا ، تلك هي سنة الحياة وذلك نوع من الحتمية التاريخية ، وحتى تغيير الجلد وعدم الايمان بوجود اشياء مطلقة امر ان خاضعان للتجدد والحدوث وتنافي الثبوت .

4 ـ كون شعر يقال خلال الف سنة عبارة عن اكتشاف ما هو مكتشف كلام تتقطر المغالاة من جنباته ، فلابد للشاعر ان ياتي بشيء جديد ولو قليلا مهما قلد وجمدت اوتار احساسه ، وبذلك فلا يعقل ان يكون شعر قيل في مدة طويلة كهذه شعرا يبديء ويعيد فيما سبق اكتشافه ونحن نعلم ان عنترة قال : « هل غادر الشعراء من متردم » ولم يتركوا للشعراء بعدهم ما يقولون ، الا انهم قالوا وأتوا بكل جديد سمينا مرة وغثا أخرى .

5 ـ حقا ان القاموس لا يستطيع أن ينظم قصيدة ، لان القاموس من صنع الانسان ، فهو وعاء للغة وسجل لكلماته ، وهذه الكلمات ساكنة صامتة بالفعل تصير بالقوة الفاظا مسموعة ومكتوبة ومقروءة في سياق الكلام ، فالقاموس معين صامت ساكن هاديء مستعمل بالقوة لا بالفعل ، وهو حال اللغة ايضا ، تحيا باستعمالها وتموت بتركها وهجرها او استبدالها بغيرها .

6 ـ سقوط القاموس بكل محدودياته القديمة كمجموعة الالفاظ والتراكيب والقوانين الصارمة التي لا تحتمل المخالفة ، ووجوب كون الشاعر مع الحياة لا مع النصوص الميتة اسقاط للحياة نفسها . ذلك أن القاموس صورة للامة ومعرض لحضارتها ومجدها ، ان قواميسنا العربية لم تبلغ شاو نديداتها الغربية للبون الشاسع بين الامتين ! كان اناتول فرانس يقرا القواميس الفرنسية قراءة دائبة كما يقرا اي كتاب ، وعبقرية فكتور هيجور ترجع في بعض مظاهرها الى معرفته الكبيرة بمفردات اللغة الفرنسية . ان العبقرية الشعرية تبرز في مجال الافكار والموضوعات ، وبذلك يحيا القاموس ويستنشق نسمات الحياة وتدب الحركة في اوصاله ، ان ما كان حيا بالامس يصير الى موت غدا ، وما هو حي في يومنا ينطبق عليه ما انطبق على سابقه ، واحياء الرمة يكون ببث الحياة فيها ، ولله در ابي نواس اذ يقول :

ان مع اليوم ـ فاعلمن ـ غدا	فانظر بماذا ينقضي مجيء غده
ما ارتد طرف امريء بلذته	الا وشيء يموت في جسده

حتى اضطر رجال الكنيسة ان يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى ، ومن اغرب المدهشات ان تثبت تلك اللغة القومية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى عند امة من الرحل ، تلك اللغة التى فاقت اخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الامم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حلل الكمال الى درجة انها لم تتغير اي تغيير يذكر ، حتى انه لم يعرف لها كل اطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة . (25)

ان خزائن المفردات فى اللغة العربية غنية جدا ويمكن لتلك المفردات ان تزداد بلا نهاية ، ذلك ان الاشتقاق المتشابك والانيق يسهل ايجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج اليه كل انسان، على نظام معين ، حتى ان القارىء اذا مرت به صيغة جديدة فانه يفهم معناها من القرينة ، وان دارسي العبرية ليستطيعون ان يفهموا هذه الخاصة فى اللغة العربية كدارسي اللغة العربية نفسها ، ولكن الكلمات العبرية اقل طواعية للتصريف من الكلمات العربية ، وهكذا يبدو لنا كانما هذه اللغة التي كان يتكلمها البدو والاجلاف قبل القرن السابع للميلاد ، قد كان مكتوبا لها ان تصبح اداة لتبليغ الدين ونشر العلم فى العالم . (26)

ان مقام الكلمة من المعنى الذي نشأت عنه كمقام البدن من النفس ، او هي كالخيال من صورته ، تحمل طابعه وتكشف عنه ، واذا كانت النفس تتضح بتجاوب تجلياتها مع نمو بدنها ، فالمعنى ايضا ، يتضح باشتقاق الصورة الحسية الى كلمات بليغة ومتلازمة ، فتلازمها يكشف عن حدس الامة ، فيحوله فى نفس الفرد الى بصيرة فى بنيان الوجود ، وبلاغتها تعين قابليتها الفنية ، ان الكلمة العربية فى اسرتها كاللحن فى الانشودة ، (27) والنشا فى الريح الطيبة ، والبلبل فى الخميلة ، والمسك فى رق الغزال ، والطرب فى النغمة الموسيقية ، كل اولئك يتآلف ولا يتنافر ، ويجتمع ولا يتزايل ، ويترابط ولا ينفك له ارتباط .

ونظرة الانسان الى الكون انما تحكم ضبطها اللغة التي يتكلمها ، اذا اللغة تلازم الفرد فى شتى مراحل حياته ، وتمتد الى اعماق كيانه ، وتبلغ الى اخفى رغباته وخطراته ، وتصل بين عالم جسمه وعالم ذهنه . « والاشياء فى التحقق والثبوت على مراتب اربع : الاولى منها تحققها فى الذهن وتصورها ، وهذه الرتبة هي الاصل وعليها تترتب الوجودات الاخر ، لان الشيء اذا لم يكن له تصور فى الذهن وتحقق ، فانه لا يمكن وجوده فى الخارج بحال ، ثم ان بعض التصورات الذهنية قد يستحيل وجودها فى الخارج ، كما تقول فى القديم تعالى ، والقدرة القديمة والحياة القديمة ، فان هذه وان امكن تصورها فى الذهن ، لكن لا حقيقة لها فى الخارج بالبرهان العقلي » . (28)

على ان الحواس ، لا ينكر فضلها فى ادراك بعض الكائنات ، الذى ينشأ عنه صور اخرى غير محسوسة فعلا ، كالدخان اذا بصر المرء به من جنب فانه يولد فى ذهن مبصره صورة النار ، وكاحمرار الوجه الفجائي فانه يفهم رائيه الخجل الحاصل نتيجة لانكسار فى القلب ، وشعور بالخزي ، وانقباض فى النفس ما كان ليلمسه الرائي او يحسه قبل الاحمرار، وهذا ما يسمى بالدلالة الطبيعية ولا تتحقق الا فى تغير المظهر الفزيائي للاشياء .

ان صورة جسمنا التي يعطيها كلامنا المنطوق دائما تحفر وتنحت فى اقل تفاصيلها تحت مداعباتنا الصوتية ، لذلك يقول بول فاليرى : Paul VALERY « اعمق ما فى الانسان هو جلده » ، فجسم الانسان هو اداة الكلام ، والكلام الانساني هو الذى يجعل جسمه يرن ، جسم الانسان هو الاداة التى تستعملها الفكرة الانسانية للكلام . (29)

---

25) — اضواء على الفكر العربي الاسلامى لانور الجندي ص . 52 — 53 .

26) — الثقافة العربية فى رعاية الشرق الاوسط تاليف الدكتور جورج سارطون ، نقله الى العربية الدكتور عمر فروخ . ص 55

27) — زكي الارسوزي ، العبقرية العربية فى لسانها ص 107 ، المجلد الاول من المؤلفات الكاملة .

28) — فلسفة اللغة العربية للدكتور عثمان امين .

29) — L'Oreille et le Langage, par Alfred Tomatis PP. 179 — 180 —

والمعاني صور لحاجات النفس ، تحيا بالتعبير الذي يقربها من الفهم ، ويخرجها من ظلمات الغموض ، ويخلص بها الى نور البيان ، ويجلو عنها سدفة الشك ويحسر عنها ظلال الابهام ، وغيوم اللبس ، ونظم الكلم هو باقتفاء آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيبها في النفس . قال بعض جهابذة الالفاظ ونقاد المعاني : المعاني القائمة في صدور الناس ، المتصورة في أذهانهم والمتخلجة في نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة في معنى معدومة . لا يعرف الانسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة اخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره ، وعلى مالا يبلغه من حاجات نفسه الا بغيره ، وانما يحيى تلك المعاني ذكرهم لها ، واخبارهم عنها ، واستعمالهم اياها ، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم . وتجليها للعقل ، وتجعل الخفي منها ظاهرا ، والغائب شاهدا ، والبعيد قريبا ، وهي التي تلخص الملتبس ، وتحل المنعقد ، وتجعل المهمل مقيدا ، والمقيد مطلقا ، والمجهول معروفا ، والوحشي مألوفا ، والغفل موسوما ، والموسوم معلوما ، وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الاشارة ، وحسن الاختصار ، ودقة المدخل ، يكون اظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة اوضح وافصح ، وكانت الاشارة ابين وانور ، كان انفع وانجع ، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه ، ويدعو اليه ويحث عليه ، بذلك نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت اصناف العجم . (30)

والنظم الذي يتواصفه البلغاء ، وتتفاضل مراتب البلاغة من اجله صنعة يستعان عليها بالفكرة لا محالة ، واذا كانت مما يستعان عليه بالفكرة ويستخرج بالروية فينبغي ان ينظر في الفكر بماذا تلبس : أبالمعاني ام بالالفاظ ؟ فأي شيء وجدته الذي تلبس به فكرك من بين المعاني والالفاظ ، فهو الذي تحدث فيه صنعتك ، وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك ، فمحال ان تفكر في شيء وانت لا تصنع فيه شيئا ، وانما تصنع في غيره ، لو جاز ذلك لجاز ان يفكر البناء في الغزل ليجعل فكره فيه وصلة الى أن يصنع من الآجر ، وهو من الاحالة المفرطة . (31)

والعربية لغة مرهفة ، طيبة المذاق ، عذبة المشرب ، أنيقة الوشي مهذبة الطباع ، بليغة العبارة مليحة النكتة ، لطيفة الكنايات ، بديعة والاستعارات ، حلوة المجاز ، ساحرة الحقيقة ، ولا يقف على ذلك كله الا الاريب الحاذق ، واللبيب الذائق ، والفكر الثاقب ، والبصيرة النفاذة واعلم انه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع ، ولا يجد لديه قبولا حتى يكون من اهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومىء اليه من الحسن واللطف اصلا ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الاريحية تارة ويعرى منها اخرى ، وحتى اذا اعجبته عجب ، واذا نبهته لموضع المزية انتبه ، فاما من كانت الحالان والوجهان عنده أبدا على سواء ، وكان لا يتفقد من امر النظم الا الصحة المطلقة ، والا اعرابا ظاهرا ، فما اقل ما يجدي الكلام معه ، فليكن من هذه صفته عندك بمنزلة من عدم الاحساس بوزن الشعر ، والذوق الذي يقيمه به ، والطبع الذي يميز صحيحه من مكسوره ، ومزاحفه من سالمه ، وما خرج من البحر مما لم يخرج منه ، في أنك لا تتصدى له ولا تتكلف تعريفه ، لعلمك انه قد عدم الاداة التي معها تعرف والحاسة التي بها تجد ، فليكن قد حك في زند وار ، والحك في عود انت تطمع منه في نار (32).

وتتأثر العربية بكل ما يدخل كلماتها من تغيير ، وما يعتري اساليبها من تقديم او تاخير ، وتجعل للاعراب قسطا وافرا في المعنى الوظيفي ، انظر الى قوله تعالى : « وتحسبهم ايقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم (33) رعبا » . فعبر سبحانه باسم الفاعل

---

30) — البيان والتبيين لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ج 1 ص 75 بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون .

31) — دلائل الاعجاز ، تاليف الامام عبد القاهر الجرجاني . ص 36

32) — نفس المصدر ص . 192 .

33) — سورة الكهف ، الآية 18

« باسط » لانه أشعر بثبوت الصفة ، ولو قيل : « يبسط » لم يؤد الغرض ، لانه يؤذن بمزاولة الكلب البسط ، وانه يتجدد له شيئا بعد شيء ، فالاسم يدل على الثبوت والاستمرار ، والفعل يدل على التجدد والحدوث ، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر ، ومثله قوله سبحانه : يا ايها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض لا اله الا هو فانى تؤفكون » . (34) فعبر سبحانه بالرزق فى صورة المضارع ، مع ان العامل الذي يفيده ماض ، ولو قيل « رازقكم على صورة اسم الفاعل لفات ما افاده الفعل من تجدد الرزق شيئا بعد شيء ، وقريب من هذا قوله تعالى : « وجاؤوا اباهم عشاء يبكون » فافاد صورة ماهم عليه وقت المجيء ، وانهم آخذون في البكاء يجددونه شيئا بعد شيء وهو المسمى حكاية الحال الماضية وهذا هو سر الاعراض عن اسم الفاعل والمفعول . ولما كان الاعتناء باخراج الحي من الميت أشد واقوى اتى سبحانه بالفعل المضارع ليدل على التجدد والحدوث في قوله تبارك اسمه : « ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فانى تؤفكون » . (35) فعبر « بفالق الحب والنوى ومخرج الميت من الحي » باسم الفاعل لما في ذلك من الثبوت والدوام ، وعبر بيخرج الحي من الميت » باستعمال المضارع في ذلك من التجدد والمعاودة . (36)

ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن قوم نوح : « فكذبوه فانجيناه والذين معه في الفلك واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوما عمين (37) . » فعدل سبحانه عن عامين الى عمين (38) ليدل على ان عماهم ثابت قار لايبرح ولا ينزاح ، والصفة المشبهة تؤدي معنى الثبوت حين يوصف بها ، فقد عميت قلوبهم عن معرفة الله ، وغشيت ابصارهم عن الحق والايمان ، وشل حدسهم عن الفرق والعذاب النازل بهم ، والرجل يكون عميا في البصيرة وعاميا في البصر ، قال زهير :

واعلم مافى اليوم والامس قبله
ولكنني عن علم مافى غد عم

ويعدل سبحانه عن ضيق الى ضائق في قوله خطابا للرسول حينما سأله كفار قريش ان يأتي بقرآن ليس فيه سب لآلهتهم : « فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك ان يقولوا لولا نزل عليه كنز او جاء معه ملك انما انت نذير والله على كل شيء وكيل (39)» فهم كانوا يسخرون من القرآن ويستهزئون به ويضحكون منه ويتهاونون به ، وكان رسول الله يضيق صدره لذلك ، فامره سبحانه ان يبلغ اليهم ما يوحى اليه ولا يلتفت الى استهزائهم وغرورهم فان ضرر الاحتمال اهون من كتم شيء من الوحي ، والانسان اذا علم ان كل واحد من طرفي الفعل والترك مشتمل على ضرر عظيم ثم علم ان الضرر في باب الترك أعظم سهل عليه الاقدام على الفعل ، فضائق بتارك اشكل وانسب لما فيه من التعبير على ان ضيق صدر الرسول عابر عارض غير ثابت ، وذلك ما يفيده اسم الفاعل حين يوصف به . والرسول عابر عارض غير ثابت ، وذلك ما يفيده اسم الفاعل حين يوصف به . والرسول كان افسح الناس صدرا واعظمهم احتمالا .

ومن العدول عن فعيل الى فاعل قول الشاعر :

---

(34) سورة فاطر ، الآية 3

(35) ـ سورة الانعام ، الآية 95

(36) ـ معترك الاقران في اعجاز القرآن للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي،القسم الثالث ص614 بتحقيق علي محمد البجاوي .

(37) ـ سورة الأعراف ، الآية 64 .

(38) ـ عمين جمع عم ، صفة مشبهة ، لكن تصرف فيه بحذف لامه كقاض اذا جمع ، فاصله عميين ، بياءين الاولى مكسورة والثانية ساكنة ، حذفت الاولى تخفيفا على حد قوله :

واحذف من المقصور فى جمع على حد المثنى ما به تكملا

قال الليث : يقال عم اذا كان أعمى البصيرة غير عارف بأموره واعمى اذا فقد بصره ، ، وقيل عم واعمى بمعنى كخضر واخضر ، وقال بعضهم :عم فيه دلالة على ثبوت الصفة واستقرارها كفرح وضيق ولو أريد الحدوث لقيل عام كما يقال فارح وضائق ، وقد قرئ قوما عامين .

(39) ـ سورة هود ، الآية : 12

بمنزلة اما اللئيم فسامن
بها وكرام الناس باد شحوبها

فالسمن لا يدوم ، والهزال لا يدوم ، وانما يتعاوران كما يذكر الرواة انه اجتمع الكسائي وابو يوسف القاضي عند الرشيد ، فجعل ابو يوسف يذم النحو ويسخر منه ، فقال له الكسائي ، وقد اراد ان يعلم فضل النحو : ما تقول في رجل قال لرجل : انا قاتل غلامك ؟ وقال له الآخر : انا قاتل غلامك ، ايهما كنت تاخذ به ؟ قال ابو يوسف : آخذهما جميعا . فقال له الرشيد : اخطأت وكان له علم بالعربية ، فاستحيا ، وقال : كيف ذلك ؟ قال الذى يوخذ بقتل الغلام هو الذى قال : انا قاتل غلامك بالاضافة ، لانه فعل ماض ، واما الذي قال : انا . قاتل غلامك بالنصب فلا يؤخذ لانه مستقبل لم يكن بعد كما قال الله عز وجل : « ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا » . (40)

ان من تضلع من العلم وتبحر فيه ، واوغل فى البحث وامعن فى التنقيب ، واستبطن دخائل العربية ، وستجلى غوامضها ، وخاض عبابها ، واستخرج مخبآتها وجد انها لغة المعاني والمباني معا ، والفى أن للرفع معناه ، وللنصب مغزاه ، وللجر مقصده ومرماه ، واذا صح أن يقرا نص ما بالوجوه الثلاثة فليس ذلك للزخرفة والتزويق اوذر المساحيق، والنقش والزينة ، وانما هو اثراء للمعنى وجلاء للمقصد ، ومد لاهاب الفهم والتأويل .

رووا ان الرشيد كتب ليلة الى ابي يوسف : افتنا حاطك الله في قول القائل :

فان ترفقي يا هند فالرفق ايمن
وان تخرقي ياهند فالخرق اشام

فانت طلاق والطلاق عزيمة
ثلاثا ومن يخرق اعق واظلم

فان ثلاثا فى البيت تنشد بالرفع والنصب فكم تطلق على الحالين ؟ فانطلق ابويوسف الى الكسائي يستفتيه فقال : اما من انشد البيت بالرفع فقد طلقها واحدة وانباها ان الطلاق لا يكون الا بثلاث ، واما من انشده بالنصب فقد طلقها وابانها ؛ لانه قال لها : انت طالق ثلاثا .

ومراد الكسائي ان الذى قصد الطلاق به فى حال الرفع هو : انت طلاق ، واما قوله : والطلاق عزيمة ثلاث فكلام آخر اراد به ان الطلاق الذى تبين الزوج به هو الثلاث ، واما على رواية النصب فالذي قصد الطلاق به هو انت طالق ثلاثا ، واما جملة : والطلاق عزيمة فمعترضة (41) .

اما ابن هشام فيقول : ان الصواب ان كلا من الرفع والنصب محتمل لوقوع الثلاث ولوقوع الواحدة، اما الرفع فلان آل فى الطلاق اما لمجاز الجنس كما تقول « زيد الرجل » اي هو الرجل المعتد به واما للعهد الذكرى مثلها فى (فعصى فرعون الرسول) اي وهذا الطلاق المذكور عزيمة ثلاث ، ولا تكون للجنس الحقيقي ، لئلا يلزم الاخبار عن العام بالخاص كما يقال « الحيوان انسان » وذلك باطل ، اذ ليس كل حيوان انسانا ، ولا كل طلاق عزيمة ولا ثلاثا ، فعلى العهدية يقع الثلاث ، وعلى الجنسية يقع واحدة كما قال الكسائي ، واما النصب فلانه محتمل لان يكون على المفعول المطلق ، وحينئذ يقتضى وقوع الطلاق الثلاث ، اذا المعنى فانت طالق ثلاثا ، ثم اعترض بينهما بقوله : والطلاق عزيمة ، ولان يكون حالا من الضمير المستتر فى عزيمة ، وحينئذ لا يلزم وقوع الثلاث ، لان المعنى والطلاق عزيمة اذا كان ثلاثا ، فانما يقع مانواه ، هذا ما يقتضيه معنى هذا اللفظ مع قطع النظر عن شيء آخر ، واما الذي اراده هذا الشاعر المعين فهو الثلاث لقوله بعد :

فبيني بها ان كنت غير رفيقة
وما لامرىء بعد الثلاث مقدم (42)

ومما يدل على شرف العربية وعلو قدرها ؛ تلاقي المعاني على اختلاف الاصول والمباني وهو باب حسن كثير المنفعة ، فقد تجد للمعنى الواحد

40) سورة الكهف ، الآية 23
41) — من قضا اللغة والنحو ، لعلي النجدي ناصف . ص 10 — 11 .
42) — مغني اللبيب عن كتب الاعاريب ، لجمال الدين ابن هشام الأنصاري ج 1 . ص . 54 — 55 . حققه وخرج شواهده الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، وراجعه سعيد الافغاني .

اسماء كثيرة ، فتبحث عن اصل كل اسم منها ، فتجده مفضي المعنى الى صاحبه ، نحو خلق الانسان من خلقت الشيء اي ملسته ، ومنه صخرة خلقاء للملساء ، ومعناها ان خلق الانسان هو ما قدر له وثبت عليه ، فكانه امر قد استقر وزال عنه الشك ، وكالطبيعة من طبعت الشيء اي قررته على امر ثبت عليه ، كما الشيء كالدرهم والدينار ، فتلزمه اشكاله فلا يمكنه انصرافه عنها ولا انتقاله ، بل يظل كانما ختم بخاتم يعطيه صبغة الرسمية وعدم التردد وتنافي قبول التأويل فيما يقصد اليه ، والى هذا يتجه قول الله سبحانه حكاية عن قرى نوح وعاد ولوط وهود وشعيب : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » (43) وقول الرسول عليه السلام : « من ترك ثلاث جمع من غير عذر طبع الله على قلبه » (44) اي ختم عليه وغشاه ومنعه الطافه ، قال مجاهد : الرين ايسر من الطبع والطبع ايسر من الاقفال ، والاقفال ايسر من ذلك كله .

ومن ذلك السجية بمعنى السكون ، وذلك ان خلق الانسان امر قد سكن اليه واستقر عليه ، وهم يقولون في مدح الرجل : فلان يرجع الى مروءة ويخلد الى كرم ، ويأوي الى سداد وثقة ، والايواء انما يكون الى المنزل طلبا للهدوء والسكون . (45)

والمراة سميت كذلك لانها من امريء اخذت ، ولاجل ما تحمله للرجل من تطياب للنفس ، واستساغة للمعاشرة ، وتهدئة للعاطفة ، وللرحمة والمودة التي جعلها الله بين الجنسين : « وقال الرب الاله لا يحسن ان يكون الانسان وحده فاصنع له عونا بازائه ، وجبل الرب الاله من الارض جميع حيوانات البرية وجميع طير السماء وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها فكل ما سماه به آدم من نفس حية فهو اسمه . فدعا آدم جميع البهائم وطير السماء وجميع وحش الصحراء باسماء ، واما آدم فلم يوجد له عون بازائه ، فاوقع الرب الاله سباتا على آدم فنام فاستل احدى اضلاعه وسد مكانها بلحم وبنى الرب الاله الضلع التي اخذها من آدم امراة فأتى بها آدم ، فقال آدم ها هذه المرة عظم من عظامي ولحم من لحمي ، هذه تسمى امراة لانها من امريء اخذت ، ولذلك يترك الرجل اباه وامه ويلزم امرأته فيصيران جسدا واحدا » . (46)

ومن وراء هذا ما اللطف فيه اظهر ، والحكمة اعلى واصنع ، وذلك انهم يضيفون الى اختيار الحروف وتشبيه اصواتها بالاحداث المعبر عنها بها ، وتقديم ما يضاهي اول الحدث ، وتأخير ما يضاهي آخره ، وتوسيط ما يضاهي أوسطه ، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب ، (47) والمعنى يصطفي الصور المحققة له من بين البوادر البدنية التي هي اكثر اصطلاحا لوجهة نظر الانسان في الوجود فيتخذ الاصوات الموافقة لهذه البوادر والمنطوية على امتداد مشترك معها ، فيصنع منها الكلمات ، وهذه تصبح بدنا له ، ولما كانت الحياة تنمو بتجاوب بين المعنى وتجلياته ، بين الملأ الأعلى والطبيعة ، فالصور التى تتجلى بها هذه الطبيعة للانسان هي على الخصوص مرئية مما ادى الى تفرع الصور الصوتية ونموها بتداعيها مع الصوار المرئية ، فالكلمة تحفظ بنيانها بنسبة ما تشترك هذه الصور الصوتية المرئية بالمداد الاصيل ، مداد البوادر التي اختارتها الحياة بدنا لها . (48)

هذا ومن الامور التى لا تخالطها شبهة ، ولا تلابسها غمة ، ولا يعتريها خفاء كون اللغة العربية رابطة عامة لعدد عديد من الخلائق في البرايا في المشارق والمغارب ، فهي اللغة اليومية في شكل أو آخر من اشكالها المنطوقة لما يزيد على ثمانين مليون من الناس ، وهي بالاضافة الى ذلك اللغة الدينية لما يزيد على اربعمائة مليون من المسلمين ناطقين بالعربية أولا ، منتشرين من الاطلس حتى جزر السند ، ومن حدود سيبيريا حتى الاكوادور ،

---

43) ــ سورة الأعراف ، الآية 101 .

44) ــ لسان العرب للعلامة ابن منظور مادة « طبع » .

45) ــ الخصائص لابي الفتح عثمان بن جني ج 2 ص . 162 بتحقيق محمد علي النجار ،

46) ــ سفر التكوين ، الأصحاح الثاني ، الاعداد 19 ــ 24 .

47) ــ الخصائص لابي الفتح عثمان بن جني ج 2 ص . 162 بتحقيق محمد علي النجار .

48) ــ زكي الارسوزي ، العبقرية العربية في لسانها ص 85 . المجلد الاول من المؤلفات الكاملة .

وتتميز بنيتها مبدئيا بدقة مورفولوجية وسنتكسية مدهشة شبه هندسية ، وهي بذلك فاتنة للفكر المنهجي لعقلاني (49) .

انها لغة جامعة يقرؤها العرب ويكتبونها ويستمعون اليها من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي ، يصغي الكويتي في اقصى الشرق العربي الى اذاعة الرباط في اقصى الغرب ، كما يصغى الى اذاعة الكويت نفسها ، ويفهم الرباطي المغربي اذاعة الكويت المشرقية فهمه لاذاعته المغربية ، بل ان المسلم الصيني المتعلم او البخاري ليدخل المغرب العربي فيفهم عن علمائه ويفهمون عنه بهذه العربية الفصحى التي اتسع انتشارها ثلاثة عشر قرنا فكانت الى اليوم اقرب الى اللغات العالمية ؛ وليس ببعيد اليوم الذي تصبح فيه فعلا احدى اللغات العالمية . (50)

فالعربية لحمة عظمى ونسب شابك ، ورحم ماسة للامة العربية ، صلتها من اوكد الصلات واوثقها ، وكون حرمتها من اعظم الحرم واجل الذمم يعتبر من بدائه العقول ، والادلة الواضحة الملزمة ، انها مفتاح العلوم ، ومصباح الفهوم ، وآية من آيات الله في اذكاء المشاعر ، وشحذ القرائح ، وتصفية النفوس ، وتلطيف الاحساس ، وايقاظ الفؤاد ، وهي واسطة لادراك ما يجده العربي ، ويقع تحت سمعه وبصره ، يرسل صاحبها افكاره الى بني جلدته فيستجلون انواره ، ولا يجدون في انفسهم عائقا يحجب عن الطالبين مراده ، بخلاف من تنكروا لها ، وقصروا في واجبهم نحوها ،وتوانوا عن تعلمها وصرف الهمة اليها ، وتخاذل عزمهم عن مدارستها ودراستها فتقاعسوا بالتالي عن التملي بجمالها ، وقضوا دهرهم متبطلين فرانت نفوسهم عن المكارم ، وخاسوا بالعهد المسؤول

ولا معدى لنماء علم بين افراد امة ونشر التعليم بين بنيها غير استعمال لغتها ، فان من تنكر للغته كفر بنعمة من أعظم نعم الله تعالى وقست نفسه بهجر اصوله وفصوله ، وقطع الصلة بينه وبين آبائه واجداده ، وما يسمى باللغات الميتة اليوم انما تم وصفها بذلك لان اهلها هجروها ونبذوها وراء ظهورهم ، واعرضوا عنها ، واتكلوا على زاد غيرهم فطال جوعهم .

ان اللغة العربية اقدم اللغات المكتوبة المحكية :
نحن لا نعرف لغة كانت قبلها و معها ثم استمرت مثلها مقروءة مكتوبة كما كانت قبل الف وخمسمائة عام او اكثر . خاطب عنترة حبيبته عبلة منذ الف وخمسمائة سنة فقال لها :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل
مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لانها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ان عنترة كان بدويا لا عهد له بحضارة مثل حضارتنا ولا قريبا منها ، ومع ذلك فان شعره يجري في الفاظ وتراكيب وتشابيه واستعارات كتلك التي نتكلم بها نحن اليوم ونتفاهم ، لم يتبدل فيها اعراب ولم يتغير فيها تركيب ولا اختلفت فيها الصيغ ولا بعدت بيننا وبينها الشقة . (51)

وان من اطلع على المأثور من كلام العرب واستقرى ما جاء بعدهم من كلام المترسلين من فحول علماء الادب ، وتدبر مالهم في اساليب اللغة من الاتساع والابداع والتلاعب بقوالب اللفظ لابراز صور المعاني حاسرة دون قناع ، ايقن ان هذه اللغة قد انفردت عن سائر اللغات فصاحة وبيانا كما انفرد اربابها في مذاهب البلاغة تبسطا وافتنانا ، وحسب الناظر ان يسرح طرفه في بليغ منقولها ، ويتأمل ما جاء من البدائع في محكم فصولها ... فانه يجد هناك ما يروع فؤاده عجبا بل يملك حواسه طربا من الفاظ كأنها قطع التبر الا انها الشمع طواعية وليانا ، ومعان كأنها اخذ السحر الا انها الصبح وضوحا وبيانا ، بل يتمثل بين يديه رياضا مدبجة الازهار ، وجنانا تجري من تحتها الانهار ، قد صاحت بلابل الفصاحة على افنان خمائلها الضافية الظلال ، ولاحت وجوه الملاحة في غدران مناهلها الصافية الزلال ، وفاغمت نسمات معانيها العذبة ثغور فواغي الفاظها

(49 Grammaire de l'Arabe par Gérard Lecomte P. 5.
(50 من حاضر اللغة العربية للاستاذ سعيد الافغاني ص . 159 .
(51 القومية الفصحى للدكتور عمر فروخ 186 – 187 .

العبهرية فابتسمت عن بيض لآليء رطبة ، تـــزري بحبائك الفرائد الدرية بل بحبك الفرائد الدرية .(52)

ان لغة هذا وصفها ، وهذا ديدنهـا وحالهـا لتستوجب على كل عاقل ان ينهض بها ، وعلى كل أريب ان يرفع لواءها ، وتلزم كل فاضل ان يعلي من قدرها ، ذلك أن الدفـاع عنهـا والمنافحـة عـن ساحتها لا يقلان عن اي دفاع عما خلفه الآبـاء والاجداد .

ولقد كان لعلماء الجناح الغربي عـن العالم العربي فضل كبير في حفظ الكيان العربي ففـي الوقت الذي تمزق فيه اديم الامة العربية ، وبليـت جدتها ، واستحالت اقطارها الشاسعة ، وممالكهـا الواسعة ، الى دويلات صغيرة وامارات ضيقة متصدعة البنيان ، متداعية الاركان ، وفي الوقت الـذي اضاع فيه العالم العربي سيادته وفقد حريته ، ولم يفلت منه من السيطرة الاجنبية غير المملكة المغربيـة اطـال هؤلاء العلماء للسان العرب نفسا ، وابقوا لثقافتهـم رمقا ، وكانوا دوما في الطليعة . (53) وهل يمكـن ذكر العربية وآدابها دون أن يذكر ابن مالك وابـن آجروم ، وابن هانيء وابن زيدون ، وابن سيده ، وابن المرحل ، ولسان الدين بن الخطيب ، والفتح بـن خاقان ، وابن سعيد ، وابن بسام ، والفشتالـي ، والمقري ، وغيرهم ممن يطول تعداده من كل عالـم لبيب وشاعر أديب ، وضارب في مختلف العلوم بسهم مصيـب . (54)

ان العاقل من استفاد من تجارب عدوه . وكـان للعدو المكاتم اشد حذرا منه للعدو المبارز ، والراي اذا كان من الاريب كان أبلغ في هلاك العدو من العدد الكثير من الجنود ، والغالب بالشر مغلوب ، والمرء لا يلتذ ما كان عدوه باقيا كما لايجد السقيـم طعـم النوم والطعام حتى يبرا ، والماء وان اطيل اسخانه ، ليس بمانعه ذلك من اطفاء النار اذا صـب عليهـا ، واللين والمكر أنكى في العدو من الفظاظة والمكابرة ، والنار مع حرها لا تحرق من الشجر الا ما ظهر ، والماء مع بردها ولينه يستاصلها ، ومجانبة المرء عدوه في العثرة احد الاعوان عليه عند الفرصة ، تلك خـدع نجدها عند اليهود الذين عرفوا طريق الحياة والقـوة فسلكوه ، وخلقوا باصرارهم وقوة وعيهم لغة لم يكـن لها وجود ملحوظ قبل خمسين سنـة ، كانـوا مبعثرين مطلع هذا القرن في القارات الخمس ، تتكلم جالياتهم لغات لا حصرهـا ، عرف علماؤهـم ان لا سبيل الى جمع كلمتهم الا بلغة جامعـة ، فاخذوا انفسهم جيلا بعد جيل باحياء العبرية القديمة الميتة يتعلمونها الى جانب لغة الشعب الذي ينزلون بلاده ، فكان صنيعهم هذا الذي بدا للناس حينئذ نوعا مـن الجمود والجنون واضاعة الوقت هو الذي خلق منهم امة ودولة وجامعة انتزعت لها مقرا وسكنا من اعـز بلاد الناس ، الناس الذين حباهم الله لغة جامعـة لا مثيل لها في قوتها ورسوخها في الزمن والمكان بين جميع لغات الارض ، وليس في الامر عجب ، لقـد آمن اليهود باهدافهم وبلغتهم الميتة فاحيوها ولـم يدعوا فرصة لمشكك او مستهزيء او مزهد فنجحوا ، وتهاونا بلغتنا الحية القوية فاهملنا السهـر عليهـا وصيانتها فتدسس اليها اللصوص والعابثون فخسرنا من حيث نجح اليهود ، فاقتطعوا من ارضنا التـي نمنا عنها اعز جزء منها و (عبرنوه) ان اليهـود انشأوا باحيائهم لغتهم الميتة دولة من العـدم ، واضعنـا باغضائنا عن عبث العابثين بلغتنا أمة مـن الوجود . ولقد تنبأ مؤرخ بما وقعنا فيه قبل اربعين عاما ، ولـم يبن نبوءته الا على الحفاظ على اللغة .

قال المرحوم محمد كرد علي في خطط الشام :
« احتفل الصهيونيـون سنـة 1343 هـ . (1924 ـ 1925 م) بانشاء جامعتهم العبرية فـي القدس يعلمون العلوم باللغة العبرانية ، ولا تمضـي خمس عشرة سنة حتى تبعث الديانة اليهودية والمدنية اليهودية من مراقدها » . (55)

ان اللغة هي الفكر وطريق الانسان الى ادراك الكون والوجود ؛ فتفكير المرء يتم بواسطـة اللغة ،

---

52 ـ من مقدمة « نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد » تاليف الشيخ ابراهيم اليازجي .
53) ـ من خطاب الحسن الثاني في القاهرة بالجامعة المصرية عندما قلد جلالتـه الدكتوراه الفخرية . يوم الاحد 11 ذي القعدة 1384 ـ 14 مارس 1965 ، انبعاث امة ج 10 ص . 93
54) نفس المرجع ج 10 ص 91 .
55) ـ من حاضر اللغة العربية للاستـاذ سعيـد الافغاني . ص . 172

وادراكه للاشياء يحدث بواسطة اللغة ، انها الجبل العصبي لتصور الاشياء ، بها يتم التصور وعبرها تنقل الينا تجارب الحياة وخبرات الانسانية التي تشكل اللغة عنصرا من عناصرها الكبرى ، فاذا اردنا ان نكون في مجتمعنا شجرا طيبا اصله ثابت وفرعه في السماء يأتي اكله كل حين ، واخترنا لانفسنا ان نكون عناصر جيدة في مجتمعنا وبلادنا ومسهمين بالتالي في بناء صرح الحضارة الانسانية ، توجب علينا العناية بلغتنا التي بها نتوارث امجادنا وتراثنا وتاريخنا ، ان اعظم ما تحتاج اليه امة من الامم كي يرتقي مجتمعها ويحسن سلوك ابنائها ، ويقل بينهم امراض الميوعة والانحلال وفساد الاخلاق ، هو ان تعمل على ترقية لغتها وتنقيتها من الشوائب والرسوبات ، وتتعهدها تعهد الفلاح لدائب المستمر لحقله وزرعه ، بأن تضع الكلمات الجديدة التي تزيد الاحساس بالفضائل ، وتدعو الناس الى سبل الخير وطرق الرشاد .

سيادة الامة تتطلب سيادة اللغة القومية ، واللغة القومية لا تستورد من الخارج ، هي امتشاق من صميم الامة ، والامة العقيقة تحافظ على عفاف لسانها اذا ارادت ان يكون لها تاريخ مجيد ، ان اللغة ليست شيئا جامدا ، هي المستودع الاكبر ، والامين للتراث الاجتماعي ، وهي ايضا العامل الاوحد لنشر هذا التراث بصورة مشتركة بين مختلف صفوف الشعب ، لذا كانت علة ضم افراد الامة بعضها لبعض ، بها يتسلم الجيل الطالع من الجيل المتواري نظرته في الانسان والطبيعة ، والخالق فتكون همزة وصل بين الاجيال . (56)

وهل يدور في فهم ، او يصدق في تصور ، قيام كيان الامة او نهضة لها ، انها لا تستوى على سوقها دون ان تكون لها لغتها التي تعبر عن افراحها وآلامها ، وسرائها وضرائها ، فاللغة سلوك ، وهي ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الافكار او مجرد رمز لما يدور في الاذهان ، بل هي تلك الوسيلة التي امتزجت بعقولنا ونفوسنا ، والتي بها تميز الانسان عن الحيوان ، ونحن ندين لها بتلك القوة التي ساعدتنا على التعاون مع آفاقنا ، ومنحتنا السيطرة على مخلوقات اقوى من جسمنا . (57)

وان المغاربة حينما اعتنقوا الاسلام اعتنقوه طوعا واختيارا ، ورضى واستبشارا اذ حمل اليهم من مكارم الاخلاق وسليم المبادىء وصحيح الاحكام وقويم النظم ما سعدوا به افرادا وجماعات ، واقبلوا على العربية لغة القرآن يتدارسونها ، وعلى فنونها يتعلمونها ويعلمونها،وما لبثوا ان لمسوا فيها من المرونة والاقتدار على التعبير عن اصدق الصور المادية ، والخلجات النفسية ، واستمسكوا بها لسانا قوميا مبينا ، واحبوها حبا مكينا ، ولما دلفت اليهم من المشرق ثقافة الاسلام وعلوم العربية ومعارف الامم المتقدمة استوعبوها واتقنوها ، وتناولوها بآرائهم وافهامهم ، فاكملوا ناقصها ، واوضحوا غامضها ، وفصلوا مجملها وهذبوا حواشيها ،وزادوا ببحثهم وجدالهم وتخيلهم وافتراضهم في غناها وثروتها ، ولم يكتفوا بذلك ، بل اضفوا عليها من حلتهم وطبعوها بطابعهم حتى اصبحت لهم مدارس مذكورة ، ومذاهب مأثورة في علوم الدين وفنون اللغة والمنطق والفلسفة والطب والرياضيات والتاريخ والفنون الشعبية ، وحتى صارت جامعات فاس ، ومراكش ، وسبتة ، ومعاهد الاندلس التي عاشت طيلة عصورها الاسلامية تحت حكم المغرب او في كنفه تضاهي جامعات اقطار الشرق العربي ومعاهده ، وهل يمكن ان يذكر اعلام فكرنا العربي وتراثنا الاسلامي دون ان يذكر من بينهم او في طليعتهم الحافظ الجدلي ابن حزم ، والمؤرخ ابن خلدون ، والفيلسوف ابن رشد ، والطبيب ابن زهر والرياضي ابن البناء ، والجغرافي الادريسي ، والرحالة ابن بطوطة ، والنباتي الغساني ، والمفسر ابو حيان ، والمحدث ابن رشيد ، والفقيه عياض ! (58)

ان استقلال الامة موقوف على حفظ لغتها لأن الثانية عنوان الاولى ، واضاعتها تسليم للذات ، وتعميم للفساد بين الانام ، فان من جهل لغة القرآن جهل مبادىء الدين ، وكان معول خراب للاسلام والمسلمين وآلت افكاره النخرة الى تسويد

---

56) — في فلسفة اللغة لكمال يوسف الحاج ص140 و 178 .
57) — اللغة بين القومية والعالمية للدكتور ابراهيم انيس . ص . 102
58) — من خطاب الملك الحسن الثاني في القاهرة بالجامعة المصرية عندما قلد جلالته الدكتوراه الفخرية ، يوم الاحد 11 ذي القعدة 1384—14 مارس 1965 ، انبعاث امة ج 10 . ص 90 — 91

الفوضى والاخلال بالنظام وهو في هذه الحال كالكف المقطوعة او الساعد الاجذم :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
ولم يبق الا صورة اللحم والدم

اما ما يطنطن به بعض الناس ويزعقون به من قصور العربية عن مسايرة العلم ومما شاة الفكر فماهو الا مكاء وتصدية ، وجهل مركب ، وعمى عن الحق ، وعقلية غنمية تبدىء وتعيد فيما يقوله المفرضون ، والجهل هنا جهل بالعربية نفسها ، وانعدام لصفاء الذهن وفدامة وضعف ادراك ، وبطء في الحس ، ونخب في الفؤاد وزمانة في الفطنة ، وظلمة في البصيرة ، وغرض يتعسر اخفاؤه منم عن خبث في النفس وسوء في النية :

ومن يك ذافم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا

ان الاعتراض الذي لا ينى القائلون بقصور العربية

عن الاستجابة لمعطيات الحضارة الحديثة ، والمكتشفات العلمية الكبيرة لكلام بعيد عن كبد الصواب ، ضخم الظاهر حقير المرمى لا يؤيده الا الوهل المنفوه المنزوع الفؤاد :

وما مثله الا كفارغ بندق
خلي من المعنى ولكن يفرقع

ان اللغة للأمة كالظل للانسان يطول ويقصر بطول وقصر قامته ، يقول جاك بيرك : (59) « لقد زودتني اللغة العربية بكثير من المعاني والتقاط التي عجز تحليل اللغات الاخرى عن التقاطها بشكل مباشر كما هو الحال في اللغة العربية . . . ولهذا السبب تمكنت شخصيا من التحدث بها بطلاقة » (60) ، وان من حكمة اللغة العربية الشريفة اللطيفة ومن دقتها

وارهافها ورقتها ما يملك جانب الفكر حتى يكاد يطمح به امام غلوة السحر ، واذكر يوما وقد خطر لي خطر مما نحن بسبيله فقلت : لو اقام الانسان على هذا العلم ستين سنة حتى لا يحظى منه الا بهذا الموضع لما كان مغبونا فيه ولا بمنتقص الحظ منه ، ولا السعادة به ، وذلك قول الله عز اسمه : « ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا » . ولن يخلو « اغفلنا » هنا من أن يكون من باب افعلت الشيء اي صادفته ووافقته كذلك كقوله :

واهيج الخلصاء من ذات البرق

اي صادفها هائجة النبات وقوله :

اثوى وقصر ليله ليزودا
فمضى واخلف من قتيلة موعدا

اي صادفه مخلفا ، وقوله :

اصم دعاء عاذلتي تحجى
بآخرنا وتنسى اولينا

اي صادف قوما صما . وقول الآخر :

فاصمت عمرا واعميته
عن الجود والمجد يوم الفخار

اي صادفته اعمى ، واما قول من قال ان معنى اغفلنا قلبه : منعنا وصددنا فليس واردا ، اذ كيف يمنع الله قلوب عباده من ذكره ويصدها عنه وهو الذي يقول : « ولا يرضى لعباده الكفر » والاعتراف بالنعم يكون بذكر المنعم ، ولو كان الامر كذلك لوجب ان يكون العطف عليه بالفاء دون الواو ، وان يقال : ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه ، ويكون الاول ، على هذا علة للثاني والثاني مسببا عن الاول ، ومطاوعا له كقولك : اعطيته فأخذ ، وسألته فبذل ، لما كان الاخذ مسببا عن العطية ، والبذل

---

59) — ولد جاك بيرك في الجزائر سنة 1910 ، وعاش سنوات طويلة في شمال افريقيا والشرق ، وهو من مدرسي التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في (كوليج دي فرانس ، ومدير للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا ، وله عدد كبير من المؤلفات في علم الاجتماع والدراسات الاسلامية ، منها : « العرب بين الامس الى الغد » ، و « المغرب بين حربين » . القى في كلية آداب جامعة القاهرة محاضرة عن بني هلال ، ودرس عليه عدد من الطلبة العرب . وهو الى جانب ذلك وفوق ذلك صديق العرب الصدوق ، عرف لغتهم وتضلع فيها ودرس قضاياهم دراسة العالم وعرف احوالهم معرفة المدقق . (مجلة الفكر المعاصر العدد 51 مايو 1969)

60) — الآداب ، العدد السادس ، يونيو 1972 ص . 120 .

مسببا عن السؤال ، وهذا موضع من مواضع الفاء لا الواو ، الا ترى انك انما تقول جذبته فانجذب ولا تقول وانجذب اذا جعلت الثاني مسببا عن الاول ، وتقول كسرته فانكسر واستخبرته فاخبر ، كله بالفاء ، فمجيء قوله تعالى : « واتبع هواه » بالواو دليل على ان الثاني ليس مسببا عن الاول ، فالمعنى هنا معنى صرفي من باب مصادفة الشيء على صفة ، أي صادفناه غافلا ، واذا صودف غافلا فقد غفل لا محالة ، فكأنه والله اعلم : ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطا اي لا تطع من من فعل كذا وفعل كذا ، واذا صح هذا ثبت به لنا اصل شريف يعرفه من يعرفه ، ولولا ما تعطيه العربية صاحبها من قوة النفس ودربة الفكر لكان هذا الموضع ونحوه مجوزا عليه غير مابوه له (62) .

وان دل هذا على شيء فعلي ما تتميز به العربية من الدقة ، وما تنفرد به من الضبط ، وتحري الافهام بوضع كل شيء مهما كان جزئيا في موضعه . فموضع فاء مكان واو قد يقلب المعنى راسا على عقب ، ووضع كلمة مكان اخرى قد يخل بالمعنى فيصير الكلام لغوا من القول او محض هراء . وقديما قال كلثوم بن عمرو العتابي : « الالفاظ اجساد والمعاني ارواح ، وانما تراها بعيون القلوب ، فاذا قدمت منها مؤخرا ، او اخرت منها مقدما افسدت الصورة وغيرت المعنى ، كما لو حول رأس الى موضع يد او يد الى موضع رجل ، لتحولت الخلقة ولتغيرت الحلية » .

واذا كان الاخذ مسببا عن المعطية ، والبذل مسببا عن السؤال ، فان العربية اخذت واعطت واقرضت واستقرضت ، وتلك سنة الله في كل كائن حي ، فقد اقرضت اللغات الاوربية وغيرها كالفارسية كثيرا من الاصطلاحات العلمية والفلسفية والتجارية والدينية ، بل ان الفارسية استعارت حتى النظام الابجدي والحروف الابجدية العربية ، وبها تكتب الآن وربما عاد الاتراك ايضا الى استعمال الحروف العربية لما يقال عنهم اليوم من تشبههم للاسلام والرجوع الى مبادئه ، ذلك ما فعلته العربية في فترة معينة من تاريخها ، ولكن ذلك لم يمنعها ان تستعير كثيرا من الالفاظ اليونانية والفارسية والهندية القديمة والاوربية الحديثة ، فهي لم تعش في عزلة عن اترابها « ولم تكتف بأن تعيش منطوية على قرائها ، بل لم تتمكن من أن تغزو كأداة للغزو حتى قبلت ان تتعامل وتساير حضارات ولغات أخرى ، ونحن اذ نريد ان نرجع الى الاصل وخلق علماء بكل معنى الكلمة نريد أن نجعل من علمائنا علماء مشاركين سواء في ميدان اللغة العربية او الشريعة او الآداب ، ومشاركين كذلك حتى في المعمعة العالمية التي يخوضها العالم بجانبهم حتى لا يبقوا جانبيين عنا . (63)

ولا يخفى ان زماننا هذا الذي نعيش فيه اليوم ، تقاربت فيه الاوطان وازدلفت القارات ، بفضل وسائل النقل كالطائرات والقطر ، وطلع علينا المذياع بلغات لم تكن نسمع بها ولم نكن نتصور حتى وجود مثلها ، وازدادت الاتصالات الهاتفية والبرقية بين ارجاء العالم ، وتشابكت المصالح الدولية وتضخم عدد المنظمات الدولية والاقليمية حتى بلغت اكثر من 1500 منظمة لها ما يقرب من 30 الف فرع محلي في ارجاء العالم المختلفة ، وتطورت التجارة الدولية تطورا هائلا ، وأصبح من الخرافة القول بالاكتفاء الذاتي ولم يعد بامكان امة من الامم ان تعيش بمعزلة عن المحيط الدولي ، بل اضحت الصادرات والواردات شريان الحياة في كل دولة ، وغدت المراسلات التجارية تفوق بكميتها المراسلات الودية كلها . (64)

وقد ادى كل ذلك وغيره كثير الى الاحتكاك بين الامم والشعوب واصبحت معرفة اللغات الاجنبية فرض عين على كل من اراد لنفسه ثقافة حديثة صحيحة ، وصار من المستحيل على العلماء ان يواصلوا ابحاثهم ما لم يتقنوا عددا من اللغات الاجنبية حتى قال احدهم : « لقد اصبح من الواجب علينا ان نتمكن من قراءة عشر او عشرين لغة اجنبية قبل

---

61) — من الآية 28 من سورة الكهف .

62) — الخصائص لابي الفتح عثمان بن جني ج 3 ص . 254 — 255
بتحقيق محمد علي النجار .

63) — من خطاب الحسن الثاني بمناسبة اجتماع لجنة اصلاح التعليم الاصيل ، يوم الاربعاء 10 يناير 1973 — 5 ذي الحجة 1392 .
انبعاث امة ج 18 . ص . 20 .

64) — المناهل ، العدد الثالث ، السنة الثانية يونيو 1975 ص 246 — 247

ان تبدا بأي بحث علمي او تحلم بأية مساهمة حقيقية في التطور التقني » (65).

ان معارفنا اليوم في الاقتصاد والقانون والعلوم والآداب وغير ذلك من حقول المعرفة انما يرجع الفضل في نقلها الينا الى اولئك الذين اتقنوا العربية أولا ثم لغات أجنبية نقلوا عنها ما لذ وطاب ، من معارف الامم ومأثورات الشعوب ، فالعلم انساني عام ، والمعرفة بشرية شاملة ، وتنقل العلوم والمعارف من مكان الى آخر كانتقال الهواء من موضع الى غيره بالانتشار والانسلال ساخرا من كل حدود عينها البشر ، وكانتقال هاطلات الغيث من مشرق الى مغرب ، ومن شمال الى جنوب ، لا تراعي أتنزل على قوم من هذا القبيل ام من ذاك . وهذا الطابع البشري الانساني الشامل الذي يميز العلوم والمعارف قد اقتضى أن يكون بين اللسان واللسان تفاهم وتجاوب ، وأن يفهم العالم العربي مثلا ما يقوله العالم الغربي . (66).

واللغة العربية لم تصبح لغة عالمية الا بعد أن تعلم العلماء العرب اللغات الاجنبية التي بها ترجموا الى العربية كتب الفلاسفة والمهندسين والحيسوبيين والاطباء الروم منهم والفرس واليونان وغيرهم . (67)

ولا يعزب عن بالنا ما كان من حث الرسول لاصحابه على تعلم اللغات الاجنبية لتهيئتهم دعاة ورسلا الى الملوك والامراء خارج الجزيرة العربية ، فهذا زيد بن ثابت أفرض الصحابة يامره الرسول بتعلم العبرية ومعرفة السريانية ليقرأ له ما يراه من الكتب باللغتين ، زيادة على حسن كتابته بالعربية ، وهذا سلمان الفارسي الذي اشار على الرسول بحفر الخندق كان يعرف الفارسية تبعا لاصله فاستعرب لسانه لاتصاله بالعرب ، ومن التابعين كعب الاحبار الذي كان يعرف العبرية والذي استعان بالتوارة على فهم نصوص القرآن .

ان لمعرفة اللغات هدف اجتماعي خطير ، فكم من عدو لك قد تسترق قلبه ، اذا حادثته بلغته ، وكم من صديق قد يراك عدوا له اذا لم تكن بينكم وصيلة لغوية ، تلك هي اللغة التي تقرب البعيد ، فتجمع بين ما تنافر من افكار وتباعد من مذاهب ، والبدائيون يقولون : « من لم يتكلم لغتك فهو عدوك » ، لان اللغة مظهر هام في نشوء الجماعة ، وهي في حد ذاتها نظام ثقافي ذو دلالة خاصة ، يتألف منها المحيط الثقافي للانسان . وهي بمفهومها العام وسيلة لتناقل الثقافات والحفاظ عليها ، وعلى حضارة الامم التي تتكلم بها .

ان المعرفة باللغات يزيل كثيرا من أسباب العدوان ويهدىء من حدة التوتر بين الافراد والجماعات ، ويقرب الأفهام بعضها من بعض ، قال برغسون : « ان من يتقن لسان شعب ويتعرف الى ادبه ، لا يستطيع ان يكون عدوه تماما ، وهو امر ينبغي الا نتناساه عندما نطلب من التربية ان تمهد السبيل الى التفاهم بين الامم ، فاتقان لسان اجنبي بأسلوب يجعل من الممكن ان تتشرب روحنا ادب هذا اللسان وحضارته ، هذا الاتقان ، قلت ، يستطيع ان يهدم دفعة واحدة سوء الظن الذى حاكته الطبيعة ضد الاجنبي عموما » .

ان تعدد الالسنة يزيد ثقافة الانسان لانه يفتح في نفسه شبابيك عدة ، يطل منها الفكر على آفاق متنوعة الالوان ، وتعلم الانسان السنة اجنبية يعينه كثيرا على فهم لغته الأم ذاتها بطريقة أصح ، والشعب الذي لا يتكلم لغة اجنبية هو شعب عاجز عن ادراك أبعاد لسانه ذاته ادراكا صحيحا . (68) .

كم شجار يحدث بين الناس لسوء تفاهمهم لغويا ، وكم ادى الفهم الضعيف للغة من اللغات الى مالا تحمد عقباه ، ان سوء فهمنا لكلام غيرنا ينجم عن عدم استجابتنا ذهنيا لما يقول ، ولا تمكن الاستجابة الذهنية اذا كنا لا نفهم اللسان الذي به يخاطبنا محدثونا ، والاتصال الذهني لا يتم الا اذا شفع له رسول لغوي سابق ماهد يترجم عن مكنون النفس :

---

65) ـ المرجع السابق ص . 247 .

66) ـ فن الترجمة في الأدب العربي ، بقلم محمد عبد الغني حسن . ص . 81

67) ـ من خطاب الملك الحسن الثاني بمناسبة اجتماع لجنة اصلاح التعليم الاصيل ، يوم الاربعاء 10 يناير 1973 ـ 5 ذي الحجة 1392 .
انبعاث أمة ج 18 . ص 19

68) ـ في فلسفة اللغة لكمال يوسف الحاج ص 166 .

تعاهد لسانك ان اللسان
سريع الى المرء في قتله
وهذا اللسان بريد الفؤاد
يدل الرجال على عقله

وتحضرني الآن حكاية أوردها للتنكيت والعبرة في آن معا ، تلك هي ان رجلين احدهما أجنبي عن الآخر ، كانت تجمع بينهما كل يوم وجبة الغداء في مطعم . كان اولهما انجليزيا وثانيهما فرنسيا ، لايفهم احدهما عن الآخر ولو كلمة من لغته ، وكان الانجليزي يحضر الى المطعم عدة قبل حضور الفرنسي ثم يجلس الى المائدة للاكل ، وكان الفرنسي كلما حضر جلس الى نفس المائدة ثم يقول للانجليزي Bon appétit متمنيا ان يتهنا به الطعام ويلذ ، فيجيب الانجليزي بذكر اسمه Rudvard Smith ظنا منه ان الفرنسي يسأله عن ذلك ! ومرت أيام والعملية تتكرر من غير أن يفهم احدهما ما يقصد الثاني ، وطال الامد على هذا السؤال الفضولي ! فغضب الانجليزي ، وابرق وارعد ، وثار حنقه ، وفارت قدره ، وتضرمت حميته حتى كاد يخرج من ثيابه ، وينسلخ من اهابه ، ولولا لطف الله لفتك بالفرنسي ، فقد تدخل مدير المطعم واصلح بينهما ، وشرح لكل منهما مقصد اكيله وحسن نيته .

ومهما اكتست هذه الحكاية من صبغة الفكاهة أوزي المستملحة ، فان في أحشائها مغزى كبيرا ودلالة خطيرة : تلك هي أن من عرف لغة قوم كسب مودتهم ، وأمن مكرهم ، واتقى شرهم ، واطلع على ماهم عليه من العلوم والآداب والمحاسن الانسانية ، فيأخذ عنهم ماكان صالحا لامره ، نافعا لاحواله ، مفضيا الى فوزه ونجاحه ، عائدا بالخير على قومه ووطنه ، بله كونه انسانا واحدا في انسيين ، بل اناسي كثيرا اذا تعددت معرفته باللغات . فهو بذلك جسم صغير ينطوي فيه عالم اكبر ! يستفيد من كل وجهة ، ويعب من كل معين ، يتشح تارة ويعل اخرى بنجده العلم من كل طريق ، وينال من المعارف ماديها ومعنويها :

حفظ اللغات علينا
فرض كفرض الصلاة
فليس يحفظ دين
الا بحفظ اللغات

ان الجانب الحضاري في تعلم اللغات كبير ، وقدره عظيم ، وفوائده جمة ، فبمعرفة اللغات يكون الانسان سيد نفسه ، ويعلم بما يجري خارج محيطه وامته وبلده ، ويتلقى ما عند غيره من طول الباع في الاختراعات والصناعات ، ويدرك مدى تقدم هذه الامة وتفشي الحضارة والمدنية بين ابنائها وفي نفوس افرادها ويتعظ بتاخر تلك وضياع بلادها وخسران رجالها ، وفقد شريعتها واتحادها وفخرها وامجادها ، فيتمكن بذلك حب الوطن في قلبه ويسلك اعزازه الى اعماق فؤاده ، ويذود عن حوضه بكل ما اوتي من قوة وايمان ، ذابا عنه مضحيا بكل غال ونفيس واقفا على خير غيره وشر من سواه :

بقدر لغات المرء يكثر نفعه
وتلك له عند الشدائد اعوان
فبادر الى حفظ اللغات مسارعا
فكل لسان في الحقيقة انسان

هذا مع حب اللغة العربية طبعا ، فان حبها من الايمان ، وبذل الجهود في رفع شأنها ، وتوسيع اهابها بتطعيمها بما لا تملكه ، وبجلب كل ما يمكن ان يرقى بها الى اعلى المصاف ، وارفع الدرجات ، واسمى الغايات ، ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، انها لغتنا وعصب وجودنا الذي ينشر فينا روح القدرة على التعبير عن الحقائق البعيدة المكنونة في وجداننا ، وهي المجاز الذي نلوذ بحقويه لنبتدع لامتنا شخصية فكرية تضمن بقاءنا واستمرارنا في حشا التاريخ ، وتكفل خلودنا عبر الزمان والمكان :

لا تلمني في هواها
أنا لا اهوى سواها
لست وحدي افتديها
كلنا اليوم فداها
نزلت في كل نفس
وتمشت في دماها
فيها الام تغنت
وبها الوالد فاها
كلما مر زمان
زادها مجدا وجاها
لغة الاجداد هذي
رفع الله لواها
فأعيدوا يا بنيها
نهضة تحيي رجاها
لم يمت شعب تفانى
في هواها واصطفاها

الرباط : محمد حمزة

الوجادات

للأستاذ عبد القادر زمامة

631 — حب الرياسة ... !

وجدت في مخطوطة كتاب « الحقائق والرقائق » تأليف أبي عبد الله المقري . جد صاحب نفح الطيب . وشيخ المدرسة العنانية . وقاضي فاس في عهد أبي عنان :

« **رقيقة** : دخلت على عبد الرحمان بن عفان الجزولي وهو يجود بنفسه . وكنت قد رأيته بقرب ذلك معافى ... ! فقلت : آي ... ؟ وسألته عن السبب ... فأخبرني أنه خرج الى لقاء السلطان . فسقط عن دابته . فتداعت أركانه ... ! فقلت : ما حملك ان تتكلف هذا في ارتفاع سنك ... ؟ فقال : حب الرئاسة آخر ما يخرج من قلوب الصديقين .. ! »

632 — الحب . والنوى ... !

وجدت في مخطوطة كتاب « الحقائق والرقائق » تأليف أبي عبد الله المقري :

« رقيقة : أخبرني السلطان المتوكل على الله أبو عنان أن جده السلطان أبا سعيد رحمه الله تعالى ، سأل كاتبه : عبد المهيمن الحضرمي . عن تهادي أهل الحب للتفاح دون الخوخ . وكلاهما طيب المخبر شديد شبهه بأخيه .. ! شديد تشبيه الوجنات به لمتوخيه ... ؟ فقال : من عند مولانا ... ! فقال ..

— أرى ذلك لاشتمال التفاح على الحب (بفتح الحاء) الذي يذكر بالحب ... (بضم الحاء) ولاشتمال الخوخ على النوى الذي يكدر اسمه صفو الهوى .. ! »

633 — من أقوال الامام ابن عرفة وانشاداته

وجدت في ترجمة أبي عبد الله العكرمي المتوفى سنة 842 هـ من كتاب السلوة ج 2 ص 122

« قال الينجي : سمعت العكرمي يقول : سمعت ابن عرفة يقول : ان الامام ابن القاسم ضعيف في الاصول ... !

وقال الينجي أيضا : انشدنا أبو عبد الله العكرمي . قال انشدنا الامام ابن عرفة :

يقولون هذا ليس بالراي عندنا
ومن أنتم حتى يكون لكم عند .. !

وقال الينجي أيضا : انشدنا أبو عبد الله العكرمي . قال انشدنا الامام ابن عرفة متمثلا :

حسبت الهوى سهلا وما كنت داريا
ومن يجهل الاشياء يستسهل الصعبا »

634 — على مغربي ضاع ... !

وجدت في كتاب « خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر » في ترجمة حسين بن قاسم الدرعي الشاعر الاديب المغربي الذي هاجر الى الشام وتوفي بها سنة 1011 هـ

قال المحبي وانشدني لنفسه :

« رأى غارة الاقدار للمرء لاحقة
ولو فر منها راكبا متن شاهقة

وما خط في ام الكتاب تسوقه
اليه المقادير التي هي سابقة

فلا ذاق من صاب التغرب من بكى
على مغربي ضاع بين مشارقة »

635 ـ وفاة ابن العربي المعافري

وجدت فى مخطوطة « أزهار الرياض » لابــي العباس المقري :

« توفي ابن العربي منصرفه من مراكش بموضع يعرف بأغلان على مسيرة يوم من فاس غربا منهــا . فاحتمل ميتا الى فاس فى اليوم الثاني من وفاتــه . وذلك يوم الاحد السابع من ربيع الاول سنة 543 هـ ودفن باعلى مدينة فاس خارج القصبة بتربة القائــد مظفــر ... »

636 ـ خيــال وتخييــل ... !

وجدت فى كتاب « الوافي بالوافيــات » ج 6 ص 76 فى الترجمة التي كتبها صلاح الدين الصفدي لابراهيم بن عيسى بن اصبغ القرطبي المعروف بابن المناصب الذي تولى القضاء للموحديــن بمدينــة سجلماسة وبها توفي سنة 627 هـ ... هذه الابيات من شعــره :

« وزائر زارني وهنا فقلت لــه
انى اهتديت وسجف الليل مسدول
فقال آنست نارا من جوانحكــم
اضاء منها لدى السارين قنديل

فقلت نار الهوى معنى وليس لها
نور يبين ، فما ذا منك مقبــول

فقال نسبتنا مــن ذاك واحــدة
انا الخيال ، ونار الحب تخييل ..!»

637 ـ ابــن فتحــون ... !

وجدت فى كتاب « سراج الملوك » لابي بكــر الطرطوشي نزيل الاسكندرية والمتوفى بهـا سنــة 520 هـ . ص 156 ط. القاهرة 1319 هـ .

« وكان بسرقسطة فارس يقال له : ابن فتحون. وكان يناسبني فيقع خال والدتي . وكان اشجع العرب والعجم . وكان المستعين ابو المقتدر ؛ يرى له ذلك ويعظمه وكان يجري عليه فى كل عطيــة خمسمائــة دينار ... ؛ وكانت النصرانية باسرها قد عرفــت مكانه وهابت لقاءه ... !

فيحكى ان الرومي اذا سقى فرسه فلم يشرب ... يقول له :

اشرب ... ! هل ابن فتحون رايت فى الماء ..!»

638 ـ هميــــان ... !

وجدت فى كتاب « سراج الملوك » لابي بكــر الطرطوشي نزيل الاسكندرية ص 148 . ط. القاهرة 1319 هـ .

« ... واما انا فلما هممت بالرحيل من بلــدي الى المشرق فى طلب العلم كنت لا اعــرف التجارة . ولا لي حرفة ارجع اليها ... ! فجزعت من الخروج . وكنت اقول : ان ذهبت نفقتي ما ذا افعل .. ؟ وكان اقوى الامال فى نفسي ان احفظ البساتين بالاجرة ..! وادرس العلم بالليل ... ! ثم استخرت الله فرحلت.. وكانت معي نفقة وافرة فى هميان (1) على وسطي .. »

639 ـ دجــى ... وضحــى ... !

وجدت فى كتاب الوافي بالوافيات لصلاح الدين الصفدي ج 6 ص 40 ... فى ترجمة ابي اسحــاق التميري الفرناطي الرحالة ... يقول الصفدي ... « وانشدني من لفظه لنفسه :

هن البدور تغيــرت ممــا رأت
شعرات راسي آذنــت بتغيــر

راحت تحب دجى شباب مظلم
وغدت تعاف ضحى مشيب نير »

640 ـ حســن التفاؤل ... !

وجدت فى مخطوطة كتاب « الشهب اللامعة فى السياسة النافعة » لابي القاسم ابن رضوان :

« ومن حسن التفاؤل ما اخبرنا بــه شيخنــا القاضي الخطيب العالم أبو البركات ابن الحاج قال : حكي لنا بعض الشيوخ بفاس . ان عبد المؤمن بن علي وجه على الشيخ ابي محمد صالح رضي الله عنــه لما بلغه انه تكلم فى المهدي ... !

فقال لــه :

---

(1) الهميان : كيس النفقة يشد على وسط الانسان . ويطلق على التكة : انظر كتاب المغرب للجوالقي ص 346 .

— ما تقول في المهـدي ... ؟

فقال له الشيخ ابو محمد :

— افي الله شـك ... ؟

641 — بنـو عبـد الـواد

وجدت الشيخ مرتضى الزبيـدي في (تـاج العروس) في مادة « ودى » يذكر هذا النص المفيد.. عن بني عبد الواد المعاصرين لبني مرين ...

« وبنو عبد الواد من البربر ملوك بالمغرب ... ! جدهم الاعلى اسمه عبد الواحد فاختصروه ... ! »

642 — قد خولف المذهب في الاندلس ... !

وجدت في كتاب « الدر الثمين » تأليف الشيخ محمد بن احمد ميـارة . ص 169 . ط. القاهـرة سنـة 1330 هـ .

« ... وقد نظم هذه النظائر الشيخ ابن غازي في باب الجهاد من تكميل التقييد ناقلا عن الوثائـق الصغرى للغرناطي فقال :

قد خولف المذهب في الاندلس
في ستة منهن سهم الفـرس

وغرس الاشجار لدى المساجـد
والحكم باليمين قل والشاهـد

وخلطة الارض بالجزء تلـي
ورفـع تكبيـر الآذان الاول »

643 — مسالـة الهيـدورة ... !

وجدت في كتاب « الدر الثمين » تأليف الشيخ محمد بن احمد ميارة . ص 84 ط. القاهرة 1330 هـ

« ومن هذا المعنى مسالة . الهيدورة . وهي التي تكون النجاسة بأحد وجهيها دون الوجه الآخر . هل يصلي على الطاهر ... ؟ وقد اختلـف فيهـا أصحاب الفقيه أبي ميمونة . دراس . فقيه فاس ..!»

644 — النسخ في كاغد الروم ...

وجدت في كتاب « الدر الثمين » تأليف الشيخ محمد بن احمد ميارة ص 77 ط. القاهرة 1330 هـ

« النقل عن كتاب للامـام العالم ابي عبد الله محمد بن أحمد ابن مرزوق سماه هكذا :

« تقريـر الدليـل الواضـح المعلـوم في جـواز النسـخ في كاغـد الـروم »

645 — بالترجمـان

وجدت في كتاب « رحلة الاندلـس » تأليـف محمد لبيب البتنونـي ص 107

« سمعت استاذنا المرحوم الامام الشيخ محمد عبده يقول : أنه في زيارته لتونس ذهب لمقابلـة الباي فوقف بينهما ترجمان . فكان اذا قال الشيخ جملـة كررها الترجمـان الى الباي ... واذا قال البـاي شيئا كرره الترجمان للشيخ حتى انتهى الحديث بهذه الواسطة . وكل ذلك باللغة العربية ... ! !! »

646 — الـدق للترابـة ... ؟

وجدت في ترجمة الشيخ الحـاج الخيـاط الرقعي من السلوة ج 1 ص 232 انه كان يجيء كـل يوم عند البنائين الذين يبنون قبة سيدي الخيـاط بالدوح ويقول لهم :

« الدق للترابـة . والشنعـة للاجـواد . لا خيـاط الا خيـاط الـواد ... ! »

فاس : عبد القادر زمامة

ملحمة التاريخ

للأستاذ بن المهدي العلوي

منار الهدى في قمة المجد ساطع ... على مرقا التاريخ منه طلائع
تلوذ فترسو تحت سفح نجوده ... مراكبها مخفورة والطوالع
على ربوات العز قامت صروحه ... دراريه ما بين النجوم سواطع
اذا اعتكرت سود الليالي تطلعت ... لتقتبس الانوار منه المطالع
من الاطلس السامي المنيع تفجرت ... ومدت ظلالا وارفات منابع
واحيت عصورا مجدبات عواجفا ... شريعته الغراء والعدل وازع
سما مفرقا ـ أني يسام ـ الى العلا ... يجلله نور من الشيب لامع
فللعين في فوديه ابهج متعة ... وللعقل والتاريخ والمجد طابع
وللنبل والاخلاق فوق جبينه ... وللعزة الشماء أيضا طوابع
مضاربه اخيافه حلباته ... مسارحه للرائدين مراتع
يجوبونه شرقا وغربا لينهلوا ... من السحر ما تصبو اليه المسامع
بدائعه شتى تملى جمالها ... عباقرة من كل فج تسارع
بمحرابها الفنان يجثو كانه ... لعينيك قس لليسوع مبايع
مقاصيرها تعييه لحظا فتارة ... علوا واخرى معجبا وهو قابع
تعالى بديع الصنع في شرفاتها ... فما هي الا الفن يوحيه صانع
وما هي الا شامة الحسن طاطات ... لها الكبريا خذا وذلت اخادع
يحل بها فصل الربيع فترتدي ... بسندسه قيعانها والاجارع

فتبدو كما تجلى العروس تلفعت … من الوشي في اعطافه الدر ناصع
مطارفها فيها اليواقيت نضدت … مفوفة حافاتها والمراجع
وذاب شعاع التبر بين مروجها … فبزت وشاحا خصره متدافع
تراقصت الادواح في عرصاتها … على نغمات رجعتها السواجع
يرددها لحنا شجيا بمزهر … ملائكي الاوتار نشوان ساجع
هزار تلقى اللحن من سبحاتها … مثانيه ما بين اللهاة صوادع
يحيي بها عرشا تربع فوقه … امام حيي عالم متواضع
بعيد اعاد الله فيه لامة … مكانتها العظمى وعزت مرابع
تفتحت الآمال فيه وأمرعت … عراص العلا والمنشآت المصانع
ومدت سدود تجمع التبر ذائبا … يسيل نضارا ترتويه المزارع
وشيدت صروح العلم شامخة الذرى … تعج بها رواده والطلائع
ورجت قلاع كالرواسي بأسدها … اذا زأرت ردت صداها المدافع
فجالت وفي الجولان تقع مجالها … وصالت وفي سيناء منها طوالع
اذا الحسن الثاني دعاها توثبت … لدعوته الاسد الغضاب الدوارع
كأن اسمه الميمون طالع سعدها … اذا سمعته اشتاق للطعن سامع
كان سناه في ظباها مطر … به تهتدي والسيف ظمآن جائع
ولم لا وقد اضفى عليها اباءه … وهذب منها الطبع منه الطبائع
اذا الحسن الثاني اهاب بشعبه … ان امض او استأن اقتدى وهو طائع

* * *

دعاه قلبي للمسيرة واثقا … وداس حدودا أشبتها المدارع
تمنطق بالتقوى ولاث بفضلها … على مفرق سام به التاج ناصع
تسامت اليه المكرمات فراضها … وهذبها اقدامه والتواضع
فمن اي باب جئت ترجع معجبا … تراه يجلي وحده وهو وادع
ذكاء وايمان وحزم وهمة … وراي يرى بالغيب ما هو واقع
يزيدك علما منهجيا بمنطق … يرف بيانا تحتذيه المصاقع
اذا قال اما بعد .. ارهف سمعه … لخطبته التاريخ والدهر خاشع
يشوق للعلياء نهجا ومنطقا … وتشرح مقراها الصفات الروائع
تجوب بها الركبان شرقا ومغربا … وينقلها عنه الاثير المطالع
صفات سبت من حسنها ورواتها … عقولا فاغضاها من النور ماتع

لذا هزت الدنيا المناكب بهجة   لملحمة ضاقت عليها المجامع

لملحمة كبرى وحيدة عصرها   وبيضة ديك الدهر والدهر يافع

مسيرة سلم يستحث لها الخطا   سديد الخطا الباني الامام المدافع

حفيد رسول الله قائد سلمها   يواكبه التوفيق والنصر خاضع

* * *

فسارت الى الصحراء ترفع راية   بكف وفي اليمنى من النور ساطع

لتحريرها من غلها ورجوعها   الى وطن فى ظله الشمل جامع

وما هي الا ان اشار امامها   فداست حدودا دونهن المصارع

بنعلين خفاقين داست نصالها   ونامت عليها والرماح هوالع

تصدت لها والعزم يلتهب الخطا   وايمانها بالله والحق دافع

تصدت لها تحد والمصاحف زحفها   ويتلو المثاني السبع اعزل ضارع

تصدى لها الشعب الابي محققا   ارادة راع للرعية رافع

وجاءت وفود الارض تشهد زحفها   فما راعها شيء كشعب يدافع

برمته عن وحدة وطنية   محال بان ترقى اليها المطامع

يسير كموج البحر مدا وضده   وكل من الحالين فى البحر نافع

تكتل شبانا وشيبا معبأ   تسير به قبل الرجال المراضع

يظل ويمسي مشرئبا لقائد   متى كفه تومي وتوحي الاصابع

ويلتحف الرمضاء معتجرا بها   واشواكها ان جن ليل مضاجع

ويلثمها لثم المحب حبيبه   وقد زال عن وصل الحبيبين مانع

فكيف ترى أشواقه ودموعه   اذا ما تبارى وجده والمدامع

* * *

كذلك كنا والرمال تلفنا   بأحضانها الفا لالف يوادع

وان شمال ثارت رقصنا تبخترا   على كثب رجراجة تتدافع

شممنا أريج المسك من نفحاتها   وضاع عبير – لم يضع – وهو شائع

ودر سحيق الند فوق رؤوسنا   ولاطفنا اعصارها المتواضع

فطاب لنا منها العتاب ونفرها   يفيض ببشر والعيون هوامع

تقول جفوتم قبل ذا انسيتم   بان لكم فى الاسر اختا تصارع

فما لكم لم تسرعوا لفدائها   وقد ارهقتها بالقيود القوابع

حلفنا لها بالله ما طاب عيشنـــــا ⠀⠀ لشيء ولا جفت جفـون دوامــــع

الى ان سمعنا بالمسيرة فارتمـــى ⠀⠀ نبا الشوق والاكباد غرثى نـــوازع

وها نحن جئنا نفتديـك فكفكفـــي ⠀⠀ عتابك فالاعتاب ـ لا شك ـ شافـــع

تعالي نرمـــم ما تناثـــر بالبلـــى ⠀⠀ ونبني صروحا صدعتها الزعـــازع

ونعلي على اطلالها المجـــد طارفـــا ⠀⠀ على تالد لــم تبتلعــه الزوابـــع

تعالي نقاسمك الحيـــاة شهيـــة ⠀⠀ ونشرب بنخب لم يرنقـــه طامـــع

* * *

ولا ترفعي راسا لضجـــة حاقـــد ⠀⠀ فليس ببدع ان تضـج الضفـــادع

وليس غريبـــا ان تطـــن ذبابـــة ⠀⠀ على الشهد مشتارا قرتـــه الرواتـــع

وللذئب ان شام القطيـــع تختـــل ⠀⠀ وهيهات منـــه الختـــل والليـــث رادع

يظن بان الســرب شـــاء سفاهـــة ⠀⠀ ولكنـــه في واقـــع الامـــر دارع

وان تعجبي للسيـد والصيد فاعجبـــي ⠀⠀ لعاو بجحر والشـــرى يتدافـــع

وقد هم فانقضت عليـــه كواســـر ⠀⠀ وأوثق في انشوطة الحبل خامـــع

فان عاد عدنا والحبـــال كعهـــده ⠀⠀ بها تتداعـــى بينهـــن الاخـــادع

دعيه لفـــي واطمئنـــي جوانحـــا ⠀⠀ وقـــري عيونـــا هدبهـــن لـــوادع

* * *

وميدي قدودا فوق كثبان طـــارق ⠀⠀ كدابك حيث المجد والسعـد طالـــع

وحيث العوالي والمعالي تساجلـــت ⠀⠀ على ربعك الفيتان والشمل جامـــع

وحيث الرماح السمهرية تنحنـــي ⠀⠀ لتقبيل سمر والعفـــاف يمانـــع

وحيث لواء العز يعلـــو مضاربـــا ⠀⠀ حوالي أسود هذبتهـــا البراقـــع

وحيث التقت منا الوشائج غضـــة ⠀⠀ على هضبات المجـــد زهر أيانـــع

وحيث براك الله في الحسن روضـــة ⠀⠀ يحن اليهـــا الربـــرب المتتابـــع

وحيث المهافي ظلهـــا مطمئنـــة ⠀⠀ جآذرهـــا أجيادهـــن توالـــع

وحيث النياق البيض والحمر تجتبـــي ⠀⠀ نجائبهـــا اقتابهـــن مخـــادع

ترى قاطرات قاطعـــات فدافـــدا ⠀⠀ اذا ما الحديد الصلب اعياه شاســـع

* * *

بربك هل اشها الى العيـــن من مهـــا ⠀⠀ تميس على الكثبان والبدر طالـــع

وهل من قدود مثل قـد نخيلهـا ... غدائـره فوق النحـور لواسـع

عراجينها مخبـوءة فى جيوبهـا ... تـلألأ والـدر المنضـد فاقـع

كمائـم الا انهـا مـن زبرجـد ... وأزجال ترف النسيـم صنائـع

* * *

وما كنت لولا المكديـات عوائـق ... لتحلو فى عيني سواهـا مواقـع

ولكنها الاشطان أو تقتنـي فمـا ... لجسمي حراك والفـؤاد ينـازع

* * *

سقاك المرث الخضل ما هبت الصبـا ... وأغدقك الوسمي ما افتـر لامـع

ودام بظل العرش فيئـك وارفـا ... وبالسـدة العلياء ما اخضـر يانـع

وبالحسن الثاني المثنى جهـاده ... بمشرتي المعمور ما قال خاشـع

رعى الله من يحمي الحمى وأمـده ... بنصر وفتح وفق ما هـو صالـع

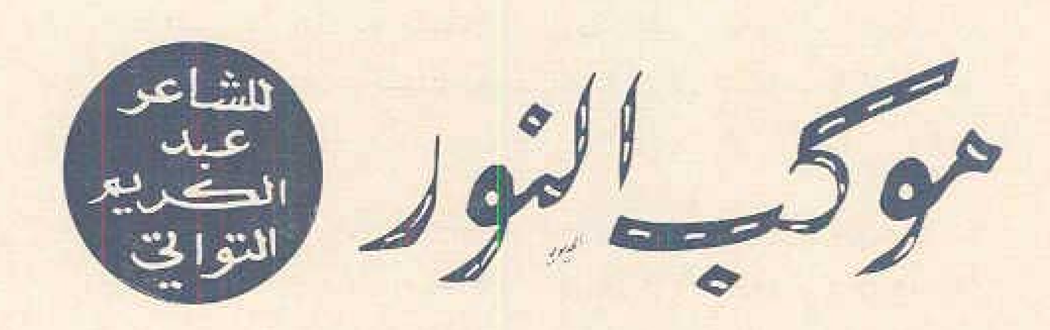
ولا زال للاسلام حصنـا محصنـا ... سرادقه القـرآن واق وشافـع

ودام ولي العهد فى حلل الرضـى ... تسر به العليا وتسمو المرابـع

وبالنير المولى الرشيـد ومريـم ... وأسماء والحسناء تحدى الطلائـع

فانت ـ امير المؤمنيـن حقيقـة ـ ... منار الهدى فى قمة المجد ساطـع

محمد بن المهدي العلوي



هلل الكون في ابتهال وزغرد   وانتشى الافق بالسنا فتاود
والدنى اشرقت بهاء ونورا   وجلت فتنة تتيه وتملد
تتهادى من التحيات آيات ، وعاها الزمان وحيا وردد
وشدتها ملائك الله تسبيحا فناجى الصدى الحداء وهدهد

* * *

اى سر ، حق العوالم جمعا   واضفى عليها نورا توقد
فاذا كل ما على الارض وضاح   المحيا ، مهلل الثغر فرقد
الصحارى تفجرت طل خمير   وعيونا زلالها العذب عسجد
اغدقت سوحها الظماء ثقال السحب ، فاقترت غيدقا يتميد
وغدا عشبها المصوح اندا ، وظلا على الهجير ممتد
وكسا السهل والهضاب رخاء   والصخور الجرداء لون زبرجد
والزوابي تمايس الزهر فيها   واقاحيها انجم تتوقد

وطيوب الازهـار غازلها الطـــل هيامـــا ، فجن شوقـــا وعربـــد

والنسيـــم العليـــل هـــب رخاء تتملى الربـــا رؤاه المـــــورد

طارح الروض والبلابـــل الحانـــا رواها النهير شعـــرا واقصـــد

* * *

ى سر ، بطحـــاء مكـــة جلتـــه وكانـــت لنوره خيـــر مشهـــد

البرايـــا مبهـــورة تتمـــلا ه ، وتستهدى نـــوره المتوقـــد

* * *

لم يك السر غير مولـــد (طـــه) بورك السر ، والديـــن ومولـــد

بارك اللـــه مولـــدا ، كـــان للخيـــر معينا ، وفي السماحـــة اوحـــد

* * *

لم تك (البطحا) قبل مولده الاسنـــى ،سوى دجن يرغى شكا ويزبـــد

ومتاهات يبرق الجـــهل فيهـــا بينيهـــا المطلليـــن ، ويرعـــد

تعيس الشرك ، كم اضـــل وازرى بعقول ، تزكو ذكـــاء وتحتـــد

عشقـــت دهرها الاباء وهامـــت بكريم الفعال ، والعـــز تنشـــد

قد اسئت عقيـــدة وتهـــاوت تترضى الاصنام جهـــلا وتعبـــد

تخذتها زلفى ، متـــى كانت الاحجـــار فى العقل تستخـــار وتحمـــد ؟

بورك المولـــد الكريم ، فقـــد حقـــق فتحـــا ، لـــولاه ماكان يوجـــد

واذا حفـــت العناية ارضـــا خار ربي لها الرشـــاد وســـدد

* * *

نطفـــة الطاهـــر المطهـــر (طه) أودعتها (البطحا) فاسمت توحـــد

والهدى الحـــق فـــى رباها تناها والهدى الحـــق ليـــس الا (محمد)

النبي المختـــار مـــن بمحيـــاه تهيم الحياة ، والعيـــش يرغـــد

* * *

حبات سره الغيـــوب ، فـــودت لو بأحشائها الدهاريـــر يرقـــد

شاقها منه روعة الحســـن والطيـــب ، فعاشـــت لسحـــره تتـــودد

والمقادير مذ أسرتـــه حلمـــا باركت سره ، وهلـــت تزغـــرد

لم يزل مذ جلا المهيمن دنيانا ضياء ، يجلو الدجى ويبدد
حضنته الاصلاب ، من آل عدنان وهامت به رعايب خرد
وبأرحام طاهرات حوان قدر الله صانه وتعهد

* * *

وقضى ربك المصور اسرار البرايا ، وامر ربك ارشد
فتجلى وأبدع الكون حسنا وطيوبا ، وصاغ منه (محمد)
ثم نادى أسراره ، ان تجلي وتملى دفقا من النور فرقد
فسبتها ـ وهاجة البشر جذلى ـ بسمة اشرقت بطلعة احمد

* * *

وتنادت ملائك الله : يا بشرى البرايا : نجم اهل ممجد
واضاءت انواره سبل الخير وعمت أنواره كل فدفد

* * *

نجم طه اهل اروع نجم نوره يزهر الحياة ويسعد
ومحياه ، بالحسن محياه ، وبهاء يرونق السهل والنجد
الفوادى تفيأت ظله الوارف ، واستروحت نداه الممهد
وتلقته بالتحيات ارواح الموجودات ، والملائك تشهد

* * *

لم يدع (آدم) الاريب جنان الخلد زهدا ، لكن ليشهد أحمد
زبدة الكائنات ، من برا الله له الكون والحياة وأوجد
شع أمية في كل الخلايا فالخلايا مشبوبة الشوق تملد
وعلى السن التقاه تجلى بسمات ، الى السماوات تصعد
وتواصت به وبالحق انعار من الجن مخلصي القصد رشد (1)

---

(1) اشارة الى آيات سورة القتال (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) الآيات

ورأته الحياة نبع حياة فتمنت ، لو فيضه الثرتمهد (2)
وانتشت من سعينة تكرع الطهر ، ومن خصبه تعب وتحصد

* * *

لم يكن مولد لطفل ، ولكن كان احياء للاناسي ومولد
وهو للدين عروة واعتصام وهو للدنيا آصرات توحد

* * *

وتنادت يهود (يثرب) : يا يثرب تيهي اهل كوكب احمد
شع فى الافق نوره : فاذا الافق تيار مكهرب يتوقد
واذا ظلمة الجهالة اكسير حياة ، اغنى الحياة وارقد
ارعبت بانفلاقه الاوس والخزرج ، واستنجدت وامست تهدد
لم تزل تنظر النبوة ، ترجوها ، تناوى الاوثان والعرب توعد
... وترحب - بئس الرجا - أن ستمضي في هواها ، وما تخط ، وترصد
غير أن الرجاء خاب ، فما كان ابو القاسم الا الرشاد للبغي يخضد
فاذا عترة اليهود ضلال ونفاق على الهدى يتمرد
خسئت عترة اليهود فما تفتا يذكي الاضغان والحقد تسند
حيثما يممت عنا الخزى والعار ، والقى الخنا عصاه وجود
قينقاع ، قريظة ونضير في متاهات خيبر تتهود
تنقض العهد والمواثيق بغيا وعهود اليهود وهم مجرد

* * *

يا لميلاد (احمد) قوض الشرك جذوعا والكفر جد وبدد
والضلال العتي ، دكت رواسبه وهارت صروحه وتخدد (3)
وأذلت حماته ، وتهاوى الظلم يأسا ، والبغي للرشد اخلد

* * *

وبيوت الاوثان رانت عليها مذ تجلى كآبة وتبلد
هال أصنامها الضياء فاغضت في خنوع (للنور) تعنو وتسجد

* * *

---

(2) معهد كمنع كسب وعمل
(3) تخدد - تفرق واضطرب وتشنج

والشياطين فزعت قد رمتها شهب لم تزل بها ترصد (4)
فاستعاذ الكيان بالله ، اذ بات تعاويذهم ، بخسران اربد

❊ ❊ ❊

وخبت نار هيكل الفرس واربدت باشباح ظلمة تتمرد
ربع من هول دجنها سادن الهيكل ، فاهتاج غاضبا يتوعد
زود الموقد الكئيب باحطاب وأذكى اللهيب نفخا واوقد
غير ان اللهيب تاه ، وما اجدى وقود ولا بخور تصعد

❊ ❊ ❊

وتداعت جامعة بيع الروم وعتى الصلبان بأساء تجهد
يا لهول الرهبان من مولد النور ، فقد ارهب الظلام وارمد (5)
تلك ارهاصة النبوة جبلام ها في اياته الاله واورد ....

❊ ❊ ❊

ايه يا أم احمد بوركت ساعة ضمت احشاك نطفة (أحمد)
أي بشرى حملت الكون يا آمنة الفضلى واسديت من آياد تخلد
ان تكوني اسميت (آمنة) قبل ، قرب النبي قومك أرشد
انت حقا امينة اذ حملت السر ، بافضل أم وخير انثى تمجد
(آل وهب) بشراكم اليوم رضوانا من الله ؛ قد حباكم واسعد

❊ ❊ ❊

يا رسول الاله ، مولدك الاسنى رخاء بالامن زاه موطد
وحد الله فيك دينا ودنيا امما شتى ، فهي شعب موحد
للتآخي دعوتها ، وبذلت النصح لله ، غيره لست تقصد
ـ انت ـ والحق ـ رحمة الله مهداة لكل الورى تغث وتنجد

❊ ❊ ❊

---

(4) اشارة الى آيات الحجر 16 . 17 . 18 ـ (ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين) الآيات
(5) ارمد ـ هلك وصيره كالرماد

صحبك الاكرمون موكب نور للبرايا شق الطريق وعبد

وعلى جانبيه رص تعاليمك غراء دهرها تتجدد

وعليها عضوا النواجد ، اذ كانت تعاليم للهداية ترشد

ترشد السالكين أقوم سبل وتمد الدنى الرفاه وترغد

وعليها مضى الهداة فنالوا كل خير وحققوا كل مقصد

وعلى هديها المنير اشادوا مأثرات وكل مجد مخلد

* * *

يا اله الورى وانت لنا رب رحيم ، اليك نسعى ونحفد

لا تكلنا الى قوى جلد خار وانت العزيز من شئت تعضد

خذ بايدينا وانشرن ثوب احسانيك واستر عيوب من لك يصمد

وتقبل دعاء من لا يديك شكور ومن بفضلك يعتمد

وتجاوز عن سيئات عبيد في خنوع يعنو اليك ويسجد

واجعل المصطفى لنا نبي شفيعا حين لا يرتجي سوى وجه احمد

وعليه افض صلاتك يا ربي وسلم وعظمنه ومجد

فاس في 26 صفر الخير 1396 هـ
17 فبراير 1976



التزام برسالة الحق

وطني أنت بالعلى والمفاخر ... ذائع الصيت ، عاطر الذكر باهر

لك في ساحة الفخار معال ... شامخات ، مخلدات ، زواهر

نبتت في جذور دهر سحيق ... فاستمرت ، ولم تلن للمخاطر

وتحدت عواصف الدهر حتى ... صار يرعى ركابها ويساير

غرستها يد النبوءة لما ... جاء « ادريس » بالهدى والبشائر

اي نعمى لأرضنا منحتها ... رحمة الله ؛ انعشت كل عاثر

ملة حرة المبادىء مثلى ... هي مصباح كل غاو وحائر

اكمل الله نشأة العقل فيها ... فاهتدى كل عاقل لم يكابر

واتانا كتابها بيقين ... رسم الله فيه خير الشعائر

وقف العقل دونه في خضوع ... يتهجى حروف تلك البصائر

فتهاوى من جوه مستكينا ... لاهثا واهي الجناحين خائر

انها حكمة الاله ازاحت ... كل غي ، وزحزحت كل بائر

رسمت للأنام نهجا أمينا ... مستقيما ، مقدس السر ، طاهر

ليس في خطه التواء ، ولا في ... هديه مطلب عن العدل جائر

شرعة النور والحياة بحق ... عممت بالصلاح كل المظاهر

عانق المغرب السعيد هداها | بعد دهر محلولك متناكر
فأضاءت ربوعه بسناها | وتروت من فيض خير العناصر
واستوى فى ظلالها مستقلا | عربي المصير ، حر العشائر

انبعاث وخلود

وراى الدهر وحدة فى اخاء | مزج العرب سره بالبرابر
فاذا الاطلس العظيم قلاع | تحرس الدين من غزاة اكافر
واذا صيحة الاذان تحيي | دعوة الحق فى القرى والمداشر
والمنارات والمساجد تغشى | كل نجد ، وكل سهل وغائر
وشعاع الحياة يشرق منها | حاملا فى سناه نور المنابر
فاذا الارض بالهداية تحيا | واذا النور فى النهى والضمائر
واذا تلكم العشائر شعب | واحد مضرم العزائم قاهر
هب من رقدة الخمود فاضحى | كتلة صبها على الارض صاهر
حركته الحياة بعد جمود | مثلما قام من بطون المقابر
فكأن السماء حين أرادت | جددت منه كل بال ودائر
فاستوى خلقه جديدا اصيلا | صاغه الله من كريم الجواهر
ومشى ثابت الخطى فى طريق | فالى الله – فى سراطه – سائر
والى وجهة الخلود توالى | سيره غير ناكس غير حاذر

زعامة رائدة

بمصير السلام والحق أمسى | يربط الماضي الكريم بحاضر
يتحدى بدينه كل غوي | ملحد ، قاصد المقاصد ، فاجر
طبع الدين فيه عزة نفس | فتسامى عن تافهات صغائر
وتولى زعامة صار فيها | عبقري النبوغ ، حر البوادر
قاد ركب الهداة فى كل نهج | يشعل النور فى رؤوس المنائر
وينادي : الله أكبر حتى | اخرس الشرك فى مهاد الحواضر
ووراء البحار خلد مجدا | شامخا ، صيته مدى الدهر طائر
يستقي من حضارة النور اصفى | مدد طاهر العناصر فائر
كلمات السماء فيها نشيد | سارب السر فى خفايا السرائر
فطرة الله فى شعور البرايا | ونواميس شرعه المتواتر

وخطـاب من السمـاء كريــم	بارك الارض خيره المتكاثــر
ليس للارض فى سواه فــلاح	لم تجد فى سواه غير المناكــر
أفلس العقل فليتب من جــدال	ينكر الحق وهو كالشمس ظاهــر
نحن خلــق لله ؛ فالله حــق	بين أعماقنا رقيــب وحاضــر
ونصلــي لــه فنشعــر انــا	قد لمسنا من الحجاب الستائــر
ونناجيــه بالــدعاء فنحظــى	من اياديه بالمنــى والذخائــر
هــو للروح راحــة وامــان	من ضياع يحســه كل كافــر
لن تطيب الحيــاة فى البعد يومــا	عنه ، كلا ، ولن تروق المصايــر

قشــــور منبــــوذة

علمتنا حضارة الغــرب حقــا	كيف نزهــا بديننــا ونفاخــر
قد راينا عبادة العقــل فيهــا	كيف القت بأهلها فى الحفائــر
ورأينــا شقاءهــا فى نظــام	متهــاو مستهتــر متناحــر
اصبح الناس فيــه ما بين غــاو	وصريع ــ وبين شاك وساخــر
هم اناس اذا رايت وجوهــا ــ	وبأعماقهم طبــاع الكواســر
قد رمونا بدائهــم فى قشــور	تافهــات مزيفــات بوائــر
ضللونا بها عن الحــق ، لكــن	ديننا يعصم الحصيــف المحــاذر
فلنجانب سموم قــوم مــراض	يستطيبون عيشة فى الحظائــر
ولندع نحلة الشياطين تــردي	اهلها فى مقاصــف ومخابــر
ولتمت بالذي جنتــه يداهــا	فعليها غــدا تــدور الدوائــر
ولنفجر من مصحــف قدســي	طاقة تبهر الزمــان المعاصــر
فالى الوحي من جديــد ، فهــذى	شرعة العقل خربت كل عامــر
والى الله فلنعــد بعد يــاس	من عقــول متيهــات حوائــر

ميــــراث لا نظيــــر لــــه

والى همــة الجــدود فهيــا	والى ساحة الهــدى فلنبــادر
ولنصن هذه الامانــة ، انــا	وارثوها ، فلا نعــق الاوامــر
راية الحــق والجهــاد الينــا	ينتهي حملها بحكم الاواصــر
فلنقدس جــدوة رفعوهــا	وحموها بالمرهفــات البواتــر
وغــزوا تحتها فكانــوا هــداة	وبناة ، لا غاصبيــن قواهــر

بزغوا كالشموس فى كل افـــق وعلى الارض امرعوا كالازاهـــر

واقاموا على العدالـــة حكمـــا فيه رب الحياة نـــاه وعامـــر

مــلأ الارض رحمـــة وسلامـــا ومحا سلطة الطغـــاة الإكاســـر

وحد الناس كلهـــم بالتســـاوى مثلما وحدوا بفطـــرة فاطـــر

ورأى الدهر خير عهد واسمـــى دولة سرت الحجى والنواظـــر

ورأى الحق والحقائـــق فيهـــا فانحنى معجبا بتلـــك المآثـــر

جهـــاد ظافـــر

من هنا ، من سفوحنا ، من ربانـــا ركب الحق متن فلك وحافـــر

فمضى يمسح الظـــلام بنـــور عن صحاري يجوبها وجزائـــر

ومن الاطلس الربـــوض تولـــى ذلك المد كالسيول الزواخـــر

واغاثت عروشنا كـــل صـــوت مستغيث - بسابحات ضوامـــر

وبدانـــا « بطـــارق » فعبرنـــا وسبقنا الى الوغى كـــل عابـــر

واستهلت امجادنا فاستتبـــت يوم « زلاقة » الحتوف البواهـــر

وانتزعنا بوقعة « الارك » نصـــرا من عدو مؤجج الحقـــد غـــادر

وجعلنا نهر « المخازن » يومـــا للطواغيت والعلـــوج مجـــازر

وقطفنا من « الفرنج » رؤوســـا اقبلت كالسيول من كل خـــادر

واطحنـــا بتاجهـــم فتشظـــى ثم دقته فى الوطيس الحوافـــر

ومضى « دون » عبـــرة ونكـــالا ومثالا لكـــل لـــص وواغـــر

عواصـــف التحريـــر

وختمنـــا بجولـــة كان فيهـــا عرشنا رائدا ، وكنـــا هزابـــر

وجعلنا مـــن الفـــداء شعـــارا وسلاحا كانه سحـــر ساحـــر

فطردنا بوحدة الصف جيشـــا ملأ البحر والربى والدساكـــر

ءالة المحق عنـــده ، ولدينـــا قوة العزم الهبت كل جاســـر

فاذا نحن فى حمانـــا كـــرام شرفاء - كما عرفنـــا - اكابـــر

والتحقنا بالركب بعـــد كفـــاح مستطير مؤجج النـــار مائـــر

فكتبنـــا صحائفـــا بهداهـــا يتأســـى ويهتـــدي كل ثائـــر

ذكريـــات نصونهـــا باعتـــزاز ونناجي اصداءهـــا ونسامـــر

خلدتهـــا اجيالنـــا وملـــوك نسلتهم احرارنـــا والحرائـــر

جعلوا من عروشهم للمعالي   ساحة سورها ظبي وشواجر
بسلاح القرآن والعزم سادوا   هذه الارض كابرا اثر كابر

الجولان وسيناء وفلسطين

واعدنا ـ كما بدانا ـ جهدا   فالتقى حاضر الجهاد بغابر
فرفعنا « بالشام » راية عز   وحمينا هضابها والمغاور
وملأنا « جولانها » جولانا   بين قصف من المدافع هادر
وجحيم من القذائف ترمي   كل هول مستفظع متطاير
تتبارى به زواحف صم   كالروابي ، وحائمات طوائر
تقذف النار في حديد وبيل   ماحق مفرط الشراسة ساعر
ترجف الارض منه رجفا مريعا   بدوي تنشق منه المرائر
اي محق هناك بالنار يردي   كل حي من فوهات فواغر
خاضه جيشنا بعزم فابلى   وانجلى الروع عن كماة قساور
شرفوا اطلس البطولة حقا   ولواء كالنجم لاح لناظر
وتقاليد امة ورثوها   شهمة لا تلين منها مكاسر

بطولة باهرة

يا لأبطالنا ، لقد اطربونا   وشفو غيظنا بتلك الزواجر
لقنوا معشر الصهاينين درسا   قاسي الوقع ، مستحر الفواقر
انعشوا مهجة العروبة صدقا   يوم دقوا من اليهود المناخر
ثم صبوا رصاصهم في صدور   حاقدات مقيحات فواجر
واداروا سلاسل الاسر قسرا   فوق اقدامهم وحول المناحر
فبكت أعين الصهاينين نتنى   قطع الله منهمو كل دابر
وتلقت « عجوزهم » صفعات   حين فرت نعاج تلك العساكر
ورأى « أعور » اليهود بعين   فزعا يستفزه ، ويساور
فتداعى لما رأى ما تمنى   كهباء على الثرى متناثر
ورأى ما بناه دكا هديما   تتخطاه زاحفات بواسر
وبدا لليهود ما لم يخالوا   انه واقع بهم من بواقر
لم يفدهم عتادهم حين ولى   عنه جيش مشتت الشمل داخر
مزقت جله بنادق نار   **وحراب مسنونة وخناجر**

ومن الجو يسقطون اذا ما — احرق « السام » طائرات ذواعر
ضربات على اللئام صعاب — قمعت تلكم النفوس الكوافر
افزعتهم واذهلتهم فعادوا — مثلما يعرفون عمشا أصاغر
تلك والله فرحة الدهر رنت — حول اسماعنا رنين المزاهر
ولنا اختها « بسيناء » صارت — حدث الدهر حول تلك المعابر
اطفات فى صدورنا نار غيظ — له كانت ضلوعنا كالمجامر

صمود الى الابد

موقف شرف العروبة حقا — هو فى صفحة البطولة فاخر
بهر العالمين فى كل صقع — خبر عنه طائر الذكر عاطر
اظهر العرب مثلما هم اباة — فى جحيم مسعر الحر زافر
جدعوا فيه انف بغي عنيد — كان فيهم مثل الشجا فى الحناجر
فهم العرب لا يباح حماهم — لعدو ، ولا يذل لواتر
قوة الاقوياء من كل نوع — فاتك ـ ساقها على العرب حاشر
اقبلت تمخر العباب وتطوي — شاسع الجو مثل لمح البواصر
يتوالى بها زفيف سريع — غير وان ، ومعبر غير فاتر
حلفاء « القرود » من كل صقع — ارسلوها كالوبل بالمحق ماطر
وقف العرب دونها فى شموخ — ومن العزم منجد ومؤازر
فاذا هم بالنصر فى خير شهر — هو بالصوم والفتوح يفاخر
واذا ملة السماحة تنجو — من دمار مبيت الشر ماكر
واذا عالم الطواغيت يخزى — مطرقا راجف الفرائص سادر
فرج سرنا ، وساء اناسا — هم علينا مثل الذئاب الكواشر
نصبوا عصبة اليهود وصاروا — بين حام لها ، وساع ، وزامر
ناصبونا بها عداوة حقد — هي فينا مخالب ومناسر
غير انا مدى الزمان سنبقى — عربا مسلمين شما اشاهر

قيادة عصماء

تلك ءايات مجدنا وعلانا — فليقل ما يشاء كل مهاتر
طاطا الدهر راسه لهمام — علوي على العروبة ساهر
قد فداها برايه وبمال — وبجيش من الليوث المساعر

وعتاد من كـل نـوع وسعـي لم يزل يعتني بـه ويجاهـر
لم يدعها تقول هـات ولكـن عجل العون ، والجهـود الكوائـر
ألهـم الله قلبـه فتخطـى حاجزا كان للحقيقـة سـاتـر
قدعا للجهـاد كـل أبـي وغدا فيه ينتحـي ويشـاور
قال للعرب قولة الحـق لمـا حرك الله فيـه تلك المشاعـر
اصبحت حربنا لصهيون حقـا فلنبادر الى الوغى ، ولنصابـر
كيف نبقى مدى الزمـان حيـارى ونناجـي وساطـة ونحـاور
واليهود اللئام بالمكـر صـدوا حقنـا عن مـوارد ومصـادر
واستحلوا محـارم الله لمـا نجسوا « قدسه » بعار الجرائـر
واستباحوا بالهدم منه النواحـي وأباحـوه للقـرود العواهـر

مـواقـف مشـرفـة

جمع الله شمل يعـرب لمـا وجدوا من يريشهم وتظاهـر
ملك المغرب القصي المفـدى عرف الشرق فيه خير مناصـر
ارسل الجيش في مواخر مـوج وعلى طائـرات جـو هـوادر
وتوالت امـداده كـل يـوم منجدا راقـدا بعـزم مثابـر
في سبيل الاله والدين ابـدى خير سعي له المهيمن شاكـر
وبه السن التواريـخ تشـدو وبه اوجه العـروش نواضـر
همم بيضت وجـوه المعالـي في حمانا ، وأبهجت كل خاطـر
واقـرت لعرشنـا بأيـاد وجميـل على الحضارة وافـر

الملـك العبقـري

تلك اخلاقنـا بهـا نتحلـى ونوالـي اخواننـا ونعاشـر
تلـك عادتنا بهـا نتأسـى وتباهي أسلافنـا والاواخـر
حسنـات لشعبنـا باقيـات لم تشبها مدى الزمان حقائـر
جمع الله سرهـا في امـام عبقري، من عنصر الطهر صـادر
خير من دبر الشعوب بصـدق في نـواه حكيمـة واوامـر
وتحدى شراشر الخطب حتـى حسمت همة الهمام الشراشـر
جرد العزم أطلسيـا اصيـلا فاذا الخطب عن مناله قاصـر
واذا العرش عرشه في قلـوب هي بالحب خافقـات عوامـر

واذا الشرق والمغارب تهوى … حسنات حديثها متواتر

واذا الارض كلها تتناجى … بمزايا أعماله ، وتحاضر

توجته العلى بأنفس تاج … من فخار مرصع بالمآثر

ثم ألقت اليه بهمة دهر … معجب هائم ، لفضله ذاكر

فاستوى في معارج العز فردا … خالد الذكر ، شامخ القدر ، ظافر

القافلة تسير

كيف يرقى الى علائه وهم … او يدانيه في السيادة صاغر ؟

شأوه سابق ؛ فهيهات يدنو … منه طاغ ، وحاقد ، ومغامر

كيف يدنو من شأوه من يرابي … بشعار مزيف ، ويقامر ؟

وينادي بشعبه في مزاد … ربحه ساقط خسيس وخاسر

ها هنا ، لو دروا ، همام أصيل … اريحي عن التوافه نافر

انطقتنا امجاده فنطقنا … تتغنى بحسنها وتناظر

واحد العصر لا أرى له كفا … كل انثى بمثله اليوم عاقر

ليس بدعامه المقال ولكن … هو حق برغم انف المكابر

فبراهينه الصحاح تناجي … كل فكر بحقها وتخامر

الف حمد والف شكر لرب … فيه اسدى ذخيرة بل ذخائر

وحبانا به اماما امينا … طاهر الذيل ، سالم الصدر ، صابر

ودعانا الى التعاون حتى … رق جاف ، وقر شاك وذاعر

فالتقى شعبنا على كل بر … وتلاقت اعضاده والخناصر

بناء وتصنيع

فشهرنا على التخلف حربا … بين حقل ومعمل وبيادر

وسواق من السدود جوار … ورياض بالعلم خضر زواهر

منشآت حديثها مستفيض … بأسانيد عن عيون نواظر

حسنات من المليك المفدى … هو فيها عن ساعد الجد حاسر

تتباهى بصنعه معجبات … بوجوه مستبشرات سوافر

مسيرة الفتح الخضراء

ودعانا الى مسيرة فتح … فزحفنا من القرى والحواضر

ودفعنا كالموج ما له شط … او لهام كالسيل ما له آخر

واستعدنا صحراءنا ؛ فقهرنا ... كل مكر مخافت او مجاهر

وثبة هزت البسيطة هزا ... واسالت مداد كل المحابر

صكت الارض صكة فاجابها ... بعجاب لم يجر في اي خاطر

ابدعت سره قريحة شهم ... ملهم صادق الرؤى والمشاعر

هاشمي واطلسي صميم ... من نجار موفر السر نادر

حرك الشعب كيف شاء فلبى ... سامعا مضرم المشاعر ثائر

فتداعى الى تخوم الصحارى ... و « عيون » بها تسر النواظر

ومضى يقطع القفار ويطوي ... كل وعر بعزم شهم مهاجر

وتخطى حواجز الفصل حتى ... صار في ساحة الصحاري محاور

وغدا حلمنا حقيقة حق ... قد تلقته بالهتاف العقائر

وفتحنا ، لا بالسلاح ولكن ... بكتاب مقدس وبصائر

وحماس قد رصنا فانتصرنا ... وسجدنا لله سجدة شاكر

فالتقى ـ بغتة ـ شمال قصي ... بجنوب ، وعاد ربط الاواصر

ومحا الله فرقة بقضاء ... منه حتم معجل متبادر

واعيد الفخار غضا طريا ... مثلما كان في عهود غوابر

وتناجى كل الانام بفتح ... فعل السلم فيه فعل البواتر

تلك أعجوبة الاعاجيب حقا ... لمليك دعا ، وشعب مبادر

ايد الله بالنجاح صنيعا ... منهما في موارد ومصادر

فانتشى بالسرور كل فؤاد ... وتوالت من « العيون » البشائر

ولاء لن ينفصم

يا سليل الرسول يا خير بشرى ... يا أمانا من داهيات كبائر

حسن انت في المحاسن فرد ... وسراج بخالص النور زاهر

وأمين على الامانة يرجى ... منه للدين ما يسر الخواطر

نحن مولاي بالصفاء نوالي ... خير بيت في الارض سام وطاهر

بيت ءال الرسول ، أكرم بيت ... لا نحابي في حقهم أو نداور

ونوالي امامة الحق فيهم ... واليكم تراثها اليوم صائر

ابتهجنا بعيد عرشك لما ... صار في هامة المعالي ضفائر

وسررنا بما صنعت لدنيا ... ولدين ، لشرعه انت ناصر

ويد منك تبذل العون جمعا ... لفلسطين ، والفداة الغضافر

لك في كـل موقف حسنـــات تتلافى خصاصـة وخسائـر

قد رأيناك ساعيـا في وئـام والى وحدة الصفـوف تبـادر

وسمعنـاك للحقائـق تدعـو كـل لاه وغافـل ومنـاور

ليس تحصي لك المآثر يا مـن هو من أنفس المنى والمفاخـر

كيف يحصى سجل تلك المزايـا وهو السيل بالمناقب زاخـر ؟

كل أيامك الحسـان الغوالـي هـي أعيـاد عـزة وبشائـر

فلتعش في كـلاءة الله يا مـن فلك المجد حوله اليوم دائـر

وليصنك الاله من كـل ريـب وليمت حاقـدو باغ وغـادر

وليبـارك ولـي عهـدك رب عادل الحكم ، باهر الصنع ، قاهـر

الرباط : المدني الحمراوي





لست ادري ... اي عيد يتسامى ؟ — اي بشرى تغمر الشعب ابتساما ؟

اي ذكرى ، هدهدت مجتمعي — فمضى يستلهم الذكرى نظاما ؟

ذاك عيد العرش ، في خمس وعشر — ام رسالاتك في عشرين عاما ؟

جل عيد العرش ان يحسب ذكرى — وهو مع طول المدى ، يبني الدواما

انما الذكرى لماض مدبر — نتناجاه حنينا وغراما

يتسلى القلب من اطيافه — في احاديث السهارى والندامى

كرؤى الاحلام في حلو الكرى — كلما حن لها اليقظان ناما

انما العرش امتداد ، دافق — ازلي ، زحفه راع الاناما

نحن عمر من شباب صارخ — في دمانا ليس يدري الانهزاما

كبرياء المجد في أصلابنا — علمتنا كيف لا نخفض هاما

وأصيل العرق ، في اوصالنا — عود المغرب ان يرعى الذماما

وصفاء للروح في اخلاقنا — شاء ان نمضي على اللغو كراما

والامتنات ، وما اعظمها — تركتنا نتفادى الانقساما

والجراحات ، وما اعمقها — سوف تلقى بيدنا الالتئاما

والاصالات التي نسمو بها — في البرايا ... جعلتنا نتسامى

وكفى لاقزام خزيا ... اننا — قد بلغنا في مرامينا المراما

ومضت قافلة الزحف بنا — فضمنا للحشاشات الضماما

* * *

يا ملاذ الحر ، فى هذا الحمى   جئت فى عيدك ، اقريك السلاما

فى بلاد ، حبها ، فى اضلعي   لم تزل جذوته تذكي الضراما

وربوع ، طافحات بالوفا   ولصقا ، اضحى لها النبل التزاما

صان ، صناع البقا أقدارها   فمضت بالعزم تجتاح الظلاما

ساخرات بالشعارات التى   جوعت شعبا ، وغذته كلاما

ها هنا الجد ، وفى هذا الحمى   يرجح العقل اتزانا واعتزاما

بلد يخضر فى صحرائه   بالمسيرات ، اعتدالا والتحاما

فوضت فيه الملايين الى   وازع العقل ، اقتضاء واحتكاما

فقضى العقل ... وسادت حكمة   قعد الدهر لعقباها وقاما

من يكن يجنح للسلم فقد .   عاش هذا الشعب للسلم ، حماما

او يكن ينوي بنا الغدر ، فمن   هم بالغدر نجرعه الحماما

هكذا علمنا ايماننا   أن نرد السهم ، لا ترمي السهاما

فضربنا للبرايا مثلا   عن حجانا ، فانتزعنا الاحتراما

* * *

قتل الانسان ما اكفره   لم يزل بالبغى صبا مستهاما

دنس الكرسي فيه ذمة   فتردى ، يحسب الاسد نعاما

وطغى فى الارض ، لم تربا به   عفة ، ان يبلع الرزق الحراما

رب .. رحماك لقوم ، دمهم   من دمي ... باتوا ايامى ويتامى

عاث فى أقدارهم ، جلادهم   وذئاب جائعات ، تترامى

ادهشوا الدنيا ، وقد ادهشهم   ثعلب عاث امتهانا ، واجراما

وغبي ، عقله فى اذنه   وغرير ــ بعد ــ لم يبلغ فطاما

ايها السادر فى غلوائه   ان للمظلوم عينا لن تناما

ان للحق قصاصا عادلا   يصرع الظلم ، ويجتث الطغاما

وسليمان ، على منساته   ارعب الجن ... وقد خر حطاما

فاختنقوا الانفاس ماشاء لكم   رعبكم ... قد كشف الدهر اللثاما

امعنوا ما شئتمو ... غير فمي   وضميري فهو يأبى أن يضاما

سل نضالي والفدا فى وطني   كيف غالبت الردى خمسين عاما

وذروتي ذرف الدمع على   وحدة ، فى حبها ذبت هياما

كم شغلت الناس والدنيا بها   يوم كان البعض عنها يتعامى

وتغنيت بها طول المدى ... ومن الناس تمناها احتشاما
فاذا الوحدة حلم ضائع ... وسحاب لم يكن الا جهاما
وخيال من خيالات الرؤى ... وسراب من أساطير القدامى
واذا الشعب ، تولى أمرها ... كانت الوحدة حقا ولزاما
ورجال لحكم ... اما اخلصوا ... واستقاموا وتفادوا الانقساما
وتخلى البعض عن اطماعه ... واطاع الحسن الحر الهماما
كانت الوحدة في مغربنا ... مثلا أعلى ، وحبا ووئاما

الدار البيضاء : مفدي زكريا



ذاتية الاسلام (*)

ذكرى مولد الرسول

للشاعر عبد اللطيف خالص

ذكرى تجدد للنفوس معانيها ... يزهو الزمان بنورها متهاديا

وتعيد للايمان عهد بزوغه ... وتقيم للوجدان صرحا راسيا

وتثير فى الأعماق قدس مشاعر ... وتخط للانسان نهجا باديا

وتبث فى روع الحيارى حكمة ... يغدو بها القلب المروع صافيا

ويجول فى اسرارها متمليا ... فكر يتوق الى الهداية ساعيا

* * *

فى مثل هذا اليوم ضاء وجودنا ... وازدانت الدنيا بهاء ساميا

وتوالت الافراح فى ارجائه ... وكسا السرور حواضرا وبواديا

وافتر ثغر الكون ببسم روعة ... وبدا جماله للبصائر زاهيا

وعرا الجزيرة فى صباح باسم ... قبس من الرحمان يمحو الداجيا

جاء الرسول مناديا بعقيدة ... ورسالة عظمى بشيرا داعيا

يهدى البرية لاعتقاد طاهر ... يسمو به العقل المفكر عاليا

ويحرر الانسان من نير الهوى ... ويقوده نحو الهدى متفانيا

ويهد الشرك البغيض معاقلا ... خابت خيال الغافلين الباليا

حتى غدا الالحاد رسما دارسا ... وعبادة الاصنام امرا نابيا

وانهار الاستبداد رغم رسوخه ... وانهد اس بنائه متداعيا

فاذا البرية اشرقت ارجاؤها ... وتوطدت فيها الحقوق رواسيا

(*) ذاتية الاسلام : « نظمت رابطة المجودين حفلا دينيا بمناسبة عيد المولد النبوي واقترنت هذه الذكرى بمرور أربعة عشر قرنا على البعثة المحمدية وقد استدعي الشاعر للمشاركة بقصيدة القيت فى هذا الحفل الذى نقل على شاشة التلفزة وامواج الأثير .

وتحققت احلامهـا فـى بعثـة عرجت بها نحو السمو مراقيـا
وتحـررت أفكارهـا وتوحـدت تدعو وتعبد ذا الجلال الباريـا

* * *

مبادىء الاسلام

قل للذيـن تنكـروا لعقيـدة اسلام واعتاضوا المتاع الفانيـا
اسلامنا فـاق المذاهب رحمـة وعدالة بيـن الورى وتساويـا
وتقاربا بيـن الشعـوب ووحدة ، وتناصرا ، وتـآزرا ، وتآخيـا
وتماسكا بين الصفوف ، وثـورة مفعولها فى الدهر يبقى ساريـا
وتسامحا يحمـى أواصـر أمة ويقيم مجتمعا سلميـا راسيـا
وسياسة ترضي الحقوق وتبتنـي بقواعد التشريع حصنـا واقيـا
فالأمر شورى والنظـام تـوازن بيـن الفئـات تعاقبا وتواليـا
والمـال يحفظ فـى البلاد تداولا وتبادلا حـرا ونقدا جاريـا
والدين مسموح بـه مالم يكـن قصد المدين تجارة وترابيـا
والأغنيـاء مقربـون اذا وعـوا حق الفقير وقربـوه تدانيـا
والأغنياء مبـاح ان يتملكوا الـ ـمال الحلال ولو تكدس وافيـا
لكن بشرط اداء حق اللـه فـى ذا المال كي يبقى وفيـرا زاكيـا
والبائسون حقوقهـم مضمونـة اللـه اعطاهـا النظـام مثاليـا
ان الزكـاة فريضة موقوتـة تنفـى شرورا جمـة ومآسيـا
وتقى البـلاد مـن اضطراب فادح وتصد عنها المستقبـل الباقيـا

* * *

نكبة وخـلاف

يا خير من حمل الرخـاء لامـة قد قدرتـه حواضـرا وبواديـا
قد جئت تدعو المسلميـن لوحـدة تبني صفوفهـم بنـاء راسيـا
ونفخت الاستشهاد فى ارواحهـم وملأت انفسهـم يقينـا صافيـا
لكنهم حادوا فصاروا فـى الـورى شعبا ضعيفا فى العوالـم وانيـا
وتحكم الأعـداء فـى أوطانهـم واستعمروهم انفسـا واراضيـا
يارب قـد عظم المصاب فداحـة وخطـورة وتحديـا متماديـا
ان احتلال القدس اخزى وصمـة تصم العروبة حاضـرا او ماضيا
ان احتـلال القدس أقـى نكبـة حلت بنا وقضت قضـاء عاتيـا

ان احتلال القدس امر واقـع ... نـال اليهود به المنال النائيا
ما حل بالاسلام خطب مثلـه ... فاق الخطوب فداحة ودواهيا
فالصخرة القعساء تندب حظها ... والقبلة الأولى ترجي الفاديا
والمسجد الاقصى المقدس اضرموا الـ ... ـنيران فيه ولوثوه مخازيا
ومراقد الرسل الكرام تلوثـت ... منهم بأفظع ما يثير الباكيا
وعلت تباريح الاهالي ضجة ... نكراء تخضع هامة ونواصيا
وعلا صراخ المسلمين جميع انـ ... ـحاء البلاد اقاصيا وادانيا
لكن – وأسفاه – لم يعبأ بهم ... احد وصار الامر حكما ماضيا

* * *

طرق النجاة

كيف النجاة وقد تآمرت القوى ... وتجمع الأعداء صفا عاتيا ؟
لا حول للعرب الضعاف لصدهم ... الا الصراخ يرددونه عاليا
وتبادل التهم الرخيصة بينهم ... وتقلب فى الوضع يغرى العاديا
والعرب ليس لهم سوى الشكوى الى ... من ليس يرحم باكيا او شاكيا
ان النجاة لفى التطور اولا ... للمسلمين الصادقين وثانيا
أن النجاة لفى التطور اولا ... حسب الظروف وفى التآخي حاليا
ان النجاة لفى التطور عقليا ... وثقافيا وصناعيا وسياسيا
وتحول فى فكرنا المضنى وما ... يجتر من شر الرواسب راضيا
ان النجاة لفى الرجوع لسنة الـ ... ـاسلام كي تهدي الضمير الغاويا
واداء ما أمر الالاه بفعله ... فى الدين والدنيا الأداء الشافيا
وتسابق نحو التقدم والعلا ... نرمى به عنا الخمول الوانيا
ونشد أزر صفوفنا فى وحدة ... ننلنا بها الأمجاد دهرا خاليا
ونروم اصلاح البلاد وجيشها ... ونعده للعاديات معاديا
وبالاقتصاد الحر نرفع شأننا ... ونقي البلاد تاخرا وتوانيا
ونجنب الأوطان شر مذاهب ... سلبت فؤاد الجاهلين الخاويا
فالقوميات المحدثات ندوسها ... ونعدها شرا أتانا غازيا
والاشتراكيات شر كامن ... ونقيضها حمل الهلاك القاضيا
والاشتراكيات اغنى الله عنهـ ... ـا بالزكاة المسلمين تفاديا
لا شرق يغرينا بزخرف قوله ... لشعاره الأفاك ما انفك داعيا

لا شرق يقربنـا ولا غرب فكـ ـل يبتغينا ان تكـون مواليـا
ان الخلاص اذا أردنا العـز ان ندع التحالف يمنـة وشماليـا
ونذود عن أوطاننا فـي وحـدة كبـرى ونرفـع للنهوض صياصيا
ونعيد للاسـلام نـور جمالـه وجلالـه متالقـا متعاليـا
ونجنـب الأوطـان شر مذاهب مجلوبة وجـدت فـؤادا خاليـا
ونكـون اهلا لانتصـار قـادم وننـال آمـالا بـه وامانيـا
ونحرر القدس الشريـف واهلـه ونصد عن أرض العروبة غازيـا

* * *

ابتهـال

يامنقـذ الانسان مـن عثراتـه وملقن الامـلاء درسـا راقيـا
جـاء الكتاب منوها بـك مثنيا وكفى بذلـك مفخـرا وتباهيـا
فثناء ربك خير مـدح يرتجـى اعلى مقامك في الخليقـة ساميـا
مارام مدحك بعـده ذو مقـول الا وكان العجـز منـه باديـا
قد صار حبك غايتـي ومحجتـي وهداي فيما أرتجـي ومراميـا
فاقبل عواطف مستهـام « خالص » عبث الهيام به فصـاح مناديـا :
يا خير مـن عم البريـة نـوره ونواله غمـر العوالـم طاميـا
اني قصدتك خاشعـا متضرعـا وطرقت بابك للشفاعـة راجيـا
وطرحت نفسي فـي ذراك محبـة وتعلقـا وتشبثـا وتفانيـا
انـي غـررت من الحياة بزخرف فان وصفت مـن الطموح أمانيـا
وهممت بالدنيا أريـد حطامهـا وعـددت مافيهـا متاعا باقيـا
وطلبت في دار الشقـاء سعـادة وتركت الأخرى غافـلا متلاهيـا
ولئـن دعاك المتقـون تقربـا فانا دعوتك مستجيرا عاصيـا
قدمت في ذكراك ياخيـر الـورى صدق المشاعر صغتهن قوافيـا
وتلوت شعري في المحافل آمـلا منك الشفاعة مستغيثـا قانيـا
فارحم غروري انني بـك واثـق واجب ندائـي رأفـة ودعائيـا
وامنن على الشرق الشقيق بنفحـة تذكي حماسته وتوقـظ غافيـا
وتهيب لاسترجاع مجـد ضائـع يضفي على الاسلام نـورا ساريـا
وانصر امير المومنيـن امامنـا ومليكنا الحسن الهمـام الثانيـا
واحفظ ولـي العهـد رمـز بقائنـا ورشيدنا المحبوب حفظـا واقيـا

الرباط : عبد اللطيف خالص

الاستعداد بمدح سيد الأسياد

على نهج بانت سعاد

للشاعر محمد محمد العلمي

قلبي يحب رسول الله مشغول   والروح مني لتاج الحسن تقبيل

اني أرى وجهه بالبشر يبسم لي   ان شاقني لكتاب الله ترتيل

ذاك لجلال هدى روحي وهديها ،   فهزها في جمال الطهر تبتيل

فالنور من أحمد الهادي استبان وقد   ناداه بالوحي والفرقان جبريل

وفي أحاديثه ذكرى وموعظة ،   فكل لفظ من الالفاظ قنديل

ومنذ آدم والاجيال اجمعها   جيل دعاه لعيد المصطفى جيل

ان الحبيب الذي من أجله خلقت   كل العوالم للأمجاد تأثيل

يكفي قريشا به فخرا ومنقبة ،   فشملها بظهور الحق مشمول

يسائل الكون عنه همة وسعت   نيل الرسالة ، والانسان مسؤول

أطوي العصور الى ميلاده ، فأنا   شوق وعشق وتكبير وتهليل

في عيد مولده فجر يبشرنا   به زبور ، وتوراة ، وانجيل

كثافتي صرت انساها وانزعها ،   وفي اللطافة وجه الحق مصقول

هناك في المنبع الصافي وكوثره   غمست روحي ، ووافتني الاكاليل

هناك أصل الهدى للكون اجمعه   يجلو الدياجي ، فتنجاب الاضاليل

والحق جاء لكل الناس ينقذهم   من الضياع ، فلم تبق الأباطيل

محمد من حروف النور تكتبه — يد الاله ، وروض الانس ماهول
ووحدة الحب والمحبوب ظاهرة — فى كل شيء ، وللآيات تفصيل
نفسي فداء حبيب كنت أعشقه — قبل ازديادي ، وعهد العشق موصول
رسالة الحق أداها ، فواصلها — اهل الحجى ، ولذاك السر مدلول
وتلك حجة رب العالمين لقد — حارت لادراك فحواها التحاليل
على الوجود ، وفى معناه تأصيل — محمد جوهر فرد تصول به
تلك الامانة ترويها وتحفظها — اجيالنا ، وعليها الطبع مجبول
ان التنوع فى التوحيد قاعدة — عن غيرها جوهر الاسلام مفصول
للدين قطعا سوى الاسلام نسلكه — اذ فيه للروح تقويم وتعديل
وكيف لا ، ورسول الله بلغه ؟! — والحق دوما عليه صح تعويل
والله فصل فى القرآن شرعته ، — والسر قد ضمه ذكر وتنزيل
ندعو لتوعية فى الدين شاملة — حتى يزول بها غي وتدجيل
(ان الرسول لسيف يستضاء به — مهند من سيوف الله مسلول)
وغيرة المصطفى تدعو عزائمنا ، — فنحن اجناده الغر البهاليل
شم الأنوف ، أسود فى معاركنا — يحيي ضمائرنا بالنصر تعجيل
وصفنا واحد عند الفداء ، فلا — يرضي جحافلنا فى الباس تأجيل

❊ ❊ ❊

يا سيدى يا رسول الله ، أنت لنا — عزم ، وحزم ، وتوحيد وتكتيل
اعطيتنا المثل الاعلى لنتبعه ، — قرآننا منك للامجاد تخويل
وسبطك (الحسن الثاني) بغيرته — على المحارم فى الايثار محمول
فى كل قلب له رسم يرصعه — نور ، وينقشه بالحب ازميل
احيا لنا نخوة الأجداد ، اذ هتفت — به على مسمع الدنيا الاماثيل
وجنده من جنود الله منتصر — على الطغاة ، وسيف الغدر مغلول
توجيهه حكمة نصغي لروعتها ، — والحر منطقه بالحق معسول
من المحيط الى اقصى الخليج له — عز ومحمد وتقدير وتبجيل
ادى الأمانة فى (الجولان) محسبا ، — وعند (سيناء) للابطال تسجيل
و (خط بارليف) قد زالت خرافته ، — والكفر من شدة الزلزال مخبول
و (الأطلس) الحر في أبطاله ظهرت — خوارق لهمو منها سرابيل
كم كحلوا بضياء العرش اعينهم ! — والعين قد زانها بالعرش تكحيل

ففيه للعسر تيسير ، وفيه لنا — فوق العوالم رايات واكليل

يشيد شعبا قويا في أصالته ، — وخصمه مظلم الوجدان ، مهزول

فنحن بعث وانماء لمغربنا ، — وساعد من طموح الشعب مفتول

ونحن نعمل في الورش الكبير ، وقد — سما بنا لبناء الصرح تشغيل

نرجو الكفاية في استثمار ثروتنا ، — ورمزنا اليوم اتقان وتاهيل

وفي مسيرتنا الكبرى وموكبها — منا المحاصيل تزكو والمداخيل

للعرش والشعب ميثاق تعز به ، — فنحن في وعينا حزم وتوكيل

وتحت رايتنا الصحراء قد عرفت — تحريرها ، فهو للتوحيد تكميل

والمغرب الحر لا يرضى اصالته — عبر التواريخ تقسيم وتذليل

روائع (الحسن الثاني) ، بدائعه ، — فيها لامجادنا الغراء تخضيل

في (قمة برباط الفتح) بايعه — اخوانه ، فانجلى للصعب تسهيل

والعرس ضم (فلسطين) الحبيبة في — احضانه ، وشهود الحق تكفيل

وفي مسيرتنا الخضراء قد بعثت — أمجادنا ، ولسان الحمد ترسيل

* * *

يا عمدة الكون ، ياروح الجواهر ، جد — فالفوز منك لمن يرجوه مامول

ان كان (كعب) اتى بالذنب معترفا ، — فانت للعفو مبعوث ومجعول

وان (بانت سعاد) فيه شافعة ، — والبرد منك له ستر وتزميل

تلك المليحة اضحى حسنها عجبا ، — (لا يشتكى قصر منها ولا طول)

ياحبذا مثل منه بشر فتى — اذ راقني من معاني النبل تمثيل :

(خطري) من (الحسن) المستلهم شرفه ، — وفي (البشير) انفتاح القلب معقول

يا سيدي يا رسول الله جئتك في — قريحة شاقها للوصل تحصيل

أنت الخلاص الذي نرجو عوارفه ، — فان رضيت فان العز مكفول

أنت الشفيع الذي في ظل رحمته — تمحى الخطايا ، فستر العفو مسدول

يا رأس مالي ، ويا كنزي الوحيد اذا — ما اعوزتني من الربح الرساميل

انت الرصيد الذي عزت نفائسه — دينا ودنيا ، ومنك الفضل تمويل

تسعى الى سيد السادات في لهف — قلوبنا ، فهي للبشرى مراسيل

ماخاب من قصد الهادي وساحته ، — ففيه للخير والمعروف تنويل

عند السجود فؤاد العبد مقترب — من ربه ودعاء القلب مقبول

الرباط محمد العلمي



حقق الملك نعمة التوحيد ... ومحا العرش باليات الحدود

واقرت لنا العدالة بالحق ... فعدنا لارضنا من جديد

اي نعمى لدى المواطن اغلى ... من بلوغ المنى وكسر القيود

قد اعادت لنا المسيرة اهلا ... واسترد الحمى مناطق بيد

وارينا الانام فى كل صقع ... كيف نفشى الوغى بغير حديد

وبدا الحق مشرقا يتلالا ... فوق أرض الحمى وماوى الاسود

حصحص الحق يا بلاد فتيهي ... وارقصي راية البلاد وزيدي

انت للمجد للعلى لفخار ... أنت للعز للبقا للخلود

قد حباك الاله نجما فريدا ... فانثري النور من بهاك الفريد

وجدير أن تفخري وتباهي ... فى سماء العلى جميع البنود

رفرفي حرة وتيهي افتخارا ... واطربي فرحة بأرقى العهود

قد بلغنا به المراد ونلنا ... عيشة العز والفخار العتيد

قد بلغنا المراد فى ظل عرش ... مشمخر البنا عظيم الجهود

وبلغنا المنى بفضل مليك ... دابه فى الحياة فك القيود

قد حباه الاله رأيا سديدا ... فأنار الحمى برأي سديد

وارانا مواكب النصر تجتـــا ز رمال الحمى لتحرير بيـــد
قد دعاها مليكنــا فاستجابـــت **لندا المجد** والنضال الحميـــد

* * *

راية النصر رفرفي واعيـــدي نحن في فرحة واكبـر عيـــد
رفرفي في العيون في كل صقـع من تراب الحمى وارض الجـدود
رفرفي فوق موطن المجد تيهـــا وارقصي في سما عرين الاســود
نحن حول العصا نرابط حتـــى باذن الملك بانطـلاق جديـــد

* * *

ربة الشعر زغـردي واعيـــدي وارقصي في ظلال عـرش مجيـد
حقق النصر للحمـى وارانـــا ثمرات الفدا وبـذل الجهـــود
نحن من حوله نكافـح حتـــى يسترد الحمى جميع الحـــدود
نحن خلف الهمام خلف المفـدى ابد الدهر من كبـار الجنـــود
كم حبا هذه المواطـن عطفـــا ابويا وكـم بنـى من سـدود
كم حباها من المفاخـر مجـــدا يتـلالا بكـل نحـر وجيـــد
كم ديار للعلم شـاد فاعطـــت ثمرات الحجـى لكـل مريـــد
كم اياد بيضاء للملـك تبـــدو في سهول الحمى وفوق النجـود

* * *

يابلاد الجـدود حلـك عيـــد هو ابهى من الف عيـد وعيـــد
قد اتى والنفـوس ترفـل في العـــز وتشدو روائـع التمجيـــد
اي ارض كارضـنـا تنجـب الاســـد وترعى حقوق بيض وســـود
خلقـت للسـلام والعـدل والحـــق ورد العدا وكسـر القيـــود
ما راينا لولا المسيـرة قومـــا يرجعون الثرى بغير الحديـــد
يا لخضراء هزت الكـون لمـــا اذن الملك باقتحـام الحـــدود
يا لها من مسيـرة ظللتهـــا في طريق الفدا حمـر البنـــود
حفهـا الله بالعنايـة والفـــو ز فاعطت ثمار بـذل الجهـــود

* * *

يا أبا الشعب والمسيرة والنصر وحامي الحمى وباني السدود

ما لما شيدت يمينك للنا س شبيه ولا له من نديد

كل يوم نراك تسلك بالشعب طريق العلى ونهج الخلود

وهب الله ارضنا بك مجدا وحباها الطريف بعد التليد

ومنحت الصحراء منك اهتماما فغدت كالعروس فى يوم عيد

تتجلى للناظرين وتبدو فى شفوف قشيبة وبرود

عمها من بهاء ملكك نور يتلألا من تاجك المعقود

أنت حررتها وانشات فيها لبنيها الاباة كل مفيد

فرح الناس كلهم يوم عادت بك يابن الرسول ارض الجدود

ورأينا العيون ترقص نشوى وتغني بعهدك المحمود

هكذا شئت للبلاد فاضحت جنة تشتهى لعيش رغيد

عش لدين وامة وبلاد أنت فيها محقق التوحيد

وليدم شبلك الولي لعهد فى سمو ورفعة وصعود

فاس : محمد بن علي العلوي





امولاي ذكراك عيد لنا تعانق فيها جمال الحياة
تهز المشاعر فى عمقها تحرك فى قلبها الاغنيات
حملت ورودي وها انا ذا اعانق فيك جمال الصفات
زرعت البطولة فى ارضنا وبرهنت عن اخلص التضحيات
وردفت نصرا على نصرنا وهبت لامتى اغلى هبات
فنصرك نصر لنا فى المدى وعرشك فى قلبنا لؤلؤات
لانت ملاك الرضى بيننا فعاشت بلادي برغم الغزاة
ستلقى المسيرة اجيالنا تحدثها عنك بالمعجزات
ويبقى بها السلم فى مغرب يزغرد خلف الربوع المثمرات
ويسري مع الشمس فوق الضحى وفوق التلال وفوق الحصاة
تركت على صفحات الهدى خلودا لاعمالك الطيبات
حققت اماني الشعوب التي تسير بحق الى المكرمات
وكذبت من قال فى عصرنا ستجدي المدافع والقنبلات
يحالفك النصر فى عزه فيما هو ماض وما هو آت
من المغرب الحر ارواحنا حمام السلام لنهر الفرات

وهبت رمال غداة اللقاء   تغني لمولاي .. بعث الحياة

فانت الذي دق ناقوسها   وايقظ تلك الربى من سبات

ودوت فى ليلها مقلة   وعطرت فى فجرها الامنيات

همست بروحك فى سمعها   افاقت على رجعها ذكريات

اصحراء ياقدسنا المفتدى   ومهد النضال ومهد الاباة

علمت فؤادي معاني الهوى   علمت بلادي معاني الثبات

سيحمر شوق فؤادي الى   عيون البلاد ورمش الفلاة

تبعت الحقائق فى حبها   تبعت الخيال لعمق الحصاة

وهامت على رملها خطوتي   فمن فلوات ، الى فلوات

وما زلت اسبح فى رملها   الى ان تودعني الخطوات

وبين التلال ارى جارتي   تضيق عليها سبيل النجاة

فكذبت فيما ارى مقلتي   وان صفعتني هنا صفعات

واطلقت فى افقها صيحتي :   اتصبح وحدتنا فى شتات ؟ !

اتغدرني اختي ، يا ويحتي   وتطلق فى قلبي الطلقات ؟!

وكدت القنها غضبتي   وتجمد فى ثغري البسمات

ولكن عرفت الايادي التي   تهدمنا من وراء القناة

فحملتها طيشها فى المدى   ومر لعواقب .. والازمات

ورددت فى سمعها همستي   اخوك ، اخوك ، عليك استمات

حذاري العداوة مابيننا   فاني حنون على الاخوات

الى ذارنا نستحث الخطى   « فاما الحياة واما الممات »

وهذي الملامح فى ظهرها   كما كنت يا اصلها لم تزل

يطل « المرابط » من جفنها   وتعطي بطبعها منه المثل

وتحكي رمالك عن نصرها   وتحكي الهضاب ويحكي الجبل

اخي فى الرمال اذا ضمنا   وضمك منا الهوى لا تسل !

وطالت علينا سنون النوى   واحرقنا شوقنا ، ما العمل ؟

وتمت ـ برغم العدى ـ وحدة ..   واشعلنا فيها منار الامل

وطارت من الفـرح ارواحنـا تحيي الامـام اذا مـا وصـل
وابصرت نور النبـي الهـدى ولم تستطع ان تـراه المقـل
فـذاك المعظـم عاهلنـا فامطـر عليه مئـات القبـل
ودور هتافك فـي موكـب تصعـده عركيـات العجـل
فهـذا اللقـاء فخـار لنـا وهـذا اللقـاء لقـاء الازل
اهيـىء شعبـي لفرحاتـه وشعبي يسبـق طيف الاجـل
قدعنـا تصافـح آمالنـا ونسبح فـي نيـرات الغـزل

وهام بـي الشعر فـي زورق وهمـت عليـه الـى ان وقف
اناجي خيالي ومـا مـر بـي اناجي حياتي وما قـد سلف
تلامس قلبـي شفـاة المنـى ويثلج صدري بلـوغ الهـدف
اخي في المشاعـر أن مسنـا ومسـك عبقرهـا لاتخـف
فتلك السعـادة فـي اوجهـا هناك هنـاك علـى منعطـف
تكاد الزهيـرات مـن حولهـا تطير اشتياقا الـى مـن عطف
وهذي النجيمات فـي افقهـا عرائس شمس لبـدر تـزف
وفـي عيـدك الان جمعتهـا اجهز منها عـروس الشـرف
تدانـت لمـولاي وداتنـا ليقطـف منهـن ما يقتطـف
امـولاي ذكـراك عيـد لنـا نجـدد فيهـا الهدى المعترف
ولكن حبـك فـي عمقنـا يفـوق البـراع ومهما وصف
فحبك يارائـدي فـي المدى عقيـدة شعـب عليها حلـف
سنمضي جميعا علـى دربهـا ويمضي على نهجها مـن خلـف
فدمـت عظيمـا قريـر الرؤى برمـز الامـارة رمـز الشرف
يعانقـك الخلد فـي حظنـه وباسمك شعـب ابـي هتـف ٪

مراكش : العلوي بدور حسن

أبو الحسن علي الصغير بن عبد الحق الزرويلي

للأستاذ محمد العلمي حمدان

منذ تولي المرينيون حكم المغرب ، وعنايتهم بالدين والعلماء من رجاله شغلهم الشاغل . من اجل ذلك قربوا اليهم الفقهاء ، واسندوا اليهم كثيرا من مناصب الدولة داخل القصور وخارجها لكتابتهم واستشاراتهم وتربية ولاة العهد وتولي شؤون القضاء والتدريس والسفارات .

وهذا الاهتمام البالغ برجال الدين والعلماء يبرز النظرة الاصلاحية التي كان يرمي اليها هؤلاء الملوك العلماء لتكوين المجتمع الاسلامي بالمغرب ، ومن جهة اخرى ، المساهمة الفعلية التي كان يشارك بها هؤلاء الفقهاء في سبيل ايجاد هذا المجتمع ، وهو ما يوضح لنا ايضا الوفرة التي عرفها العصر المريني في عدد العلماء والفقهاء .

وقد انتشر صيت كثير من الاسماء في هذه الفترة ، مرتبطا بما وصلته العدالة على ايديهم ، بسبب المساندة التي كانوا يلاقونها من اولئك الملوك لاحقاق الحق وازهاق الباطل ، ولو اصابهم منه رزازة احيانا ، مما يبرز الاستقلال التام الذي كان يتمتع به القضاء في ايامهم . وما زالت بعض الاسماء ترتبط بكثير من صور الشجاعة والبطولة في الجهر بالحق دون خوف او وجل ، امثال الفقيه عبد الواحد الونشريسي (1) والفقيه عبد العزيز بن موسى الورياغلي (2) والفقيه عبد العزيز القروي (3) وغيرهم ممن اطلقت السنتهم عدالة السلاطين المرينيين .

وقد تعددت مشاركات الفقهاء في مباشرة شؤون السلطة بحسب استعداداتهم حتى نجدهم وقد اجتمعت فيهم صفات المربين والمدرسين والفقهاء والمفتين والقضاة والسفراء وغيرها من المهام منفردة او مجتمعة .

ومن جملة من اجتمعت فيهم هذه الصفات نخص بالذكر الفقيه المفتي علي بن عبد الحق الزرويلي المشهور بابن الحسن الصغير احد كبار فقهاء العصر المريني الاول والمعروف باطلاعه الواسع على علوم الفقه واصوله .

لا يعرف تاريخ مولده ولا مكانه ، الا ان المصادر (4) تجمع على انه توفي بمدينة فاس سنة 719 وقد ناهز المائة سنة ، ولعله يكون قد نزح من قبيلة بني زروال بناحية فاس . وقد عاصر في خلال هذا العمر الطويل خمسة من ملوك المرينيين هم ابو يوسف يعقوب (5) ، وابو يعقوب يوسف (6) ، وابو

---

(1) ابو محمد عبد الواحد بن احمد الونشريسي قاضي فاس ومفتيها صاحب تآليف عدة توفي 874

(2) مفتي فاس العلامة خطيب القرويين وامامها ، الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر توفي 880

(3) الفقيه العلامة شارح المدونة وناظر المارستان بفاس مات 750

(4) الجذوة ج 2 ص 472 ـ الدرة ج 2 ص 439 ـ سلوة الانفاس ج 3 ص 147 وغيرها . . .

(5) ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق تولى 656 وجاز الى الاندلس برسم الجهاد اربع مرات

(6) ابو يعقوب يوسف بن يعقوب تولى 685 وتوفي 706

ثابت عامر (7) ، وأبو الربيع سليمان (8) ، وابو سعيد عثمـــان (9) .

جاء في التعريف به عند ابن القاضي قولـــه : الفقيه المالكي الحافظ المحصـــل ، كان قيمـا على تهذيب البرادعي حفظا وفهما ، وكان يفتح في مجلسه ما ينيف على الثمانين ديوانا فيعرضها عن ظهر قلب ... واحد الاقطاب الذين تـــدور عليهـــم الفتيـــا بالمغـــرب (10) .

دراستــــــــــه :

درس ابو الحسن الصغير بفاس على جلـــة من شيوخ العلم الافاضل المشهورين امثال :

1 ـ ابو الفضل راشد بن ابي راشـــد الوليـــدي الحافظ المحصل المفيد ، شيخ شيوخ المدونة في عدة تآليف منها كتابه في الحلال والحـــرام واجوبته في المســـائل التي سئل عنها ، واملاؤه على كتاب التهذيب ، اخذ عنـــه ابو الحســـن الصغير ولازمه واقتصر عليه ، وكان الفقيـــه راشد لا ينفذ بمدينة فاس حكما او جوابـــا في نازلة حتى يحضره ، ويعتني به ، فلم تخطـــيء فراسته فيه (10)

2 ـ اسحاق بن يحيى بن مطر الورياكلـــي المعروف بالاعرج ، وكان آية في المدونة ، وهو صاحب الطرر على المدونة ، وفقيه فاس ، اخذ عنـــه ابو الحسن الصغير وجماعة ، وتوفي بفـــاس سنة 683 (11) .

3 ـ ابو زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي الشيخ الفقيه الحافظ ، شيخ المدونـــة ، كان اعلـــم الناس بمذهب مالك ... وكان يحضر مجلسه أكثر من الف فقيه معظمهم يستظهر المدونـــة مات سنة 741 (12)

وظـــائفــــــه :

كلف ابو الحسن بعدة مهام عليا سواء بداخـــل بلاده او خارجها ، فتولى قضاء مدينة تازا ايام ابـــي يوسف يعقوب المريني ، ولا ندري متى أم كم قضى في عمله ، كما ولاه حفيده ابو الربيع سليمان قضاء مدينة فاس خلفا لابي غالب المغيلي سنـــة 708 (13) وكان يدرس بجامع الاجدع بفاس (14)

مهمـــــة السفـــــارة :

وقام بمهمة السفارة للملوك المرينيين الى مملكة غرناطة بين سنتي 708 و 710 وهي مدة ولاية ابـــي الربيع سليمان ، قام اثناءها بالقـــاء دروس بجامـــع غرناطة ووصفه لسان الدين في الاحاطـــة ووصـــف مجلسه فقال : كان ربعة آدم اللون خفيف العارضين، يلبس احسن زي ، وقال كان حسن الاقراء وقـــورا صبورا ثبتـــا (15)

ويستوقفنا هذا الوصف من ابن الخطيب نظـــرا لغرابة صدوره من شخص لم يكن قد ولد بعـــد (16) وقد كان من الممكن ان يمر الخبر على اساس النقل او السماع التاريخيين وذلك مما اعتمد عليه ابن الخطيب في احاطته الا اننا لا نفتا ان نقف حيارى امـــام قول ابن الخطيب حين يؤكد انه حضـــر مجلس اقرائـــه بغرناطة (17) ، فكيف حصل ذلك ؟

---

(7) ابن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بويع 706 وتوفـــي 708
(8) ابن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بويع 708 وتوفـــي 710
(9) عثمان بن يعقوب بن عبد الحق تولى سنة 710 وتوفي 731 وهو باني مدرسة العطارين بفاس
(10) درة الحجال ج 1 ص 146 ـ الجذوة ج 2 ص 472 ـ السلوة ج 3 ص 148
(11) الجذوة ص 164 ج 1 ـ درة الحجال ص 112 ج 1
(12) الجـــذوة ص 401 ج 2
(13) روض القرطـــاس ص 394
(14) والاجدع حومة قرب فندق اليهودي حيث توجد جامع النارنجة (الجذوة ج 2 ص 401)
(15) الاستقصـــا ج 3 ص 177
(16) الكاتب الشاعر ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب السلماني الغرناطي ولد سنة 714
(17) الاحاطـــة المجلد 2 مخطـــوط

للتوفيق بين التاريخ وتصريح ابن الخطيب : يجب ان نفترض ان ابا الحسن قد قام بسفرة ثانية غير هذه ، وهي التي يشير اليها ابن الخطيب ، وهو ما تؤيده الاحداث التاريخية ايضا .

فالحل اذن يكمن في ان الرحلة رحلتان ولغايتين مختلفتين ، فمتى رحل ولاجل ما ذا ؟

اما الرحلة الاولى ، فكانت من اجل خطبة اخت ابن الاحمر لابي الربيع سليمان اثر المصالحة التي تمت بين المملكتين ، فاثر ثورة لاهل سبتة على بني الاحمر سنة 709 بعث ابو الربيع قائده فاخرج حاميتهم ، واتصل الخبر بابن الاحمر ابي الجيوش نصر بن محمد ، فخشي عاقبته على علاقته بالمرينيين ونصرتهم له فاوفد رسله الى ابي الربيع راغبين في السلم خاطبين للولاية ، وتبرع بالنزول عن الجزيرة ورنده وحصونها ترغيبا للسلطان ابي الربيع في الجهاد ، فقبل منه ذلك وعقد له الصلح على ما أراد ، وخطب منه اخته فانكحه اياها (18).

اما الرحلة الثانية فالمفروض انها وقعت بعد صريخ اهل الاندلس للسلطان ابي سعيد عثمان في وفد من صلحائهم ووجهائهم : ابو عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلنسي والشيخ ابو اسحاق بن ابي العاص لرد هجمات الاسبان عنهم (19) .

ومن المعلوم ان ابا سعيد عثمان اعتذر عن اجابة طلبهم لمكانة عثمان بن ابي العلاء شيخ الغزاة لديهم (20) ، فلعل السفارة كانت في رد الجواب وشرح الاسباب مع ابي الحسن اثناء عودة الوفد وكان ذلك سنة 719 وهي السنة التي توفي فيها ابو الحسن، وبينها وبين ولادة ابن الخطيب قريبا من ست سنوات، وهكذا توفق بين سنه وبين تصريحه حضور مجلس ابي الحسن وهو في هذا السن .

مهمة التدريس :

لم تكن سفاراته ولا وظيفة القضاء بقادرة على ان تبعد ابا الحسن عن المهمة التي عاش لها معظم سنوات حياته ، فقد كان يلقي دروسه كما سبق بجامع المزدع بطالعة فاس (سيد اللزاز) وربما بغيرها ، وعرف من تلامذته عدد من الاسماء التي اشتهرت بمقدرتها العلمية ، وقضى في هذا المجال اكثر من اربعين سنة كلها في التدريس والفتوى حتى انتهت اليه الرآسة العلمية وكان من تلامذته :

1 ـ ابراهيم بن عبد الله اليزناسي الفقيه العالم الصالح ، احد اعيان تلامذة ابي الحسن الصغير وكان مفتيا بفاس (21)

2 ـ ابراهيم التسولي التازي الفاسي من اهل مدينة فاس ... له تقاييد على التهذيب وآخر على الرسالة ، قيدهما ايام قراءته اياهما على ابي الحسن الصغير ، وقيد على المدونة بمحضر شيخه ابي الحسن كتابا مفيدا ، وشرح الرسالة شرحا عظيم الفائدة ، ولازم ابا الحسن ، وكان جل انتفاعه في التفقه به (22) وقد توفي سنة 749 .

3 ـ محمد بن ابراهيم بن حزب الله ويكنى ابن عيشون ، كان مستكثرا في الرواية مشاركا في امور الفقه وفروعه ، قرا على ابي الحسن الصغير (23)

4 ـ محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي من اهل فاس، الشيخ الفقيه المتكلم ينقل الفقه منسوبا لاهله، والحديث باسانيده ... قرا الفقه على عبد الرحمن بن عفان الجزولي وابي الحسن الصغير، وله عدة تآليف منها الغرر في تكميل الطرر ، وكتاب الدرر في اختصار الطرر وتلخيص التهذيب (24)

---

(18) الاستقصا ج 3 ص 101

(19) الاستقصا ج 3 ص 108

(20) وهو من المرينيين الذين جازوا الى الاندلس برسم الجهاد تطوعا واستغلهم بنو الاحمر للتشويش على المغرب

(21) جذوة الاقتباس ص 86

(22) درة الحجال ص 96 ـ الجذوة ص 85

(23) درة الحجال ص 23 ج 1

(24) الجذوة ص 222 ج 1

5 — محمد بن علي بن سليمان السطي ، بطن من بطون اوربة بنواحي فاس ، نزل مع ابيه مدينة فاس ، واخذ الفقه عن المقرىء ابى الحسن الصغير صاحب التقايد على المدونة (25)

6 — عبد العزيز القروي : جاء فى انس الفقير وعز الحقير : والفقيه ابو الحسن الصغير شيخ الفقيه ابى محمد عبد العزيز القروي ... وهو الذي جمع تقييد المدونة على الفقيه ابى الحسن وهو الان محبس بفاس (26)

7 — ابو سعيد عثمان السلطان المريني ، جاء فى الاستقصا ، وكان السلطان ابو سعيد ايام ولاية بني امية من قبله يحضر مجلس الشيخ الفقيه ابى الحسن الصغير (27)

وقد طبقت شهرة ابى الحسن الآفاق الامر الذي كان يملا عليه مجلسه ، فكان يقعد كما يقول ابن الخطيب على كرسي عال ليسمع القريب والبعيد ، ولعل ان يكون السر فى ذلك ايضا ما جاء فى الاحاطة صبره على هوج طلبة البربر وسوء طريقتهم فى المناظرة والبحث ، وقوله ، كان هذا الرجل قيما على تهذيب البرابرة (28)

بل ان شهرته تعدت الوطن الى خارجه ، فبعد غرناطة نجد صاحب الجذوة فى ترجمة محمد بن يحى المسفر الباهلي يقول : دخل مدينة فاس ولقى بها ابا الحسن الصغير المعروف عند اهل افريقيا بالمغربي صاحب التقييد على المدونة (29)

مهمة القضاء :

وفى ميدان العدالة نجد ابا الحسن يقوم بمهمة القضاء بفاس ، فاذا به يقبض بيد من حديد على الامور دون خوف او وجل ، وعضده ابو الربيع فانطلقت يده على الظالمين واقام الحق وجرى فى العدل على صراط مستقيم .

فبعد المصاهرة التي تحدثنا عنها بين ابن الاحمر وابي الربيع سليمان ، كانت رسل ابن الاحمر تتردد الى حضرة فاس ، فضبط احد هؤلاء السفراء وهو فى حالة سكر ، فامر العدول فاستروجوه فاشتموا منه رائحة الخمر ، وأدوا شهادتهم على ذلك ، فامر باقامة الحد عليه ، فجلد ، فاضطرم الاندلسي غيظا وشكا امره للوزير عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي على الاهانة التي لحقته فثار الوزير واراد الفتك بأبي الحسن ، فاعتصم بالمسجد ، ونادى فى المسلمين حتى قامت الفتنة وثارت العامة وبلغ الخبر السلطان فانتقم من اهل الفتنة بضرب اعناقهم ، وفر الوزير للاندلس (30)

تـآليفـه :

ان رجلا تتفرق جهوده بين هذا العدد من المهام، لن تتاتى له الظروف للتاليف والجمع ، غير ان اشتغاله بالتدريس والفتوى دفع كثيرا من تلاميذه الى ان يقيدوا تقايد كثيرة من شروحه وتعليقاته وردوده على كتاب التهذيب للبرادعي ، وعلى رسالة ابى زيد القيرواني ، كما ترك تقييدا على المدونة التي شرحها فى عدة مجلدات ، وتاليفا هو الدر النثير فى النوازل والاحكام .

وبقدر ما تدل هذه التقايد والتآليف على اهتمامه الاساسي بالتدريس والفتوى توضح قيمته كرجل يهتم بالنقد والفحص والاجتهاد ، الشيء الذي يتفق ووظيفته الاولى كقاضي يميز ، بما اوتي من فطنة وذكاء وخبرة افضل الطرق للفصل فى قضايا الناس والتفريق بين الحق والباطل .

وقد توفى ابو الحسن الصغير بفاس سنة 719هـ ودفن خارج باب عجيسة بجبل الزعفران .

محمد العلمي حمدان

---

(25) درة الحجال ص 218 ج 1 وجذوة الاقتباس ج 1 ص 228
(26) انس الفقير وعز الحقير ص 24 — الجذوة ج 2 ص 451
(27) الاستقصا ج 3 ص 113
(28) الاحاطة المجلد 2 مخطوط
(29) الجذوة ص 296
(30) الاستقصا ج 3 ص 102 .

العلامة الحاج
محمد الهاشمي ابن خضراء السلاوي

للأستاذ أحمد معنينو

انه لمن دواعي الاسى والاسف ان يفقد المغرب المسلم جل علمائه وصلحائه . ففي النصف الاخير من هذا القرن ، لقد عرف المغرب مدنه وقراه بالخصب الكثير من العلماء والصلحاء والرجال البررة ، يؤدون رسالتهم العلمية والتربوية على الوجه الافضل ولصالح الامة والوطن . سواء في ذلك دراستهم لمواد العلوم الاسلامية ، من حديث وتفسير وفقه وادب واصول ومنطق وحساب وفلك وتاريخ وجغرافية . وجميع علوم الآلة . فحيثما حللت منه بالسهل او لجبل ، بالقرى او المداشر فضلا عن المدن كانت تتقابل مع خيرة العلماء . في حلقات دروسهم . وكثرة تلامذتهم . ووفرة انتجاهم وكريم خصالهم . كما تجدهم في اطر الدولة المختلفة يزينون المناصب بفضائل العلوم الاسلامية مع الاخلاق السامية والاستقامة ومراقبة الله عز وجل ، في كل المجالات .

وهذا الصنف من العلماء والادباء يضمحل ويندثر بتتابع وبسرعة ، وكأنه لم يكن ! اقفرت الديار منهم واحسرتاه .

ففي الفترة الاخيرة توالت احداث الموت انتقل فاضل بعد فاضل . وعالم بعد عالم وقاض نزيه او مفت صالح او رئيس مستقيم فكادت نسمات الهدى والرشاد تفقد ، وطبقات هؤلاء الافاضل تضمحل ، ولا من يخلفها . وللاستدلال على ما أقول فتحت عيني طالبا بهذه المدينة على نحو الثلاثين عالما كل منهم له قدر ومكانة ، كل منهم يدرس في فنه وهويته وبين يديه طبقات من التلاميذ النجباء . سواء بالمساجد ام الزوايا ، ام المدارس صباح مساء ، ليل نهار . واليوم بكل اسف لا يوجد منهم ولا واحد ؟ ولله الامر من قبل ومن بعد .

* * *

ومدينة سلا احدى مدن المغرب ودعت في السنة المنصرمة عدة علماء ابرار ورجال اخيار الواحد تلو الآخر . ومن الحق والانصاف ان احرر في هذه الكلمة الوجيزة نبذة يسيرة عن عالم تقي فقدناه . وقاض نزيه بكيناه ، ورئيس مجلس الاستئناف الشرعي للدولة المغربية قبرناه ، فبموت هذا العالم فقدت هذه المدينة ركنا من اركانها ، وعالما نصوحا من من فضلائها ، وقاضيا ورعا من زهادها .

هو القاضي النزيه ، ورئيس الاستئناف الشرعي النصوح الامين ، والمسلم التقي الذي لا يخاف الا الله ، العلامة **الجليل « سيدي الحاج محمد الهاشمي بن خضراء السلاوي »** . ولشريف مواقفه الخالدة .. وتواضعه الجم ، ونصحه لجلالة السلطان المولى يوسف رحمه الله شأن علماء المسلمين المخلصين ... مع ملوكهم المسلمين الأوفياء للحق والشرف .

لشريف مواقفه الخالدة ونصائحه المخلصة . وسلوكه الحميد وزهده وورعه أخترت نشر ترجمته على صفحات مجلة « دعوة الحق » الغراء التي هي الرابطة بين الاجيال السالفة ، والاجيال المقبلة ، هي سند رجالات الاخلاص والوفاء لخدمة الصالح العام ، بكل جهات البلاد الاسلامية ، حتى نتعرف على الفقر الذي يجتاح بلاد المسلمين بفقدان علمائه وادبائه عسانا نتدارك الحال قبل فوات لوقت ولات ساعة مندم .

أسرتـــه

من عائلة سلا الشهيرة بالفضل والكرم والعلم والادب ، وحسن الاروءة ، تنتسب هذه الاسرة الى قرية بالساقية الحمراء من هذه القرية انتقل جد هذه العائلة الفقيه الجليل السيد علي فسكن مدينة سلا واليه تنتسب هذه الاسرة المجيدة . كما ارتحل آخرون من هذه القرية لاقامة والسكن « بجبل لعلم » جوار الشيخ الداعية الشهير « مولاى عبد السلام ابن مشيش » رحمه الله وفريق ثالث من هذه الاسرة انتقل من ارض المغرب لأرض فلسطين الحبيبة ، ثم منها لأرض الحجاز مهبط الوحي ، ولا تزال منهم بقية هناك ويلاحظ ان افراد من الذين اقاموا بمدينة سلا انتقلوا لسكنى فاس .

والد الفقيد « هو العلامة الشهير والمؤلف الخبير . والمستشار المؤتمن للسلطان المولى عبد العزيز » السيد عبد الله بن خضراء فقد عينه بمنصب **« قاضى القضاة »** بمدينة فاس فكان احد مستشاريه الذين يراقبون الله ويؤدون النصح لملك البلاد على الوجه المطلوب . وقد توفى الى رحمة الله عام 1394 هـ ودفن بالزاوية الناصرية بفاس . وجده هو العدل الاستاذ المقرئ السيد الهاشمى ابن العلامة السيد محمد بن العلامة السيد احمد ابن الفقيه السيد علي ، وهو الذي ورد من **القرية الخضراء** لسكنى مدينة سلا من **الساقية الحمراء** .

هذه لمحة وجيزة عن اسرته العلمية الشهيرة اختصرتها وقد يوجد فى هذه العائلة عدة شخصيات علمية خصصت بمؤلفات نظرا لكون ابنائها تناقلوا العلم ابا عن جد . ومن ذوى الثراء الفكرى رحم الله الجميع ، الكل انتقل للدار الاخرى ، وبقيت مراتبهم شاغرة ، ومجالسهم فقيرة ومجدبة ، وتلامذتهم مهملين يهيمون فى اودية من الجهل والبلبلة والشكوك والانهيار .

* * *

ولادتـــه

ولد الفقيد بمدينة سلا عام 1278 هـ فى احضان العلم والفضيلة ، الحق بالكتاب القرآنى حسب الاعراف المغربية فحفظ القرآن الكريم . على الفقيه الورع « ابن عبد الرحمان » ثم على الفقيه « الحاج محمد بريطل » شيخ « الموحدين والمقرئين بهذه المدينة » ، ثم انبرى لدراسة العلم . فاخذ عن والده العلامة سيدى عبد الله وشيخ الجماعة بسلا احمد بن الفقيه الجريرى والعلامة المفتى الطيب بن المدنى الناصرى . ولما اشتد ساعده وارتشف من مبادىء العلوم الاسلامية . ارتحل لمدينة فاس التى كان والده يتولى فيها رئاسة القضاء فى عهد الدولة العزيزية ، فانخرط فى سلك تلاميذة « الجامعة القروية » وتتلمذ لمشايخها الكبار كشيخ الجماعة سيدى احمد ابن الخياط ، والعلامة التقى سيدى محمد القادرى ، والعلامة المفتي سيدى احمد بن الجلالى الامغارى ، والعلامة الشهير سيدى التهامى كنون ، وغيرهم من رجال العلم والدين ، الذين تزخر بهم **« جامعة القرويين »** وقد درس بكلية القرويين نحو سبع سنوات ، ثم انه رحمه الله رحل للمشرق لاداء فريضة الحج ، واجتمع بعدة علماء اعلام بتلك البقاع الشريفة ، كشيخ الحنابلة بالحجاز عبد الله القدومى ، وتتلمذ بالمدينة للعلامة احمد البرزنجى . وشيخ الحنفية ابو الخير احمد ابن عبد الشهير بمرداد . الحنفى ، ثم مفتى الحنفية بمكة صالح بن صالح كمال .... كما اخذ عن عدة علماء بالشام واجازه الكثير منهم حسب الاعراف المتبعة عند علماء المسلمين .

اشتغالـه بالتدريس

افتتح عدة دروس بالمسجد الاعظم وغيره وانتفع بعمله خلق كثير . وتتلمذ له الكثير من نجباء المدينة . حيث كانت دروسه افادة واستفادة ، وفى هذه الاثناء اختير برتبة العدالة ثم لمنصب الامانة بعدة مراسى بالمغرب ، ثم اسندت اليه خطة القضاء الشرعى ، وفى عهد المولى يوسف رحمه الله عينه رئيسا لمجلس الاستئناف الشرعي بالمشور السعيد . وكان جلالته يقربه اليه كثيرا ويستشيره ويعتمد على توجيهاته وصراحته فى الحق . وكمثال على تقواه وورعه . ووقوفه مع الشرع الاسلامى ساعة الشدة والعسرة غير هياب ولا وجل ففى مدة رئاسته لمجلس الاستئناف الشرعي كان عهد الحماية البغيض يعمل ويحاول تجريد القضاء الشرعي من مهامه . لتفتيت الشعب المغربي وذوبانه . كان هذا العالم الفذ بجانب ورعه وتقواه يتخذه جلالة المولى يوسف مستشارا نصوحا ومفتيا قوى الارادة بالله ، لا تاخذه فى الله لومة لائم فعندما عزمت حكومة الحماية البغيضة على

اصدار ظهير شريف تنتزع بمقتضــــاه اختصاصات القضاء الشرعي في المعاملات واسنادهــا للباشوات ولقواد ، وهم من هم .... لا ولكن جلالة المولى يوسف لدى اجتماعه بالمستشار الفرنسي الذي أتاه بالظهير المصنوع كالفخ ، ليوافق عليه جلالة الملك ، ويصدر العمل به هنا احضر عالمنا للمجلس باذن من جلالـــة السلطان ومكنه من نفس مشروع الظهيــر المعروض عليه وقال له : اقراه وتدبره وقل لي نظر الشـــرع الاسلامي فيه . فتناوله وقراه وتمعن فصوله وبنوده ثم قال (يا مولاي : ان وافقتم على هذا الظهير ، فان الخزانة العلمية الممتدة من عهد النبوة حتى يـــوم الناس حري بها أن تحرق وتقبر .... وامام هـذه الصراحة قام المولى يوسف في وجـه المستشار الفرنسي قائلا (: لا اوافق على اصدار ظهيـر شريف يخالف الشريعة الاسلامية ، ويقف في وجهها بحال من الاحوال) ثم ذهبت ايام وجاء دور آخر من تدليس الحماية البغيضة ! التي كانت تعمل في الســر والعلن على محاربة المسلمين وابعادهم عن التحاكم لكتـاب الله وسنة رسوله . وكانت المؤامرة هذه المرة تحاول اصدار الظهير البربري الشهير الذي كـــان يدرس ويهيا منذ الاحتلال . للعمل على الحيلولة بين الشرع الاسلامي ، وسكان المغرب المسلمين . ولكن جلالة السلطان المولى يوسف اعاد الكرة هذه المرة وما اكثر مواقفه لجانب شريعة جده عليه الســلام ، فلخضـار احضار هذا العالم النصوح ايضا والمستشـار الفرنسي بين يديه يحاول نيل موافقة جلالة السلطــان علـــى اصدار الظهير البربري بتقسيم المغرب شطرين ! عربي وبربري ! بعدما عاش في كنف الاسلام شعبا مسلما موحدا . طيلة ثلاث عشر قرنا،دون ان يلحق بالشريعة الاسلامية ما يشينها ، فناول جلالة السلطان نـــص الظهير المعرض على جلالته للموافقة ومكن منه هـــذا العالم النصوح وقال له : (يا مولاي اذا صدر هـــذا الظهير ، وحصلت موافقتكم عليه لا قدر الله فانـــه القضاء المبرم على وحدة المغرب الوطنية والدينية والاجتماعية والسياسية) فما كان من جلالته الا ان واجه المستشار الفرنسي رافعا صوته « لا اوافق » على تقسيم دولة المغرب وامة المغرب . الامة المسلمة الموحدة منذ عرفت هذه البلاد الدعوة الاسلامية وهي متمسكة بشريعتها لا ترضى بها بديلا .

من هذين المثالين نستطيع ان نتعرف علـــى الخسارة العظيمة التي اصابت المغرب ولا اقول سلا لان هذا العالم الامين قل نظيره ومواقفه هذه تجعلـه في صفوف علماء المسلمين النصحاء المرشدين .

ومن هذا العرض (الوجيز لحياة) الفقيد الكريم، نتعرف على مواقف هذا الشيخ القدوة الـــذى ادى رسالته غير منقوصة ، ووقف بحياته الجلي على نفـع البشرية بتلقين مبادىء العلوم للأجيــال وتكويــن وصنع الرجال للحاضر والمستقبل ، بلغ الامانـة لكل من ساله واستفتاه بصراحة وثقة بالله .

وامام هذه الحياة المليئة بالمعالي والفضائل كان جلالة محمد الخامس رحمه الله يتخـذه مستشارا امينا وعالما نصوحا ، كان يقدره ويجله . وجاء دور جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب ، فراى بعين البصيرة تقدير واجلال اربعة من العلمــاء الاعـــلام ومشايخ الاسلام ، اثنان من مدينة فاس الفيحاء ، هما شيخ الاســلام النصـــوح « **سيدى محمد بن عبد الرحمن العراقي** ، » والعلامة الشهير المؤتمن السيد **احمد الشبيهي** واثنان من مدينة سلا الغراء ، وهمـــا صاحب الترجمة **السيد الحاج محمد الهاشمي ابـــن خضراء** وشيخنا شيخ الجماعة العلامة **الحاج احمد بن عبد النبي** ، سميه في العلم والدين والورع والاقتدار والامانة والاخلاص .

اجل قلد الكل جلالة الملك حياه الله « **وسام الاستحقاق الفكري** » وضعه على صدر كل واحد من هؤلاء العلماء الاعلام ، وذلك في شهر مارس 1970 م جزاء خدماتهم وشريف قيامهم بنشر العلم والفضيلة والوقوف في وجه الظلم والكفر والتلبيـس موقف الشرف .

* * *

لنقتصر على هذه النبذة الوجيزة من حياة فقيد العروبة والاسلام الذي وافاه الاجل المحتوم وانتقل الى الرفيق الاعلى موفور الكرامة مرفوع الراس .

وعزاء لاسرته الصغيرة والكبيرة ولعلماء الاسلام الذين خلدوا المواقف المشرفة تجاه البغي والعدوان والاستعمار . وعند الله ينالون الجزاء الاوفى .

ولقد وافاه الاجل يوم الاحد في عام 1392 هـ وحضر لجنازته جميع اهل الفضل والعلم والدين حيث ودعوه لمرقده الاخير داعين الله جلت قدرته له بمنزلة الصديقين .

سـلا : الحاج احمد معنينو

أبو العباس أحمد بن عبد القادر التستاوتي

أكبر شخصية علمية في بيت المباركيين

للأستاذ محمد التاودي بنسودة

هذا الرجل هو اكبر عالم فى هذا البيت (1) المباركي ضرب فى صنوف العلم الظاهر بسهم وافر، وحاز قصب السبق فى علم الباطن، فجمع بين علمي الشريعة والحقيقة، وحلق فى سمائهما تحليقا عاليا، وسما بهذا البيت سموا رفيعا، فكان ابرز عارف واكبر مفكر بين اقرانه الجهابذة الاعلام، ومعاصريه من ائمة الانام، هو ابو العباس احمد بن عبد القادر ابن الولي الصالح سيدى محمد بن مبارك التستاوتي، والكلام على حياته تتجاذبها نواح متعددة ومناهج متشابهة، ويمكن ان اجملها فى العناصر البارزة فى حياته التى سأتناولها بالبحث والدرس فى هاته العجالة :

اوليته : فاما اوليته فانها ما زالت عندى غامضة اشد الغموض لان المصادر التى وقفت عليها سكتت عن تاريخ ولادته ومكانها وعن نشأته ودراسته الاولية وكيفيتها، فلم تتعرض لشيء من ذلك ولو بخفى الاشارة، فلم ترافقه فى هذا الطور الذى يقطعه المرء فى اوليته الى ان يشب ويصل الى ولوجه معاهد الدراسة العلمية وطرق اماكن المعرفة المعهودة لتلقى العلوم والمعارف.

ومما يستغرب منه اشد الاستغراب ان شخصية كشخصية ابن عبد القادر التستاوتى الذى ملأ عصرا ذا اهمية كعصره وهو القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر اننا نستغرب ان لا نقف له على وثائق تاريخية تحدثنا عن اول دخوله لاعظم جامعة توجد فى عصره، فلم تتعرض كتب التراجم الى تاريخ دخوله الى جامعة القرويين ولا الى شيوخه الذين اخذ عنهم بها علومها التى كانت تدرس بها والتى يتلقاها القاصدون : فتحدثنا عن دروسه الفقهية والحديثية والاصولية وغيرها، وتعرفنا باسماء شيوخه بين احضانها. بل لم يحدثنا هو نفسه فيما وقفت عليه من تراثه الفكرى عن مكان استقراره الذى كان يدرج عليه والذى كانت سماؤه تظله، لم يحدثنا بتفصيل عما يفهم منه انه ولد مثلا بفاس وانه دخل الكتاب الفلانى وانه فى تاريخ كذا ولج جامعة القرويين، وكل ماذكرته المستندات التى وقفت عليها انه كان يقطن بفاس لا غير وذلك حينما تعرضت لمحنته (2) التى جرت عليه والتى ادت به **الى دخوله لسجن فاس الجديد** فى عهد المولى اسماعيل رحمه الله، فمنها عرفنا انه كان يعيش بين ابناء هاته المدينة العتيقة عاصمة العلم والعرفان.

فلولا هاته القصة لما وضعنا ايدينا على مكان سكناه الاولى، وبعد صدور العفو المولوى عليه انتقل منها الى حاضرة مكناس التي قضى بها بقية عمره الى ان ووري بترابها واسلم الروح الى خالقها. لكن

لا يعزب عن البال انه قد تحدث عن بعض اشياخه الذين اخذ عنهم بقاس ، وذلك في بائيته التي نظمها في رجال القرن العاشر ، كما سياتي ذكر ذلك مفصلا في ترجمة اشياخه فهذا كل ما حدثنا به المصادر التاريخية عن اوليته وعن انتقاله ، ولا عجب في ذلك فان اخص تلامذته وهو ابو العباس احمد بن عاشر الحافي الذي اشاد به كثيرا والذي تتبع آثره الادبي لم يعرج هو الآخر على شيء مما رجوناه .

اما موضوع درجته العلمية وما قيل فيها : فانه يعد بحق من اكبر علماء وقته ومن اشهرهم وابعدهم صيتا ، كان مشاركا في علوم الظاهر والباطن عارفا باسرار القوم وحقائق المعاني قال ابن زيدان في اتحافه = ج \ 1 / 329 = احمد بن عبد القادر ابن عبد الوهاب بن موسى ابن الشيخ سيدي محمد ابن مبارك التستاوتي الولي الصالح العارف الشهير كان عالما عاملا عارفا كاملا ممتع المجالسة في نيل الفضائل ومعرفة حقوق الافاضل ، وقال قبله صاحب الاستقصا ج 7 د ص 111 طبعة دار الكتاب = ومنهم الولي الصالح العامل العارف الشهير الشيخ ابو العباس احمد بن عبد القادر التستاوتي من كبار اصحاب الشيخ ابن ناصر ومن حفدة الشيخ ابن عبد الله محمد بن مبارك الزعري ، وقال عنه قبلهما تلميذه ابو العباس احمد بن عاشر الحافي : شيخنا الامام ، وقدوتنا الهمام ، قطب اهل الدائرة ، الجامع بين الشريعة والحقيقة ، مولانا احمد بن مولانا عبد القادر الحسني التستاوتي رضي الله عنه ومتعنا بحياته ، .

فهذه شهادة هؤلاء الاعلام من رجال الفن والذوق وارباب الاقلام ناطقة بمكانة الرجل ، ومفصحة بمقدار درجته وعلو قدمه في المعارف والاسرار وهي درجة يدركها غيره من رجال اهل بيته او ينالها سواه من كبار رجال الشريعة الاسلامية .

علم وعمل اجتمعا لدى هذا الرجل في هذا البيت الشهير ، الشيء الذي يعز حصوله ويندر توافره لدى احد من علماء البيت المباركي فيما اعلم ، بل انه شخصية فذة وقدوة من كبار علماء عصره ، ناهيك انه كان يراجع العالم الكبير والشيخ المفكر العظيم ابا علي الحسن بن مسعود اليوسي الذي قيل فيه .

من فاته الحسن البصري يدركه
فليشهد الحسن اليوسي يكفيه

كما تدل على ذلك مراجعته معه التي ساتعرض اليها فيما بعد .

واما ادبه الرائق وتفتق شاعريته الفذة فهو شيء كثير رضع لبانه منذ نعومة اظفاره وامتزج بلحمه ودمه من اول جولاته في ميدان الادب والشعر اللذين عرف بهما واشتهر اسمه مقرونا بمعانقتهما ، وسوف اقتصر على طائفة من نثره الفني السهل الممتنع وشعره الرصين الجزل المبدع الخلاق .

فمن نثره : قوله في طالعة (4) الجزء الثالث من ديوانه الشعري ما لفظه : الباب الرابع من ابواب هذا الكتاب الشامخ المقدار ، في ذكر ما فتح الله به علينا من مستملحات الاشعار ، وهو باب اتسعت دائرته ، وقويت عارضته ، وجمع من رقيق المعاني ودقيق البيان اللساني ما فيه مستراح الالباب ، وارتياح للاحباب ، فما شئت من جد مفروغ في قالب الهزل البديع ، ومن هزل منسوج على منوال الجد الرفيع ، فروضته الغناء لاتنفد ازهارها ، ولا تفرغ من الثمار اشجارها ، دانية المرام ، غير مستعصية على الافهام ، وقد رايت ان ابتدائه بقصائد نبويات ، واخرى بذكر الصالحين مشرفات ، ثم اسكبه سكبا ، واذكره فاكهة وابا ، متاعا لكم ولا نعامكم ، ونزهة لارواحكم واجسادكم ، والله المستعان وعليه التكلان .

ومن هذا النوع الطريف ، والمأخذ الشريف ، ماكتبه صاحب الترجمة الى العلامة الجليل المقدار ابي علي الحسن بن مسعود اليوسي رحمه الله اذ يقول بعد الحمد لله والصلاة على رسول الله (ص) مانصه : من احمد بن عبد القادر كان الله له الى من لا باس ، ان تجعل قدمه على الراس ، الشيخ الامام ابا علي سيدى الحسن بن مسعود اليوسي ، سلام عليكم وعلى من بكم واليكم ورحمته وبركاته : وبعد اماتك الله واحياك ، ثم اماتك واحياك ، ثم اماتك واحياك ، واكرم بتجليه محياك ، واخص بمشاهدتك اياه روض محياك ، فاني كنت فيما ظننت اني كنت ، الى ان اسفرت الشمس وفاح ارج النسيم من القدس ، ايقنت اني ما كنت كما تظننت ، ولا حاولت مناولة ما تمنيت ، فانعكس الفرح ترحا ، وعاد الترح فرحا ، وحصل الاعتلال من الماء الزلال ،

وما كنت اظن ان الفسل يشاب ، ويراس من لم يبلغ الخنايشاب ، فطال تعبي وكثر تعجبي ، وكيف لا اتعجب وانا انظر الى انعكاسات القضايا واختلاف المرءيات ، وكيف لا اتعجب وان ليس للانسان الا ما سعى ، ومن فاز حمد المسعى ، وليت شعرى ما يجدى الشيء مع عدم المسارعة اليه ، ولا الكراهية له مع العكوف عليه ، وكيف يلذ عيش المسارع للمطلوب ، مع جهل السابقة من المحبوب ، وهل يياس ذو الجناية وقد سبقت له العناية فما يصنع المحجوب من غير حجاب ، ولا المعتوب من غير عتاب ، ومن امر بخلع النعال ، لمعاينة الجمال ، ولم يمتثل المقال ، ايطمع في النول على هذا الحال ، فما العيش الا وان يؤثر الحصير في جنب الراقد عليه ، وينعدم الشبع بخبز السائر اليه ، ثم المقصود من الشيء روحه لما يفسر عنها ابو بكر فالقم الفار قدمه ونسي في محبوبه اجله. ثم اقتدى به في هذه الصناعة من قال اوثر اصحابي بحياة ساعة ، ومن اظلم ممن قدر على الاستشفاع ، ويترك اخوانه في جهنم الانقطاع ، والعاجز معذور ، لله عاقبة الامور ، وانما يعرف بالمحك الابريز ، ويحيل عند الاحتياج اليه الشيء العزيز والمموه والمضبب لا يجوز اقتناؤهما باعتبار ، وقد لا يمتنع باعتبار ، وانما اشكو بثي وحزني الى الله .

فلا البرق يبدو من وجه معبدي
وغيرى عما به الدهر قد فعل

ولا نسمة تهدى الينا خلوقه
ونتنشق منها عرفه الاطيب العمل

وقد كنت قبل البين ارجو لقاءه
فاصبحت ارضى الان بالطيف اذ رحل

ومن قربه حتى كأنني ازوره
ومن زفرات البعد اشهد ما وصل

فلا قرب مالم يسبق الامر قبله
ولا بعد ان لم يكتب الطرد في الازل

الحمد لله على السلامة والعافية، وانا اسال الله العفو عن زلاتنا السابقة والاتية ، ونحب من سيدنا ان يجعلنا من جملة اولاده ، واهل وداده ، وهو على جمعهم اذا يشاء قدير ، سبحانه من له العلم واليه الحكم ، ولا علينا ان نجرد مخاطبا من النفس ، واتغنى له في خطر الانس :

فما العيش الا والزمان مساعد
بوصلك منها في محافل عشاق

وقد اظهر الفصل الربيعي نوره
ولذلك المسعى وماعربد الساقي

فاول سترا دونها انت ان ترم
تراها فمت كيما تفوز بترياق

ولا ترض منها باليسير من المنا
فتصبح مغرورا ببادر اشراق

الا فتادب واداب السير شاكرا
لانعم رب واسع الجود خلاق

وان ظفرت عيناك بالكنز فاكتمن
ومت طربا ان شئت او عش باشواق

فكم من فتى في الحي قد حل قتله
فاصبح مطلوبا بافشاء اذواق

وادع الله لي فاني مع كبر سني ما صليت ولا صمت ولا اروعويت اهو لتكتف بهذا القدر من نثره الفني الذى يجول به ويصول في طريق القوم الدال على تضلعه العلمي وبتحره في المعارف الربانية والاسرار الالاهية ، فمن بحرهم اغترف ومن احوالهم ووجدانيتهم نطق واعترف ، قد علم كل اناس مشربهم .

واما شعره : الذى يفيض عذوبة وسلالة ويتفجر بلاغة واصالة فانه شيء كثير العد .. والاستقصا ، ويخرج عن الحصر والاحصا ،

فقد رزق ملكة واسعة قوية وتفتحت شاعريته في سائر بحوره واوزانه اذ ربما بلغت القصيدة الواحدة من اشعاره المئات من الابيات .

ولنبدا بداليته التي قالها في مدح خير البرية ورسول الانسانية والتى عارض بها دالية الشيخ اليوسي قال في مطلعها :

عرج باطلال الاحبة واقصد
آثرهم يوما لعلك تهتدى

واجز اذا شئت الديار بمنزل
قد ضم اجداث العشير الهمد

واهيب قلبك ان اردت شفاءه
قات الربوع تريح قلب الاكمد

الى ان قال :

لولا النوى ما اقبلت من مغرب
فوق المطايا عاشقون لاحمد

صلى عليه الله ما هبت صبا
وبكى لرؤية وجهه ذو اكمد

وهي طويلة تنيف على ستمائه بيت وكان انشاؤه لها سنة 1125 ه

ومن هذا المشرب المحمدى قوله :

عظمت نعمة الاله علينا
واستزادت نمالها من نفاد

كل يوم نرى من الله فضلا
وامتنانا ورحمة فى اباد

لو نجازى على ذنوب جنينا
هالزلتنا منازل الابعاد

فعفا رحمة ومنا علينا
واهتدينا بنور اشرف هادى

احمد المصطفى الذى من سناه
زان ما فى الاغوار والانجاد

واهتدى كل سالك طرق الار
شاد من حاضر الانام وباد

وارتدى كل رائد منهل التو
فيق من رائح وغادى

الى ان قال :

عجبنا كيف يدرك المرء هون
والنبي الكريم رحب النادى

لذيه متوسلا تبلغ المأ
مول فى القرب من رحيم جواد

انشا هاته القصيدة فى ربيع الاول عام 1092 ه من الاتحاف .

ومن غرر قصائده داليته الاتية المعنونة هم الناس كل الناس .

الا هل لايام الصبابة والصبا
رجوع ومن لي ان ابشر بالرد

ليالى لا اخشى من الدهر نكبة
فما سرني وصل ولاروعت من صد

نجر ذيول اللهو فى روض انسنا
ونحن نشاوى والزمان اخو ود

وشملي مجموع ولم تدر ما الهوى
ولا ما النوى واليمن فى الطالع السعد

وقد اثرت آمالنا وتكاملت
مقاصدنا والشوك يعبق من ورد

الى ان عقلنا واستوى الامر بان ما
عهدناه من بين وبدل بالصد

وانشب فينا ظفرة البين واعتدى
علينا واستصرخ القلب بالفقد

فلا تسال الاماق عما جرى بها
ولا تسال الاحشاء عن لوعة تردى

وسل ان تشا زهر النجوم فانها
تبين ما قد حل بالصب من سهد

واحذر اذا لاحت بروق من الحما
ويطربنى التغريد والندب من عمد

وان هب من نحو المعاهد شمال
غصصت بريقي وامتنعت من الازرد

ومهما ذكرنا منزلا ومعاهدا
عمرتا بها حتى الحبائب من نجد

تسارعت الاشواق من كل جانب
واقبلت الاحزان فى خيلها تردى

الا اين صاروا حين سروا اخيموا
بوادى الحما ام يمموا جانب الطود

ومالى لا ابكي عليهم وانهم
اخلاء صدق والغرام بهم وردى

قف ساعة نستخبر الربع عنهـــــم
الارب ربع يرشد الناس للقصـــد

لقد ذهبوا بالروح لمـــا تحملـوا
ومن عجب ميـت تراءى بلالحـــد

وهل غالهم ما غالهم مـــن صـوارف
الدهر وصرف الدهر من شانه مردى

هم الناس كل الناس يجمل ذكرهم
وتحيا بهم ارض النفوس من الهمد

بهم يستفيـث المرء عنـد خطوبـه
بهم تقبل اسرا بهم ربنا يســـدى

ومما حكاه تلميذه الحافي : ان الشيخ سيـدى الصالح المعطي كتب امترجما بالابيات الآتية :

بلــغ السيل الزبـى باسداتـــي
وعدا السيـف على متـــن الودج

يرحـــم الرحمـن مـــن يرحمنـا
نحن فى ضيق وهـــم وحـــرج

فابسطوا الراح فهــذى فتنــة
عمت الناس ومنــوا بالفـرج

وانهضـوا نهضـــة حام الحمـــا
طال ذا الليـــل ولا فجـر بلــج

فاجابه صاحبنـــا :

بلج الصبح وفر الليـــل فـــى
خجل يشتد مـــن ذاك البلـــج

لطفه فى قهره حلمـــا ســـرى
سريان النور فى جمـر وهـــج

وانســب الفعـــل ان شئـت ان
تدرا الاحشاء مـــن داء سمـــج

وانتظر فجـــرا قريبـا طالعـــا
فى سماء العفو ياتي بالفـــــرج

ولنكتف بهذا القدر من شعره فى هاته العجالة من حياة هذا الاديب الشاعر الفحل ؛ اما شعره فقد جمع فى ديوان يبلغ ثلاثة اجزاء ضخام وقف على جزء منها المؤرخ الكبير المولى عبد الرحمن ابن زيدان = الاتحاف 1 : 329 = وسوف نزيد المستزيد بعضا آخر من نوع الشعر التاريخي فقد ابدى فى هذا الميدان واعاد وهو داخل فى نطاق تراثه الفكري الذى سافرده بالترجمة الآتية :

تراثـه الفكـرى :

1) من تراثه رسائله التى جمعها تلميذه الحافـي وهي المتضمنة للفوائد التى فتح الله بها عليـه من محفوظات الاذكار ومراسلات ومكاتبـات واسئلة واجوبة ومستملحات مـــن الاشعار وملحونات منها ما كتبه لشيخه سيدى محمد ابن ناصر فاجابه عنها وما كتبه لغيره = الاعلام 7 ج 2 : 155 = ومنها .

2) عقد جواهر المعاني : فى مناقب الشيخ عبـد القادر الجيلانى وهو شرح قصيدة اولها :

اقول لما اعيى الطبيب علاجـه
وقد مل من شرب الـدواء لعلـة

الالذ بمحي الدين يا طالب المنـى
وعول عليه فى الامـور المهمـــة

3) ومنها نظم رجال الحلية مع شرح أوله : الـذى مطلعـــه :

بدات ببسم الله والحمد ارتجـــى
بلوغ مرادى مـــن كريم المبـــرة

واساله تيسيـــر نظـم مرونـــق
بذكر رجال الحليـــة الاعطريـــة

على حسب الترتيب ، اذ كرزهرهم
وناتى بهم فى النظم فى حسن هيئة

4) ومنها نظم رجال التشوف مع شرحه : يقـول فى اوله :

اقول وماقولـي بشـيء وانمـــا
يروق مقال المرء بالحمد والشكـر

وافضـل اعمـال العباد صلاتهـم
على احمد المبعوث للعبد والحـــر

وبعد فان عنت خطـوب وخيمـت
بباب امرىء مثلي كئيب من الوزر

فلا شيء انجى من توسلنا الى الكر
يم باهل الله فى الضيق والعسر

بهم يرحم الله العباد بفضله
ومنهم علينا تنهمي سحب القطر

هم الناس كل الناس من ام بابهم
يتوج بتاج العز والمجد والفخر

5) ومنها نظم رجال الممتع : يقول فى اوله :

يقول عبد القادر المذنب الذى
يروم من المولى انتصار اجلاليا

الا ايها المرء الذى اشتد خطبه
واصبح يدعو الله للبؤس شاكيا

توسل باهل الله ان رمت نصرة
وعزا وفتحا فى الانام اجتبائيا

عنيت بهم من كان فى عاشر القرو
ن قد اخطوا لما كان حاديا

واذكر من ادركته وراءه من لقيت
ومن كان فى الوقت داعيا

تبلغ ابياتها مائة وخمسين بيتا وقفت عليها فى الكتاب الخطى المنسوخ بخط ابن عاشر الحافى وهي ممزوجة بتعليق عليها لصاحبها بذكر نبذة وجيزة لحياة رجالها مع بيان سنة وفاته ومحل دفنه يختمها بهاته الابيات :

منحتك درا من شيوخ منظما
ومن اجلهم للبدر امسى محاكيا

وفى رابع من بعد الالف ومية
بآخر شوال بدا متناهيا

وانى ارجو الله يمنحنى به
من الخير والافضال ما كنت راجيا

6) ومنها نظم رجال طبقات الامام الشعراني مع شرحه : الذى يقول فى اوله :

يقول ابن عبد القادر المذنب الذى
اتى نحو ابواب الكرام مهرولا

واشرف شيء فى انشاء امورنا
ابتداء بسم الله والحمد اولا

واحبوك نظما حاويا كل صالح
من الطبقات الغر اصبح معتلا

كما ذكر الشعراني جاء مرتبا
وحسبك نظما حاز تاجا مكللا

ويتتبع كل ابياته بشرح ماجاء فيها على عادته ، ويقول فى آخرها :

وقد كملت والله يحفظ من عنا
بها فى مقام كان اوان ترحلا

وفى اربع من بعد الالف ومية
بدت فى سماء المجد بدرا مكملا

زوالا بعيد الفطر كان ختامها
وظني بها اعطى من الله تفضلا

وابياتها نقط لراء وسبعة
كذا نقط فاء عدها قد تحصلا

واشياخها تابثين فوقها
تزيد قليلا دون كاف فتكملا

7) ومنها نزهة الناظر :

ضمنها رسائله واشعاره اللتين كتبهما فى سجنه ذكرها له صاحب الاعلام ، فهذا كل ما وقفت عليه من تراثه الفكرى واكثره كما علمت يرجع الى رجال التصوف الذين كان مولعا بسيرتهم ومشربهم حتى اثر ذلك فى تفكيره ، واخذ منه الزمان الكثير ، لتخليد مآثرهم وتمجيد اقوالهم ، وقد قيل من احب شيئا اكثر من ذكره ، ولكل وجهة هو موليها ، فاستبقوا الخيرات ، وفى الاثر من احب قوما حشر معهم، وفى آخر يبعث المرء على ما عاش عليه ، حشرنا الله جميعا فى زمرتهم ، واعاد علينا من بركاتهم ،

وهذه المنظومات ان دلت على شيء فانما تدل على ماأوتي صاحبها من عارضة عريضة، ومقدرة فائقة، وصبر على مثل هاته الاعمال الجلى، وعلى توسعه في معرفة رجال القوم، ومتابعة حياتهم، حتى تيسر ما تيسر له، فرحمه الله رحمة واسعة، وجازاه على حسن نيته، واثابه مثوبة العاملين الصادقين المجبين.

وقد قال صاحب نشر المثاني في حقه : كانت له ملكة في نظم الشعر وعارضة في الادب ولا يستغرب صدور مثل ذلك من احد افراد هذا البيت المباركي المشهور بالعلم والولاية.

وهنا يحسن ان ننشد ما قاله جميل بن معمر :

ارى كل عود نابت في ارومة
ابى منبت العيدان ان يتغيرا

بنو الصالحين الصالحون ومن يكن
لآباء صدق يلقهم حيث صيرا

واذا كان هذا الرجل بهاته المكانة العلمية بحيث خلف لنا تراثا فكريا يتمثل في ديوانه وفي رسائله وغيرهما، ومع ذلك لا ينصف من بعض المعاصرين فهذا الاستاذ محمد الاخضر لم يتناوله في اطروحته التي قدمها له الاستاذ محمد الفاسي، اذ لم يعرج عليه، ولم يذكره في كتابه المفتدى من عام ــ 1075 ــ 1171 لان عبد القادر التستاوتي مترجمنا توفي سنة 1127 هجرية وقد تناول بالدرس معاصره الحسن اليوسي الذي كانت بينهما مكاتبات الا يعد ذلك تقصيرا في حقه.

اما محنتـــه :

ومع جلالته في مقام القوم وعمله الواسع فانه لم ينج من مكائد معاصريه بل من اخص اقربائه بسبب (11) ادعاءاته التي شاعت عنه وهي انه يقول : اعطيت الشفاعة في اهل عصري، حكى ذلك عنه تلميذه ابو العباس احمد بن ابي عسرية ابن احمد الفاسي كتبه في كناشه، ثم ساله ان يوقع له عليه، فامضى هذا صحيح كما سطر اعلاه، بل واعظم من هذا انه كان يشير الى نفسه بانه صاحب الوقت او المهدي او ما اشبه ذلك، فتخوف من مقالته هاته اقاربه ان لم يرفعوا ذلك الى السلطان ابي النصر المولى اسماعيل رحمه الله، فلما وصله ذلك سجنه بسجن فاس الجديد سنة 1104 هجرية، وبقي في السجن نحو سنتين، ثم سرحه، ومن جملة ما تضمنته رسائله التي كتبها في السجن انه ذكر فيها ان المهديين ثلاثة اولهم مهدي الموحدين بن تومرت والثاني ذكر انه يظهر في اول المائة الثانية عشرة والثالث هو الذي يحضر في زمن الدجال، ويكون والله اعلم في اول المائة الثالثة عشرة، علق على كلامه هذا صاحب الاعلام بقوله : وقد علمت انه لم يظهر شيء من ذلك الى الان عام 1337، وقد قال ابن خلدون امام المؤرخين لا مهدوية في الاسلام، فانظره فقد اشبع الكلام في هذا الموضوع (12) وقال صاحب طلعة المشتري الذي نقله عن نشر المثاني قوله : وكان هذا السيد احمد بن عبد القادر في ابتداء امره يقسم لشيخه بالله الذي لا اله الا هو الرحمن الرحيم مامن ذنب صغير كان او كبير الا وقد ارتكبته، ثم صرح في آخر امره بانه بلغ من منزلته عند ربه انه مشفع في اهل عصره، ومن صدق في المقالة الاولى وصرح ولم يستح ولم يداج فينبغي ان نظن به الصدق في مقالته الثانية والله على كل شيء قدير انتهى هذا التأويل من صاحب النشر لمقالة هذا الرجل العالم الخبير وكم من امثاله صدر منهم البعض من هذه الشطحات والله العالم بالمخفيات وهو المجازي على النيات.

انتقالـــه من فاس الى حاضرة مكناس :

بعد هاته المحنة التي لقيها بفاس وبعد ما عفا عنه السلطان المولى اسماعيل رحمه الله وعقب خروجه من سجنه انتقل الى مكناسة واستوطنها وبقي ملازما لسكناها الى ان توفي بها رحمه الله.

كرمه ورقة عواطفه النبيلة وشعوره الانساني :

ذكر صاحب الاتحاف = ج 1 ص 329 = انه وقعت وحشة بينه وبين الشيخ الكامل العارف الواصل سيدي احمد بن ناصر، فبقي مدة يترضاه، ويستنزل بمحاسن ادبه ورضاه، الى ان لبى مناديه، فنحر لتلقي تلك المنة كل ما ملكت يمينه من الانعام، واوقد لقراءة كتاب الشيخ الشموع بالنهار، وكاد ان يجرى لكثرة ماذبح من الدماء الانهار، واخرج من الفرش المرفوعة ما قدر عليه، وقام عاري الراس حافي القدمين لقبض الكتاب الكريم الذي القي اليـــه :

واذا لم يكن من الذل بد
فالق بالذل ان لقيت الكبارا

ليس اجلالك الكبار بذل
انما الذل ان تجل الصغارا

افلا تدل هاته القصة على منتهى كرمه، واتساع حاله وبذخه، الذى كان يتنعم فيه؛ ثم حكى قصة اخرى من هذا النوع، فقال ومن ذلك انه وفد على صاحب الترجمة فتية من اولاد الشيخ ابي يعزى في خروجهم لصيد فاكرمهم وطعموا وشربوا وحين خروجهم وخرج ليشيعهم وجد كلابا بالباب اعدوها لصيدهم، فقال لمن هذه؟ فقالوا لنا نعاتبهم حيث لم يخبروه بها، فقال لهم اليس بعار ان تكون هاته الكلاب تصطاد لكم وتنزهكم تدخلون وتتركونها ولا تخبروني بمكانها؛ ماهذا شان صحبة الكرام؛ ثم اقسم ان لا ينصرفوا حتى يصنع للكلاب طعاما، واخذ في مداعبتهم ومحادثتهم ومؤانستهم حتى حضر طعام الكلاب فوضعه بين يديها ووقف عليها بنفسه حتى اكلت، فودعهم وانصرفوا شاكرين.

هكذا هكذا والا فلا ❊ طرق الجد غير طرق المزاح

قصتان عجيبتان تدلان على نبل هذا الرجل وكرمه الحاتمي حتى مع غير الانسان اخيه، بل مع جنس الكلاب التي يحرسن الانسان في سفره وحضره ويستعين بها في اصطياده ورياضته، الا فقل لاهل اروبا الذين يزعمون انهم هم السابقون لرعاية الحيوانات وانشاء جمعيات للحفاظ عليها والذب عن حقوقها قل لهم ان هذه القصة من احد علماء الاسلام تخجلكم فيما تدعون الاسبقية اليه؛ الا تعلمون ان رسول الاسلام اسس هاته الرافة والرحمة بمطلق حيوان منذ ثلاثة عشر قرنا، فقد قال: عليه الصلاة والسلام «في كل ذى كبد رطبة صدقة» انه لم يجعل مطلق الرافة بالحيوان شعورا انسانيا وحسب بل عد ذلك من الامور التى تحسب للراحم بها صدقة تدخر له يوم القيامة.

ولله در من قال:

هم القوم ان قالوا اصابوا وان دعوا
اجابوا وان اعطوا اطابوا واجزلوا

هم يمنعون الجار حتى كأنما
لجارهم فوق السماكين منزل

شيوخه:

قال في الاتحاف: منهم السيد عبد الكريم الجزيري اخذ عنه سند المصافحة وهو عن سعيد قدورة عن سعيد المقرى عن احمد حجي عن محمد الوهراني عن ابراهيم التازى عن صالح الزواوى عن محمد الشريف الفاسي نزيل الجزيرة عن والده عبد الرحمن وعاش اربعين ومائة سنة عن احمد بن عبد القادر القومن عن ابى العباس الملثم وهو صاحب رسول الله (ص) وله سند المصافحة ايضا عن سيدى عبد القادر الفاسي واجازه وقال له صافحتك بما صافحني به الاشياخ الى انس بن مالك رضي الله عنه قال صافحني رسول الله (ص) فلم ار خزا ولا قزا كان الين من كف رسول الله (ص) الحديث فيه روايات ثم قال صاحب الاتحاف قال صاحب الترجمة في كتابه نزهة الناظر وصافحني ايضا سيدى محمد بن ناصر الدرعي واجازني عن اشياخه الذين صافحوه الى النبي (ص) ه بنقل صاحب الازهار الندية وزاد قائلا ومن معتمديه امام السنة واعظمهم عليه منة شيخ الشريعة والحقيقة سيدى محمد بن ناصر الدرعى وعلى يديه فتح عليه قلت وقد تعرض لبعضهم هو نفسه في يائيته التى نظم فيها ممتع الاسماع حيث قال:

لقينا بفاس شيخها وامامها
هو «ابن علي» الفخر المجيد عطائيا

وخيار شاهدنا ابتهاج جماله
وقد كان للخيرات في الوقت صافيا

وفى ابن علي المولى الشريف بدالنا
جمال عنيت المدغرى المصافيا

الى ان يقول فيها:

ومنه اهتدينا للامام محمد
ونلنا شرابا اوسع الكاس صافيا

وعاملني القطب الهمام ابن ناصر
واوسعني برا وان كنت جافيا

قال في تعليقه على هاته الابيات وابن علي هو العالم الكبير الشهير ناظر عين فاس في وقته السيد عبد القادر الفاسي رحمه الله وآخر اجتماعي معه سنة 1081 واخذ عنه سند المصافحة كما تقدمت الاشارة اليه وكما اخذت عنه الحزب الكبير وفي سنة 1068 كنت اقرأ عليه الصاغاني بفاس وقال عن سيدي محمد ابن ناصر اجتمعت معه سنة 1081 واقبل علي غاية الاقبال ، ولم يلتفت اما صدر مني من قبيح الاعمال ، واجازني في كتب العلم وصافحني ، ثم عدت اليه سنة 1084 فاملني بما هو اهل له من الافضال ، وقال لي : انت من اهل الانس والدلال وقلت له والله لا ارجع لداري من هذا السفر المبارك حتى اشرب من شراب العاشقين ، وذات يوم ناولني شيئا فشربته وقلت له هل بررت في يميني فقال لي نعم بررت في يمينك ، وقال لي انت بضعة مني غدا يوم القيامة وآخر ما سمعت منه : اوصيك بتقوى الله العظيم والتكبير على كل شرف ض ، ومن اراد المزيد من معرفة اشياخه فعليه بتلك المنظومة مع شرحها فقد اطال النفس في هذا المقام وناهيكم بالرجلين العظيمين الشيخين سيدي عبد القادر الفاسي وسيدي محمد بن ابن ناصر ان يتخرج صاحبنا على يديهما ويأخذ معلوماته عن امثالهما فهما قدوة في باب العلمين الظاهري والباطني رحم الله الجميع .

تلامذته :

قال في الاتحاف : اخذ عنه العلامة الطبيب السيد عبد القادر بن العربي ابن شقرون المكناسي واحمد بن ابي عسرية بن احمد بن يوسف الفاسي في خلق كثير واقول ومنهم تلميذه البار العلامة ابو العباس احمد ابن عاشر المعروف بالحافي كما تقدمت الاشارة الى ذلك في المجلد المكتوب بخطه ؛ ووقفت في تقييد لاحد علماء سلا على ان من تلامذته العلامة المؤلف النوازلي قاضي سلا وهو السيد موسى الدغمي ؛ ولهذا التلميذ كتب علمية وفقهية مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ؛ وقال صاحب التقييد انه تبادل مع شيخه عدة رسائل حقق لي ذلك الاستاذ محمد المنوني .

مدحه :

من ذلك ماقاله تلميذه المعترف بفضله وعلمه ابو العباس احمد ابن عاشر الحافي معددا لفضائله ومشيدا بمآثره

1) اتيناكم بجمع قاصدينا
ابا العباس قطب العارفين

2) انجل مبارك حسني اصل
أغوث ذوى المعالي الراسخين

3) مقامك لا يوازيه مقام
اتى لك ذاك رب العالمين

4) اتينا بحركم نرجو اغترافا
وورداً من شراب العاشقين

5) ولذنا بابكم نبغي اعتطافا
ويابى الفضل طرد السائلين

6) فكم فرجت من كرب شداد
وكم انقذت قوما جاهلين

7) مثائرك السنية ليس تحصى
وحق المصطفى والتابعين

8) عليه من السلام الوف الف
سلاما فاق عد الحاسبين

= وفاته ومكان ضريحه :

قال صاحب الاتحاف = توفي رحمه الله بمكناس ليلة الاربعاء فاتح رجب سنة 1127 ودفن قرب روضة الشيخ عبد الله بن حمد خارج باب البرادعيين وقبره هناك مزارة شهيرة عليه بناء لا بأس به ،

وله عقب بزعير = يقال لهم = القادريون =

الرباط محمد التاودى بن عمر ابن سودة

1) البيت المباركي بيت مشهور بالعلـــم والولاية وجدهم الاعلى هو سيدي محمد ابن مبارك المدفون بارض زيان البعيد عن ضريح المولى ابي يعزى بنحو 24 كلم تقريبا المتوفى بالوباء بثاني شوال عـام 1006 هجرية وقد تتبعت المشهورين بالعلم من شخصيات هذا البيت في ج ، 2 من كتابي : زعيـر قديما وحديثا ،

2) سياتي الكلام على هذه المحنة التي عرفها في حياتـــه ،

3) هذا الرجل هو اول من قال بالنسبة النبويـــة الحسنية لبيت المباركيين وقد تعرضنا لذلك فـي ترجمة جدهم الاعلى سيدي محمد بن مبارك في كتابي المشار اليه ؛

4) من اتحاف اعلام الناس للمؤرخ = ابـن زيدان رحمه الله ج ، 1 ، 329

5) هاته المعلومات ماخوذة من المجموع الخطـــي الذي اعاره الي صديقي الاستاذ العلامة سيدي محمد الوافي بن عبد العزيز العراقي الحسيني الـذي اعاره اليـه والده وهو بخط ابى العباس ابن عاشـر الحافي ؛

6) لم اقف على هاته الفتنة التي قيلت فيها هاتـه الاشعار ولا على اسبابها ولعلها فتنة تهم الوطن ،

7) من لاعلام للقاضي المراكشي ج ، 2 ، 155 ؛

8) فسر الناظم صاحب الترجمة القنقـل بالمكيال المعظيم وبالتاج لكسرى وقال يصح المعنيان هنا ،

9) مجموع نقط الراء هي 200 ونقط الفاء 80 فاذا اضيف لهما سبعة صار 287 الجميع بيتا ، وذلـــك بحساب حروف الجمل ،

10) مجموع اشياخها ماخوذ من تادون 400 كاف 20 اي لا تبلغ الزيادة نقط كاف ولعل المجموع 419 بيتا ،

11) نقل ذلك عنه صاحب الاعـــلام للمراكشي ج ـ 2 ـ 155 ؛

12) انظر صفحات 895 ـ 916 من الجزء الثاني من مقدمة ابن خلدون تحقيق الدكتور علي عبد الواحـد وافي (الطبعة لجنة البيان العربي ، الطبعة الثانيـــة)

13) الباءة القوة على كثرة النكاح اي الوطء وتشمل حتى القدرة على النفقة وتكاليف الزوجة ففي الحديث الشريف : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه اغض للبصر واحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » اي وقاية من ارتكاب المحرم وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ؛

14) وينطق بالقادريين بسكون الدال ويوجد فخذ منهم بزعير وهم غير القادريين ذرية الولي الصالح مولانا عبد القادر الجيلاني المدفون ببغداد .

غرناطة في عصر ابن الخطيب

للأستاذ حسن السائح

الحاضرة وضواحيها :

تقع غرناطة فى الجنوب الشرقي للاندلس ، فى ارض خصبة ذات وديان وانهار تظللها الاشجار وتنتشر بها الاجنة الخضراء والبسائط الخصبة ... وقد عملت يد الفلاح الاندلسي فى خدمة الارض والحدائق وتنقيتها من الاحجار والاعشاب الطفيلية كما عمل الفكر الفلاحي والهندسي فى توزيع الري واختيار التربة للفراسة وتقليم الاشجار ... فانتشرت بنجاح عظيم اشجار الزيتون والتفاح والمشمش والخوخ والرمان والبرتقال والدراق والليمون والليم والاترج والموز والنخيل ذي الثمار المختلفة الانواع ، أما الجبال فقد كانت تستنبط منها معادن الذهب والفضة والرصاص والزئبق والمياه المعدنية والحمات الحارة ... وكانت البسائط تعطي من صنوف الحبوب والخضر كالزرع والشعير، والحنطة وقصب السكر والارز والقطن والقنب والعدس واللوبيا ، والفوق والبادنجال والسفرجل والفجل والفناء الشيء الكثير ، ويحمل اليها من انواع الاسماك مما تزخر به الانهار والشواطيء البحرية ، كما كانت الحياة الفلاحية تنعكس على نشاط المدينة الاقتصادي حيث اشتهرت معامل غرناطة بصنع الاسلحة ، والاقمشة الملونة والحريرية والملف الملون والكتان والقطان وصناعة الجلود ، والعقاقير والادوية والعطور وصياغة الذهب والفضة والجواهر والزمرد والالماس والجزع وصناعة الفسيفساء وصبغ الاحجار والنقش فى الرخام بانواعه وتقطير الآس والورد والياسمين والبنفسج والسوس والحبق ، وصناعة الصفارين من انواع الاوعية الحديدية والنحاسية ، وصناعة السروج وآلات الحرث وشبابيك النوافذ والابواب ، وصبغ الثياب والكبرتة (اي استخدام الكبريت) .

وكانت غرناطة ولاية عظيمة تضم نحو مائة بلدة وقرية بضواحيها يسكنها المئات من السكان ، ويتجاوز عددهم نحو نصف مليون نسمة او تزيد حسب النمو الديمغرافي . (ما لم تصب بنكبات الامراض والاوبئة التي كانت تجتاح العالم آنذاك بين الفينة والاخرى كالطاعون والكوليرا والتيفوس) ، وترتبط القرى مع بعضها بشبكة من الطرق العريضة المرصوفة بالحجارة المتأثرة ببقايا هندسة الطرق الرومانية والقوطية .. وعليها القناطر المشيدة بالاحجار والخشب ، حيث يزدحم المشاة والفرسان والعربات الخشبية بينما تقطع الانهار الاشرعة والسفن التجارية ، حتى اذا وصلت الى العاصمة (غرناطة) اتسعت الشوارع وكثرت الدكاكين واتقدت السرج فى الليل لاضاءة الطرق وبرزت المنافذ مزينة بالشبابيك ، وابواب الحمامات الرخامية المتسعة وكانت قصور غرناطة شاهقة متسعة الابواب ، عظيمة الحدائق المنتقاة الزهور والرياحين ... ويحيط بغرناطة سور كثيف متعدد الابواب الواسعة التي تعتبر مداخل المدينة

وعليها ابراج عالية ذات ثقب متعددة ، ويذكر ابن الخطيب (وهو أعظم مؤرخ لغرناطة) ان بها اربعين برجا بربض البيازين وهو حي عظيم به الدور التجارية والمعامل والدكاكين .

ولا غرو ان تكون هذه المدينة مترفة يقيم بها الاغنياء فى الغالب ، مما يستوجب حيوية تجارية وذوقا حضاريا رفيعا ، ولذلك كانت الاسرة الغرناطية تهتم باقتناء الحلل والجواهر ، وتتفنن فى الرياش وادوات المنزل والبسط والزرابي ، كما كانت تتفنن فى الاطعمة ذات الافاوية المتعددة ، واطعمة السطيلة والثقاية والحلويات من محرقة وشباكية واسفنجيات ومقاريط وكعك ، كما جاءت اوصاف ذلك فى نفح الطيب ، واستوجبت هذه الحياة سيادة نظام اسروي ذي اخلاق اسلامية سامية ، حيث النظافة والعفة ، وشغف بالفروسية والحفلات الفاخرة ، وتقدير شخصيات الرجال فى رقة الاخلاق ، ونظافة اللباس ، وفصاحة اللسان ، مما جعل لغة الغرناطيين تمتاز بالدقة والبيان وحسن المنطق ، وكان لباس الرجال اشبه ما يكون بلباس الافرنج يطيلون الشعور ويضعون القلانس على رؤوسهم ، اما القضاة فيلبسون الكسى .

اما جمال المراة فكان اعتدال القوام والعفة والدلال ، والتطيب والتزين بالحلي مع قلة الاختلاط مع الرجال الا فى بعض الحفلات العائلية الخاصة اما النظام السياسي فقد استمر نظام الحكم فى الاندلس فى عهد بني الاحمر على ما كان عليه فى الاندلس من تفويض السلطة للسلطان الذي يستعين بوزراء متعددين ، والذين كانوا يستبدون كلما قويت شخصيتهم كما نرى ذلك فى ظهور شخصية ابن الجياب وابن رضوان وابن زمرك ... ومن طبيعة هذا النظام التنافس للوصول الى المناصب ، والتباهي بالسلطة والتفاخر بالحكم ، وكانت تنحصر السلطة فى يد السلطان ليحكم البلاد ويتولى شؤونها العامة ، والدفاع عنها ويتصرف فى بيت المال الذي تكون مصادره من الزكوات والضرائب على الارض والملاحة ، والفلاحة والتجارة والمكوس المفروضة والمزارع الخاصة والمصادرات ... وكان السلطان يستعين على الاعمال (بوزير كاتب) ليراسل الملوك والرؤساء وينفذ الاوامر لتحقيق المشاريع ، ويستعين الوزير بجماعة من الكتاب حيث يمكن ترقيتهم الى مناصب الوزراء ، اما المنصب الثاني فى الدولة فهو (قائد الجيش) الذي كان يلقب فى غرناطة بشيخ الغزاة ، وكان معظمهم فى دولة غرناطة من بني مرين نظرا لتحملهم مسؤولية الدفاع عن الاندلس ، كما كان الجند فى غرناطة مكونين من المجندين من غرناطة والبربر ... وبالجيش مهندسون تقنيون لاستعمال البارود الذي كان اهم سلاح فى حروب غرناطة مع المسيحيين ، ولم يلبث القشتاليون المسيحيون ان احتكروا مواده الخام فضعف مركز المسلمين فى غرناطة عسكريا كما كان لامر قائد القوة جيش بحري ، واسطول منظم يرابط بالجزيرة وساحل مالقة ، ويتجلى نشاطه فى الدفاع عن الشواطىء وحمل المعونة من المغرب الى الاندلس ، وتامين المواصلة بين العدوتين ، ثم ياتي منصب ثالث فى الدولة وهو (لمتولي الشرطة) المعين من بين القواد والمكلف باستتباب الامن العام ومحاربة الثوار ، والمحاربين وقطاع الطرق وله سلطة تنفيذية واسعة ، ويتبعه حرس خاص كالجندرمة يلبس البسة حديدية وبيضات نحاسية ، اما الجيش المغربي فيحتفظ بالجلباب والبرنوس .

ثم ياتي منصب قاضي الجماعة وهو قاضي العاصمة وخطيب المسجد الجامع ويعتبر شيخ العلماء ومرد احكام المفتيين ، والمشرف على التعليم ويعمل تحت اشرافه المحتسب وهو (رئيس البلدية اليوم) يامر بالمعروف ، ويطارد المنكرات والمختلسين والمطففين ، ويحافظ على مصالح المدينة من نظافة الطرق وجمال البناء وتناسقه ، وانارة الشوارع كما تاتي مهمة صاحب الاشغال والمكلف بالجبايات المتعلقة بالدخل والخراج وجميع الضرائب ، وكذلك المكلف بالبريد ، وتوزيع الرسائل ... وكانت المدينة تعج بالبستانيين والتجارين والمهندسين ، والساعاتيين والزلاجين واصحاب الاعمال الدقيقة (الرفاريقية) فى البناء والنحت والجس والتلوين ، والحياكة ، والخياطة والحرارة ، والاطباء ، والكحالين ، والعشابين والصيدلية ، والسراجين والشماعين والحدادين والخرازين ... كما بها عشرات الدكاكين والارحية والمعامل ، وقد تعاونوا جميعا على بروز الفن الغرناطي الذي يبدو فى الفن المعماري بالقصور الشاهقة والمنازل الجميلة المزينة بالتماثيل الرخامية والفسيفساء الملونة والصور النهاتية والحيونية كصور الاسد والغزلان ودميات المرمر والساعات المائية .. وكانت القصور ذات قبب معقودة مكسوة فى الداخل بالجص الابيض ، عليها نقوش فنية بخط

كوفي او مجوهر لآيات قرآنية وقصائد شعرية وعلى عضادتي الابواب ابيات حكمية ... وتفنن النقاش على الخشب في التصوير على الابواب والنوافذ والصناديق والطاولات والكراسي كما تفنن صانع القماش في الترخيم والتشبيك والتلوين في الحائط ... ولم يبق الجمال المعماري ميتا بل ان نغمات الموسيقى الاندلسية والموشحات الغرناطية تتردد في اجواق متناسقة بآلات العود والرباب والقانون والدف ، والطار ... والكيتارة حيث يتخلل هذه الانغام الآلية الحان واصوات جميلة ، ورقصات يتلوى فيها البطن وتهتز الارداف وتميل الاعناق ـ هذه هي غرناطة التي عاشها ابن الخطيب واحبها وارخ لها ومات من اجلها .

نشاة ابن الخطيب

ذكر ابن الخطيب في الاحاطة ان مولده كان في الخامس والعشرين من شهر رجب عام ثلاثة عشر وسبعمائة 713 م ... ودخل الكتاب في مدينة « لوشة » مسقط راسه كعادة الاطفال الاندلسيين آنذاك ، فحفظ القرآن وجوده ، ثم تعلم مبادىء العربية على كثير من المعلمين وبالاخص على ابي القاسم بن جزى ، وتلقى بعد ذلك معلومات ثانوية فاخذ النحو عن شيخ النحاة الامام ابي عبد الله الفخار البيري وغيره من العلماء والمربين والفقهاء ـ وكان ابن الخطيب منذ طفولته طموحا بعينه ذكاء حاد وفهم ثاقب ونظرة بعيدة المدى . كما كان انتقال اسرته من « لوشة » الى غرناطة نقطة تحول في حياة اسرة ابن الخطيب ، فقد عين ابوه عبد الله مقتصدا في بلاط ابن الاحمر الذى استعمله على مخازن الطعام . فوجد ابن الخطيب في غرناطة الفرصة للدراسة على اللذين اخذ عنهم الادب كشيخ العدوتين الرئيس ابي الحسن بن الجياب ـ والفيلسوف ابي زكرياء بن هذيل الذى اختص بصحبته كما يقول ابن خلدون . فظهر ـ نبوغه في الشعر والترسيل والطب والفلسفة والتاريخ وماهي الا سنوات معدودات حتى لمع نجمه ، ودخل بتشجيع ابيه الى ديوان الرئيس ابن الجياب حيث عاش احداث الاندلس وتقلبات السياسة ومغامرات غرناطة وعرف بين مواطنيه بلسان الدين ابن الخطيب وبين القشتاليين المسيحيين بالعالم الكبير الفيلسوف ابن الخطيب

ثقافة ابن الخطيب :

لعلنا نستطيع ان نعرف ثقافة ابن الخطيب من خلال تراجم اشياخه الذين اخذ عنهم كالاديب الكبير علي بن الجياب وهو من المع شعراء الاندلس وكقاضي الجماعة محمد السبتي شارح الخزرجية ومقصورة حازم ، وشيخ النحاة محمد بن الفخار ، وابي العواد وابن بيبش ، ومحمد الاشعري ، والطنجالي ، والرحال الوادي اسي وكقاضي فاس محمد المقري وقاضي مكناس الفقيه عبد الحق بن سعيد والعالم المكناسي يونس الونشريسي وعمر الونشريسي والفقيه الاديب المكناسي ابو جعفر الجنان وقاضي مكناس ابن ابي رمانة والمربي الصوفي السلاوي احمد بن عاشر ، وابي اسحاق ابن ابي يحي التسولي التازي والصوفي الكبير عبد الله بن مرزوق التلمساني ... والكاتب العالم الرياضي يحي بن هذيل وابي بكر بن الحكيم الرندي ، وابن الحسن الفيجاطي وابي القاسم بن جزي كاتب رحلة ابن بطوطة ، والقاضي ابي بكر بن شبرين ، والمحدث سعد ابن ليون التجيبي وهذا التثبت من شيوخ ابن الخطيب دال على تنوع ثقافته واصالتها فقد اخذ عن المع كتاب عصره واشهر رجاله من محدثين وسياسيين وفقهاء وادباء ورياضيين واطباء وكتاب وشعراء فلا بدع ان نرى ابن الخطيب هضم معارفهم المتنوعة وصاغ منها ثقافة اصيلة اودعها كتبه الكثيرة ، فكان الشاعر والكاتب والمؤرخ والمترجم والطبيب .

وظائفه :

لسان الدين ابن الخطيب من اسرة طموح تعمل في خدمة دولة النصريين وكان ابوه متولي مخازن الطعام بقصر السلطان يوسف بن ابي الحجاج ولما توالت الهجومات المسيحية على ضواحي غرناطة خرج عبد الله الى معركة طريف مقاتلا حيث استشهد بها سنة 741 فدخل ولده لسان الدين الى القصر ليشتغل وظيفة امين سر للوزير ابي الحسن بن الجياب حتى اذا حل الوباء الكبير (الطاعون) بحوض البحر الابيض المتوسط سنة 749 كان من ضحاياه ابن الجياب فخلفه في الوزارة امين سره ابن الخطيب الذي اخذ نجمه يتالق في عالم السياسة والادب وقد لاحظ فيه السلطان ابو الحجاج يوسف مخايل

الذكاء والنشاط والحيوية فقربه اليه وكلفه بمهـــام سفارية وديبلوماسية وفق فيها توفيقا كبيرا حتـــى اصبح من رؤساء غرناطة الذين لا يبـــرم راى دون مشورتهم كالوزير الحاجب ابى النعيم رضوان ... وفى سنة (755) توفى السلطان ابو الحجاج مقتولا اثناء اداء صلاة عيد الفطر وخلفه ولده ابو عبد الله الغنى بالله الذى ارسل ابن الخطيب سفيرا الى بلاط ابى عنان المرينى سنة 755 فى وفد مـــن الوزراء بينهم ابو القاسم الشريف ليقنعه بمساعدة الاندلسيين فى حلف (فاس ــ غرناطة) لمواجهـــة التحـــدى المسيحى ولما عاد الى الاندلس منتصرا فى مهامـــه دخلت غرناطة فى فتنة عارمة حيث تآمـــر اعـــداء السلطان محمد الغنى بالله عليه وقتلوا فيما الوزير الحاجب ابو النعيم رضوان واصبـح سلطان غرناطة اسماعيل الحجاج الذي كان معتقلا بالحمراء بمؤازرة محمد الرئيس الذى قاد الفتنة لصالحه ، ورغـــم تآمر اعداء ابن الخطيب على منصبه فقد ظل اسماعيل فى حاجة اليه فقربه واستفاد من خبرته وتجربتـــه ثم لم يلبث خصوم ابن الخطيب ان نجحوا فى اقصائه فقبض عليه وصودرت امواله وممتلكاته ، ولا شك ان سمعة ابن الخطيب ومكانته السياسية والعلميـــة والادبية ولباقته الديبلوماسية ساعدت انصاره فـــى المغرب على التدخل بواسطة الملك المرينى ابى سالم لدى السلطان اسماعيل النصرى ليفرج عنه وعن الغنى بالله ليسمح لهما باللجوء السياســـى فـــى المغرب ، وفق الشريف ابو القاسم التلمسانى فـــى هذا المسعى بجواز ابن الخطيب ومخدومه الغنى بالله الى فاس فى محرم من سنة 761 . وطيلة اقامة ابن الخطيب بالمغرب اتصل بكبار رجاله كابن خلدون وتجول فى انحاء المغرب كله فاقام بسلا وشالـــة واخذ يدبر فى السر لقلب الوضع فى غرناطة التـــى كان من العسير ان تستقر نظرا لصعوبـــة الوضـــع السياسى والعسكرى بها ، حتى اذا كانت جمادى الثانية (763 هـ ــ 1361 م) رجع الغنى بالله الـــى عرشه بغرناطة ووزيره ابن الخطيب الـــى منصبه الوزاري بفضل معونة الوزير عمر بن عبد الله صديق بن خلدون حيث استقدم ابن الخطيب من سلا فجاء ابن الخطيب منها بعد ان ظل طيلة مقامه بالمغـــرب بعيدا ناسيا محمد (المخلوع) ومع ذلك تجاوز عنه ورده لمنزلته وذكر ابن خلدون كيف ان عثمان بـــن يحيى بن عمر شيخ الغزاة لحق اولا بالطاغية لمـــا شعر بضعف مركزه فى غرناطة ثم تحول عنه وخاطب الوزير المرينى عمر بن عبد الله ان يمكنه من بعض الثغور الغربية التى تحت طاعة بنى مرين بالاندلس والتى يرتقبون منها الفتح ، ويذكر ابن خلدون تدخله لذلك ، ولهذا ردت (رندة) الى الاندلسيين لانهـــا من تراثهم وكيف شوعنا محمد (المخلوع) فنزل بها ووضعه عثمان بن يحيى ، كما يصف ابن خلدون مكانة عثمان بن يحيى عند محمد المخلوع ... ولكن ابـــن الخطيب يتصرف صبيانيا حين تاخذه الغيرة مـــن عثمان بن يحيى، كما اخذته من بعد من ابن خلدون ولم يزل يدس ابن الخطيب لعثمان بن يحيى حتى نكب وسجن واستبد ابن الخطيب بالحكم ولم يحتط فى الاتصال مع جماهير الغرناطيين بما جعل الجميع يسعون به لدى السلطان الذى اخذ يشعر باستبداد ابـــن الخطيب ، وفى نفس الوقت كان ابن الخطيب يقيم صلات مع بلاط المغرب حيث نفذ امرا من السلطان عبد العزيز بـن ابى الحسن المرينى فى القبض علـــى ابن عمه عبد الرحمان بن أبي يفلوس المنصب شيخـا على الغزاة بالاندلس من قبل بنى مرين الذى اخـــذ يطالب بالحكم ويضرم الفتنة مع وزيره مسعود بـــن ماساى وخشى السلطان المرينى عبد العزيز مـــن هذه الفتنة المدافع عنها من قبـل السلطان محمـــد المخلوع ملك غرناطة ، وكلف ابن الخطيب بالقضاء عليها ، كان موقف ابن الخطيب مساندة دولة بنـــى مرين بشرط ان يكون له مكان فى بلاطهم وفعلا نجح فى القبض على ابن ابى يفلوس مما اعطى لخصوم ابن الخطيب الحجة ، على تلاعبه بين البلاطين ، وخيانته، لغرناطة ، ولذلك قرر ابن الخطيب اللجـوء الـــى المغرب لما افتضح امره ... والواقـع ان هـــذه التصرفات التى كان يلجأ اليها ابن الخطيب سلبته مكانته السياسية ، ورغم انه كان يطمع الى العمـل فى بلاط بن مرين نظرا ليأسه من الاندلس فان أعماله والاجراءات التى اتخذها لتحقيق مرماه وضعته فى قفص الاتهام بالاضافة الى افكاره التحررية الصوفية والفلسفية المبوثة فى كتبه والى تدخلاته لدى القضاء لمصالح ذويـه مما ضعـف مركـزه السياسي رغم بعد نظره ومنذ تأسيس مملكة غرناطة على يـد النصريين وهم يعتمدون فى سياستهم الخارجية على بنى مرين ، وعندما تولى محمد النصرى ارسل عقب ولايته بقليل وفدا من اكابر علماء الاندلس مستصرخين بني مرين فلبى ابو يوسف المريني دعوتهم وتوجه الى الاندلس سنة 673 هـ مجاهدا وبما ان المرينيين اعانوا الغنى بالله على استرداد ملكه فقد كان لشيخ الغزاة

عثمان بن يحيى قريبهم نفوذ قوى فى بلاط غرناطة ضايق به ابن الخطيب الذى لم يقف مكتوف الايد بل رد عليه اعنف رد وهزمه شر هزيمة فاقصاه سنة 764 هـ عن الوزارة حتى اذا خلا له الجو استبد بالحكم فظهرت معارضة ضد استبداده بالحكم تزعمها كثير من خصومه الذين اخذوا يكيدون له فى السر وشعر ابن الخطيب وهو المرهف الحس ان خصومه ينزلقون به الى مهاوى الهلاك ولاسيما تلميذه الوزير ابو عبد الله بن زمرك والقاضي ابو الحسن النباهي اللذان عملا جهدهما لتنظيم حملة مركزة خطيرة تهدف الى اقصاء ابن الخطيب والتنكيل بـه ... اما ابن الخطيب فقد ارسل ملك المرينيين عبد العزيز يلوذ بحماه ، ولما قبل التجاءه الى المغرب استأذن سلطانه ليقوم بجولة تفقدية فى جنوب الاندلس وما اذن له حتى حمل معه خاصته واهله وعبر من جبل طارق الى سبتة سنة 773 حيث خصه بلاط المرينيين بمكانة ممتازة اما خصومه فقد تابعوا حملاتهم المغرضة ضده واعدوا تقريرا خطيرا اتهموه فيه بالزندقة والالحاد والارتشاء والقول بالحلول على مذهب غلاة الصوفية والالحاد على مذهب الفلاسفة وقرروا احراق كتبه فى حضرة غرناطة فى جمع من العلماء والفقهاء سنة 773 ثم كتب ابو الحسن النباهي رسالة اتهام الى ابن الخطيب كما ادانه بصفته قاضي غرناطة بتهمة الالحاد ، وكتب فى ذلك حكما شرعيا فى ادانته صادق عليه سلطان غرناطة ، وطلبوا حكومة المغرب بتنفيذ الحكم بقتل ابن الخطيب ، ولكن ملك المغرب ابى ان ينفذ الحكم ورغم جميع الاغراآت والهدايات فقد ظل ابن الخطيب بعيدا عن يد خصومه ، وما ان توفى السلطان عبد العزيز حامي ابن الخطيب سنة (774) حتى وجد اعداء ابن الخطيب الفرصة مواتية ، سيما بعد ان تربع على عرش المغرب السلطان السعيد الذى كان مايزال صغيرا بوصاية الوزير ابن بكر الغازى الذى الف له ابن الخطيب كتاب (اعلام الاعلام فيمن بويع من ملوك الاسلام ، قبل الاحتلام تمكينا للوصاية على العرش ولكن ابن غازي لم يستطع الصمود امام ثورة الامير احمد بن ابى سالم المريني المطالب بالعرش والذى نجح فى مسعاه واصبح ملك المغرب سنة (776) هـ (1374 م) وهو الذى كان صديقا للغني بالله فعين سليمان بن داود وزيرا ، وكان من اول اعماله ان القى القبض على ابن الخطيب .. وما ان ذاع الخبر حتى غادر الوزير ابن زمرك الاندلس الى فاس ليحاكم بنفسه ابن الخطيب وينفذ فيه حكم القاضي النباهي ، وامام جمهور المتفرجين كان ابن الخطيب يحاكم بقسوة واهانة امام الناس ، وينادى بعض المغرضين بقتله ... وما ان اعيد الى سجنه حتى بعث الوزير سليمان جماعة من العملاء الاجراء ليقتلوه فى سجنه خوفا من ان ينفلت من حكم الاعدام وفعلا تسور عليه هؤلاء السجن فقتلوه خنقا ثم حملوا جثته الى باب الشريعة بفاس فدفن بها ... واخرج مرة ثانية من قبره ، واضرموا النار باشلاله ثم اعيد الى حفرته ... وبقى قبره متواضعا زاره المقرى مؤلف نفح الطيب المتوفى سنة 1041 هجرية وشاهد موضع دفنه غير مستو مع الارض ، بل ينزل اليه باعدار كثير وفى مطلع هذا القرن جدد قبره واظهر معالمه احد المعجبين به ، ثم شيدت اخيرا على قبره قبة فخمة تكريما للمؤرخ الطبيب الكاتب العظيم .

تفاعل ابن الخطيب مع عصره

تأثر ابن الخطيب بعصره واثر فيه .. تأثر به من حيث دراسته الاولى وثقافته التى استمدها من معطيات عصره ، كما تفاعل مع احداثه السياسية والعلمية والادبية والاقتصادية فقد كان وزيرا وسفيرا كما كان شاعرا كاتبا صوفيا ... اخذ كثيرا واعطى كثيرا ، ولعلنا نكون اقرب الى الصواب حين نقسم حياته الى سلسلة احداث موقوتة بالسنين ا فمن ولادته) (713) الى دراسته وهو طالب يدرس ويستوعب ويستفيد ومن سنة 749 وهو سياسي يكافح ويناضل باشراف واعتزاز وغرور وتحد ... وقد انتج فى هذه الحقبة اكثر تآليفه فى الادب والطب والتراجم فالف تاج المحاسن ، والكتيبة الكلمنة والاكليل الزاهر ، والنفاية بعد الكفاية ، وغيرها من تآليفه الادبية ذات الطابع التاريخي والموسوعى كما الف اليوسفي (فى الطب) وهو من اهم مؤلفاته فى هذا الميدان وفى سنة 760 عاش النكبة بعد الانقلاب الذى حدث فى 28 رمضان 760 هجرية حيث استولى على الحكم الامير اسماعيل ووفد ابن الخطيب على المغرب سنة 761 فطاف بين المدن واشتد تأمله فى الحياة ونضجت تجربته ، وتعلق قلبه بالتصوف وكان انتاجه غزيرا فى هذه الحقبة التى الف فيها كتبا عن تراجم اعلام المغرب ومذكراته الادبية وتعاليق فى الطب وكتب فى النقد والخصومات

واشهر انتاجه (معيار الاختيـــار) ، ونفاضـــة الجراب ، واللمحة البدرية ، والحلل المرموقة ، ورقم الحلل ،وكناسة الدكان ومثلى الطريقة فى ذم الوثيقة ، والفية فى أصول الفقه ، والمعلومة فى معارضـــة المجهولة والرجز فى عمل الترياق الفاروقـــى .. ورسائل ابن الخطيب فى الموسيقى والبيطرة واليزرة .. وبعد عودته من المغرب اخذ ابن الخطيب يقاوم حسد الحاسدين ، ويسوس الدولة بحزم وعزم وقد أصبح ذا الوزارتين وطيلة هذه الفترة كان ابـــن الخطيب رجل الجد والصرامة والمتصوف المكفر عن خطاياه وقد انتج فى هذه المدة (روضة التعريف) معبرا عن اتجاهه الجديد وامله ان يتـــرك الدنيـــا وزخرفها ولكن القدر كان له بالمرصاد فلقى مـــن خصومه ودساسيهم ما جعله يجعل بالفـرار الـى المغرب آملا زيارة الحجاز لاداء الفريضة ، ولكـن القدر حال دون رغباته فتابعه اعداؤه مطالبين بدمه الى ان حوكم دون مرافقة او دفاع ثم تسور الدهماء عليه السجن فقتلوه مختوقـــا ودفنـــوه ليخرجـــوه من قبره ويحرقوه قبل ان يدفنوه الدفن الاخير .

ابن أبي الخطيب السياسي :

فى بلاطيـــن متنافسين احدهمـــا فى قصـــر الحمراء بغرناطة حيث تعيش الاندلس آخر ايامهـــا امام الغزو المنظم الطويل النفس للقوات المسيحية المحدقة بالمدينة التى تلتقط آخـــر انفاسهـــا (وثانيهما) فى فاس حيث دولة بنى مرين الممتدة فى انتصارات مظفرة الى تونس والمؤسسة علـــى بركان من التنافس والخلايا الصوفية ، والناقمات الاجتماعية ... وبين البلاطين صلات ود وصداقـــة تفرضها الظروف القاسية التى تعيشهـــا الاندلس والمغرب فيضطران الى التعـاون والتـــآزر ، اذ ان المرينيين جاءوا لينقذوا المملكة الاسلامية المهـــددة فى الاندلس بعد ان عجز الموحدون عـــن اتخاذ الموقف فجاء المرينيون ليبذلـــوا الجهـــد حتـــى يستخلصوا غرناطة من انياب المسيحية ، كمـــا ان النصريين فرض عليهم الالتجاء الى بني مرين ليستمدوا العون المادى والعسكرى حتى يقفوا فـــى وجـــه القشتاليين ويختفى تحت بريق الصداقة والـــود تنافس عنيف بين البلاطين على السيطرة والحكـــم والمباهاة بالانتصارات والغلبة ... واذا كان رجال الادب والعلم والفن يعيشون فى غفلة عن الاحـــداث فان رجل السياسة يصنعها ويعيشها ويتجرع نتائجها

.. وهكذا عاش ابن الخطيب احداث السياســـة وتجرع علقمها حتى الثمالة . اما فى الاندلس فاذا كان رجل الادب يصور الاحداث ورجل العلم يحللها ورجل الفن يستنبطها فان رجل السياسة يصنعها وتبدو عبقريته حين يكون بعيد الرؤية اصيل النظرة يعرف حركة المجتمع وتماسكه وآماله وطموحـــه ومقدراته وامكاناته . كما يعرف خصمـــه معرفـــة دقيقة وخصوم بلاده ومجتمعه ليقود السفينة بعزم وحزم ودون توقف ، يتمتع بذهن حي ويرى اشبـــاح المستقبل قبل ان تصبح ماثلة بين يديه . وقد كان ابن الخطيب فى مستوى المسؤولية ، ولكن الاحداث تجاوزت مرحلة الانقاذ فكان عليه ان يؤجل ويماطـــل دون ان يضع لها حدا ، ولهذا فابن الخطيب كان مترقبا للهزيمة ، وقد شعر ان القضاء عم وانه لن يستطيع لـــه ردا .

ون الصعب ان نرصد اعمال ابـــن الخطيب السياسية وما اكثرها ، ولكن لنشير باقتضاب الـى المواقف التي كان لها الاثر الاكبـــر فى ارتباكه وقـــد سبق ذكر نص ابن خلدون فى تاريخه عنرجوع ابن الخطيب الى الاندلس بعد خروجه منها وكيف ان ابا سالم المرينى تشفع له لدى بلاط غرناطة ليعـــود مع مخدومه الى الاندلس ثم كيف عاد محمد المخلوع الى الاندلس فى عهد حكومة عبد الله بن علي الظاهـــر فى دولة بني مرين فقد استقدم ابن الخطيب مـــن سلا بعد ان ظل بها طيلة مقامه بالمغرب ناسيا محمد (المخلوع) ومع ذلك تجاوز عنه ورده لمنزلته واعتباره ويروى ابن خلدون أن عثمان بن يحيى بن عمر شيخ الغزاة لحق اولا بالطاغية لما شعر بضعف مركـــزه بغرناطة ثم تحول عنه وخاطب الوزير المرينى عمر بن عبد الله ان يمكنه من بعض الثغور الغربية التـــي تحت طاعة بني مرين بالاندلس ، والتي يرتقبون منهـــا الفتح كما يروى ابن خلدون تدخله لذلك ، ولهذا اردن مدينة الى الاندلسيين لأنها من تراثهم فنزل بها محمد المخلوع ومعه عثمان بن يحيـــى كمـــا يصـــف ابن خلدون مكانة عثمان بن يحيى عند محمد المخلوع ... ولكن ابن الخطيـــب تأخـــذه الغيـــرة من عثمـــان ابن يحيى ، ولم يزل يدس له ابن الخطيـــب حتـــى نكب وسجن واستبد ابن الخطيب بالحكم ولم يحتط فى الاتصالات مع الناس بما جعل الجميع يسعون به لدى السلطان الذي اخذ يشعر باستبداد بن الخطيب وفى نفس الوقت كان ابن الخطيب يقيم صلات مـــع بلاط المغرب حيث نفذ أوامر السلطان عبد العزيـــز

بن ابي الحسن المريني في القبض على ابن عمه عبد الرحمن بن ابي يفلوس المنصب شيخا على الغزاة بالاندلس من قبل بني مرين الذي أخذ يطالب بالحكم ويضرم الفتنة مع وزيره مسعود بن ماساي ويخش السلطان المريني عبد العزيز من هذه الفئة المحمية بالسلطان محمد المخلوع ملك غرناطة وكلف ابن الخطيب بالقضاء عليها وكان موقف ابن الخطيب مساندة بلاط بني مرين بشرط ان يكون له مكان في بلاطهم وفعلا نجح في القبض على ابن ابي يفلوس مما اعطى لخصوم ابن الخطيب الحجة على تلاعبه بين البلاطين وخيانته لغرناطة ولذلك قرر ابن الخطيب اللجوء الى المغرب لما افتضح امره ... وهذه التصرفات التي كان يلجأ اليها ابن الخطيب سلبته مكانته السياسية ورغم انه كان يطمح الى العمل في بلاط بني مرين نظرا ليأسه من الاندلس فان اعماله والاجراءات التي اتخذها لتحقيق مرماه وضعته في قفص الاتهام وشككت في نواياه وافقدته مكانته ؟

وفي عهد السلطان يوسف حيث اشتدت وطأة الهجوم المسيحي على المسلمين في عهد الفونسو الحادي عشر وكثرت الامدادات المرينية لغرناطة برز اتحاد اسطول القشتاليين والاراجوان والبرتغال وواجه القوة المغربية المتمثلة في الاسطول القوى والقوة المرابطة بالثغور مما الزم عبور السلطان ابي الحسن بنفسه الى الاندلس ليواجه الغزو المسيحي بنفسه ، ومما جعل بلاط غرناطة ثانويا امام مسؤولية بني مرين في مواجهة التحدى المسيحي بجدية وحيوية وعزم . وقد اثار هذا الموقف الدقيق حساسية البلاط الغرناطي وتوجس خيفة من تدخل بني مرين في شؤون الاندلس مالم يملكوا الحجة لمواجهة المغاربة وهم المدافعون عنهم بعد عجزهم المطلق ؛ فظلوا خائفين من نتائج هذا التدخل . ولذلك لجأوا الى الوسائل الديبلوماسية للسيطرة على الموقف من جديد .. وفي هذا الوقت الصعب جاء ابن الخطيب ليكون نقطة الارتكاز في تنفيذ سياسة مرتبة تعيد الثقة الى غرناطة والى بني مرين ايضا ... فاوفده محمد بن ابي الحجاج الى بلاط ابي عنان المريني سنة 755 ... وقد نجح في مهمته نجاحا كبيرا ويقول احد اعضاء الوفد القاضي ابو القاسم الشريف (لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل ان يسلم على السلطان قبل هذا)

ولكن الوزير ابن الخطيب كعادته يتملكه الاعجاب بنفسه ويتملكه الغرور فيثير عليه الاحقاد ويضعف موقفه امام الخطر المحدق ، وهكذا تردت غرناطة في فتنة عارمة انتهت بالهجوم على قصر الحمراء سنة 760 حيث قتل الحاجب رضوان وخلع الغنى بالله وخرج اخوه اسماعيل من سجن الحمراء يساعده صهره الرئيس عبد الله وامه المقيمة في قصر الحمراء ورغم مصانعة ابن الخطيب لحكام العهد الجديد فقد كان مشكوكا في نواياه فاعتقل وصودرت أمواله ؛ ولولا صداقة الملك ابي سالم المريني للسلطان المخلوع ولابن الخطيب لكانت النهاية سيئة واليمة بالنسبة لهما معا ...

وهكذا تبدو نقطة الضعف في سياسة ابن الخطيب وهي الغرور والاعجاب بالنفس وعدم الاهتمام بالقضايا الصغرى التي تؤدى الى المواقف الحرجة الصعبة .

الرباط : حسن السائح

قصة العدد

بلابل قرطبة

للأستاذ محمد بن أحمد اشماعو

تفرق الجند ، وذهب الحراس ، وتعطل الديوان ، واحتجب الوزراء ، وولى القائمون على شؤون العاصمة (قرطبة) وشؤون البلاد الاندلسية كلها ؛ وسلموا في مسؤولياتهم وتركوا الامور تجري كما قدر لها . فعمت الفوضى ، وساد الاضطراب فترة من الزمان ... وهاهي الحالة قد عادت الى الهدوء ، واخذ (الرؤساء الجدد) يباشرون مهامهم ، كما اخذ المولعون بتسجيل الاحداث وكتابة التاريخ فى اثبات ملاحظاتهم ، وترجيح الحق على الباطل — جهد المستطاع — فى قضية الخليفة المنكوب (المعتد بالله) ... اما الذكريات الجميلة عن بنى امية ، فلم يبق لها سير الا على افواه الشيوخ والعجائز ، الذين يستندون فى احكامهم على عواطف صادقة ، نابعة من قلوب سعدت حقا بالايام الخوالي ، ايام المجد والعز والرفاهية .

وما مرت ايام حتى شاع بين الاقوام ، فى اوساط خاصة ، ان الابواب الامامية للقصر الاموى تزحزحت مصاريعها الضخمة واخذت قلة من الحراس تاخذ مكانها ، وراج الهمس ان غادة هيفاء فائقة الحسن اخذت تغادر القصر الجليل ، وتذهب فى الطرقات ، لا تصاحبها الا خادمة خاصة سفيرة ، وان من تتبعوا خطواتها وجدوا انها تقصد دكاكين الوراقين وباعة الكتب ، وتمر ايضا على دكاكين البزازين وباعة الحلي والعطور ... الا ان وقفاتها تطول عند الكتبيين ، من حيث تتصفح العديد من الكتب ، ثم تختار منها ما تختار ، ولا تجد حرجا في السؤال عن الجديد الواصل من الدواوين الشعرية ، دواوين الشعراء الاندلسيين والمشارقة والمغاربة ، خصوصا المحدثين ، من الذين امدوا ذخائر الشعر بطرائف معجبة بمعانيها ومبانيها ...

والادباء عامة ، والشعراء خاصة لا يفوتهم موقف مثل موقف الاديبة المستفسرة عن الجديد فى دنيا الادب ، فهم ذوو حذق وفضول مهذب ، وهم ايضا ذوو ابصار فاحصة منقبة ، وهم — هداهم الله — ذوو آذان رهيفة ، وعواطف رقيقة ، يهزها النسيم ويحركها الهمس الخافت . لقد سمعوا — وهم يجالسون الكتبيين — صوت الفتاة ، فتاة القصر الاموى النبيلة ، وكان صوتا نسويا نقيا خالصا ذا رنة عذبة ، هذبته اساليب التدريب — ايام الدراسة — على حسن الالقاء وجودة الانشاد ، وسمعوا الضحكة الخفيفة غير المبتذلة ، عندما دعا داعيها ، وكانت هذه الضحكات فى مناسباتها دالة على خفة الروح ورقة الاحساس وحسن الاستجابة لحلاوة النكتة .

احسن من هذا ، انهم راوا — وبالروعة ما راوا — عيونا خضراء زمردية ساحرة ، تفتن بتحديقها وبلمحاتها وبشرودها ... ويزين الاحداق اشفار جميلة ، تعلوها حواجب مجزوزة ، كما ان امارات من الشعر الاشقر كانت تطل من حول الصدغين ، ومن فوق الحاجبين ، متهدلة على بشرة مشرقة ، غاية فى الاشراق ، وترا آى الكف والمعصم فى بضاضة ، دالة على صحة وافرة ولبونة باذخة .

والكتبيون والوراقون معهم ـ ككل التجار ـ يتوفرون على لباقة متناهية . لقد استطاعوا ان يجاذبوا زبونتهم الفاتنة اطراف الحديث ، وان يعرفوا بها جلساءهم الشغوفين ، وهم من حملة اقلام النثر ، ومرتقي اشطار الشعر ، ولا عجب ان هممت الشفاة ، وخشعت الابصار ، وانفرجت الصدور عن آهات . . .

انه ليعز على اميرة اديبة ان تجالس الادباء ، لانهم من خيرة الطبقات ، ولكن ذلك لن يكون ابدا على ابواب الدكاكين او داخلها ، فلتتجرا باستدعاء الشعراء والبلغاء والظرفاء الى مجلسها ، ان هذا في امكان اديبة اميرة ، متفتحة القريحة ، ملتهبة العواطف ، جياشة الفؤاد ، قوية الحافظة ، بما اختزنت فيها من عيون الاشعار ، قديمها وحديثها ، المشرقي منها والمغربي ، ان ذلك نتيجة التربية العلمية الادبية التى نشاها عليها ابوها سليل الخلفاء الامويين ، انها الحسنة الكبرى التى اسداها للبلاد الاندلسية ، ولهذه الفتاة بالذات ، حتى تركها هكذا تلهج بالشعر ، وتنقب عن الجديد في الشعر وتروم عشرة الشعراء ، ولا مجال لها الا الرياض تتيه بين اشجارها وازهارها واعشابها تارة قافزة ، وتارة سائرة ، واخرى متمددة ، والشعراء حيثما كانوا متآنسون متوددون يملون ترديد المقطوعات الشعرية وحدهم ، ومع انفسهم ، ويتعبون منها وهي تخالج صدورهم وتتفجر بها حلوقهم ، هم يريدون المستمع ، المستمع الشغوف الطروب ، الذي يحسن الاستماع ، ويذوب رقة وطرافة منصتا او منشدا ، بل الذي يكاد يخرج من ثيابه عند الاستماع من شدة الطرب والاعجاب . . . هذا اذا كان الامر يتعلق بشاعر ، اما اذا كان يتعلق بشاعرة ، فالمسالة مسالة رحيق عاطر حلو ، من زهرة فواحة متفتحة .

وبحاسة الانثى الرهيفة الشعور ، المكبوتة العواطف ، المعانية من تصاريف الاقدار ، التواقة الى عودة ايام العز ، ولو في بعض جوانبها . . . وجدت الاميرة ان نظرات هؤلاء القوم عامرة بالشوق والحنين والخشوع لسلطان الجمال ، كما ادركت انها كلما اقبلت ـ المرة بعد ـ المرة ـ وجدت عدد الجالسين يتزايد ، وانهم في فترة وجودها يسودهم اضطراب ملحوظ ، فلا ذلك الجالس مستقر هادىء في جلسته ، ولا ذلك المحملق كف عن حملقته ، وعن حك لحيته وجذبها ، والثالث لا يستطيع التحكم في انطباق شفتيه ، ورابع يفتح الله عليه في القول ، فهو يقول ويكرر القول ، ولا يترك مجالا للاخرين ليقولوا ، مسكين ! له العذر . انه يريد ان يكسب الاعجاب وحده . . . انما الاذكى من الجميع هو ذلك الفتى الوسيم ، الرقيق البسمة ، المتناسق الاطراف ، العريض الاكتاف ، الفاحم الشعر ، الاسمر اللون ، الفتن الاشارات . انه يلمح ولا يحدق ، يعلق باقتضاب ولا يثرثر ، يرفض عن طريق السكوت ، ويقبل عن طريق الابتسام ، واحيانا هو مبتسم في كل الاحوال . انما عند رغبة الزائرة في الانصراف رفع طرفا تائها حالما مشحونا بالرغبة والطيبة والرقة ، في فترة لم تتعد ما بين رفع البصر وخفضه !

ولم يبق هناك غموض ، اذ انكشف للوارقيين والكتبيين وجلسائهم بان الزبونة المواظبة هي في حقيقتها (الاميرة ولادة) ابنة الخليفة الذاهب (المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن) وانكشف الامر لها هي ايضا ،عندما سالت (صبي الوراق) عن احد الجلساء بالذات ، فقال لها ، في معابثة شيطانية ، ليست مفرقة في شيطنتها :

انه ابن زيدون الشاعر المشهور ، آه كم هو جميل ، لو كنت فتاة لتزوجته ، او على الاقل لصاحبته . . . !

احمر وجه العذراء الساحر قليلا ، واقبلت على الكتبي ، دون تردد ، وقدمت له دعوة لياتي هو وجلساؤه الكرام الى القصر ، وحذرت بشدة غير متناهية ، في طيها اغراء خفي : انها لن تقبل الا بحضور المجموعة كاملة ، وان اى احد يجيء بمفرده ، ستضطر الى ابقائه في الروض خارج مكتبتها النفيسة العزيزة ، وخارج المجلس الادبي الفاخر بفروشاته واثاثه . ولا لوم عيها يومئذ .

غير ان الادباء عصاة ابدا ، يركبون رؤوسهم ويغامرون فيعصون الاوامر ، ولا يخشون في ذلك احدا ، ولعلهم يعتقدون ان الحسناوات لسن شديدات الاوامر في اية حال ، بل يلذ لهن ان تعصى اوامرهن من بعض الرجال . . . وهكذا ، بعد الزيارة الاولى والثانية والثالثة للمجموعة ، انسل (احمد بن عبد الله بن زيدون) ودخل القصر ، واثقا من نفسه ،

يخطو في الممرات بثبات . . . واستاذن للدخول على الاميرة . . .

كان المساء ، الذي جاء فيه ـ من أمسيات الربيع ، والربيع جميل في كل بقاع الدنيا ، ولكن جماله في أرض الاندلس أروع وابدع ، كل الازهار متفتحة ، كل الورود ، الورود ـ على الخصوص تفتحت تفتحا تاما على غصيناتها ، وفاح عطرها في الانحاء ، والخيري ارسل نفحات من الروائح العطرة ، التي هي قليلة في تلك اللحظة ، ولكنها ستتزايد بذهاب أشعة الشمس وحلول الليل ، أما الخزامى والريحان فقد حركته مرشات البستانيين ففاح العطر آخاذا منعشا .

كانت هناك سقيفة ، تعلوها اغصان دالية مورقة ، ويحيط بها جدار زجاجي صقيل وأرضها مفروشة ببساط مزخرف بديع ، وتتوسطها منضدة من خشب المرمر المخرم ، والمطعم بخشب الليمون الفاقع ، وحول المنضدة رصت كراسي مبطنة بنسيج حريري ملون ، مريحة لمن يجلس عليها ، وعلى وجه الطاولة وضع ديوان شعر مجلد باناقة ، كان أول شيء اخذ باهتمام الزائر ، فتناوله باستعجال ، محافظا على الصفحة التي وجده معلما عندها ، وقصده ان يعرف شيئا من اهتمامات القارئة الفاتنة ، وكانت القصيدة مكتوبة بخط أنيق بالغ الاناقة ، تلاحظ فيه امارات الخط الانثوي الدقيق ... وكانت الابيات التي وقفت عندها هي هذه :

اذا اخبرت عن رجل برىء
من الآفات ظاهره صحيح

فسلهم عنه : هل هو آدمي
ان قالوا : نعم ، فالقول ريح !

ولكن بعضنا اهل استتار ،
وعند الله اجمعنا جريح

ومن انعام خالقنا علينا
بأن ذنوبنا ليست تفوح

فلو فاحت لاصبحنا هروبا
فرادى بالفلا ، مانستريح

وضاق بكل منتحل صلاحا
لنتن ذنوبه البلد الفسيح

أعجبت الابيات الشاعر الشاب ، وتوقف عند سهولة ألفاظها وصدق معانيها الفلسفية وتمعن الصفحة فلاحظ كثرة الاستعمال ، مما يدل على اعجاب الاديبة بهذه القطعة بالذات ، التي ترصى ولاتك شيئا في اعماق نفسها .

واقبلت الاميرة اقبال السعد رائعة فاتنة ، خلابة وقد أزالت عنها حجابها ، وكاد الزائر المتلهف يقفز من مكانه مسلما ، ولكنه ـ لبراعته ـ تجلد وتصبر ، واكتفى بأن خفض راسه محييا باحترام ، ونسي أن الكتاب مازال بين يديه مفتوحا ، عند الصفحة المعلومة .

ابتسمت وقالت بعد كلمة ترحيب لا تخلو من ترفع :

ـ ارى ان الشعر يعجبك ؟

ـ ومن لا يعجبه شعر الغزال ، انه غزال خلقة وابداعا ...

ـ انت مطلع وعارف ياهذا ، هل بلغك قوله :

يعرف عقل المرء من اربع :
مشيته أولها ، والحرك ،
ونور عينيه ، والفاظه ،
بعد ، عليها يدور الفلك

وتطلع الزائر الاريب الى الاميرة ، وخطرت له اللحظة القريبة ، وهي قادمة اليه فعلق :

ـ أن هذين البيتين على درجة كبيرة من الصدق . ولن اعدم الدليل الملموس ، الذى لم يتقادم عليه العهد

ادركت الاميرة تلميحه فقالت :

فهمنا قصدنا ايها الأديب . الله لنا منكم ايها الأدباء ، ما ان ترموا حتى ترجعوا السهم من حيث اتى ، ما اكثر جراحنا منكم لا شفاها الله !

ـ حقاسيدتى ، في الميدان شهداء وشهيدات ، فليرحمهم الله برحمة الفن والادب .

ـ أمتأكد انت يا ابن زيدون ؟

ـ لا يامولاتي لا ، التأكد والجزم والاعتقاد وماهو في حكم ذلك ليس من شيمنا نحن الشعراء فنحن متشككون واهمون ضالون ، الا ان بعضنا اهل استتار كما قال شاعرنا عليه الرحمة .

— صدقت ، ان هذا هو ما يميز الشعراء مــن غيرهم ، وهو امر لا يحتاج الى جدال او مما حكة انما شعراء الاندلس اكثر تشككا واشدوهما ، واغــرق شعراء الدنيا في الضلال !

— لا املك الا ان اؤيدك يا مولاتي ، فكان لسانك العذب ينطق عما في ضميري في كل مرة ، وكيف لا اؤيدك وارضنا هذه ارض خصبة ، وماؤنا ماء رائق ، وهواؤنا هواء سعيد ، وجمالنا جمال فاتن ، وحبنــا حــب ملتهــب .

احمرت وجنتا الاميرة خجــلا ، واقبلــت على الصفحات تقلبها ، لكانها تستنجد بها لتسعفها بما يؤيد وجهة نظر محدثها ، فهو جدير بان يعزز ويؤيد على طول الخط. فان جاء ذلك مــن الديوان فبهــا ونعمت ، والا فهي نفسها ستصوغ المعنى الجائــل بنفسها في ابيات شعرية !

وتطلعت اليه فوجدته يعاني (مخاضا) ، شعريا، ان المعنى رائج في ذهنه ممتزج بشرايين قلبه لذلك فهو يريد ان يقول ما قال شعرا . اذ الشعــر يلبس المعاني جودة وروعة .

وهكذا كانا معا يعانيان ازمة داخلية ، كادا يغيبان معها في بحر ، لا يعرف بالضبط متى يستيقظــان منه . الا ان قطرات المطر تتسلل من بيــن اوراق الدالية فنبهتهما الى نفسهما عندئذ تفطنت ربة المنزل ، ودعت زائرها الى مغادرة السقيفة للدخول الى احدى حجرات القصر ...

وبدهاء ومكر لطيفين قالت الاميرة :

— ان القاعة مهياة لندوتنا الشعرية ، لكنــى ارى اصحابك لم يحضروا بعد ، اتراك زغت منهــم ام طاردتهم ، ام هــم يخشــون سطوتــك يا سليل الاثرياء .

— ان شئت الحق يازينة القصور فاني اقــول مع الشاعر الغــزال :

وان رجائي فــي الايــاب اليكــم
— وان انا اظهرت العزاء — قصير !

سكتت الاميرة الاديبة مرة اخرى ، وعلاها حياء غير شديد ، ولكنها لم تتردد في اخذ كفه الدافئــة في كفها الباردة ، وادخلته الى حجرة مجاورة للقاعــة الكبرى ، المخصصــة — عادة لاستقبال الضيــوف ...

وغابت فترة قصيرة ، وتركته يتمعن هذه الحجرة الصغيرة الانيقة بفرشها وبسطها ومتكآتها وستائرهــا وبتعدد المقتنيات فيها والصرائف الجميلــة ، ثــم تلك الرفوف العديدة وعليها مآت الكتب ، والتى هي جزء من الخزانة الاموية العامرة .

واقبلت الامير ، ومعها خادماتها يحملن الصواني الفضية ، وعليها ما يكفي من المشروبات والنقــل والفواكه ... وبدات المسامرة ، وكانت مسامــرة لذيذة ممتعة ، طبعت بطابع الرقة واللطف من جانب ، وبالحذق والمهارة من جانب آخر . ولفت نظر الزائر (ابن زيدون في الحين ان الاميرة عصبت راسهــا بعصابة مرصعة ، كتب عليها ، بخط جميل شبيــه بالخط الذى كتب به الديوان :

انا ، والله اصلــح للمعالــي
وامشــي مشيتي واتيــه تيهــا

وامكن عاشقي من صحــن خدي
واعطي قبلتي من يشتهيهــا !

قرا الاديب الحاذق ما كتب في لمح البصــر وسكت ، ولكنه لم يصبر طويلا على السكوت فسالهــا — سؤال يامولاتي ، الديوان الذى كان بالحديقة ، هل كتبت اشعاره بخط يدك ؟

اجفلت واحمر وجهها لحظة ، ثم عاد الى لونــه العادى الطبيعي ، واجابت بجراة :

— نعم ، كل الاشعار التى تعجبنى اكتبها بخط يدى ، هذا وفاء مني لمن احب اشعارهم ونحــن الشعراء اعرف بمعاناة الشعراء من اجل صياغة الفكرة الجميلة والمعنى الدقيق في اشطــار حلوة تاخــذ بالالبــاب .

لم يفلت الفرصة فلمح :

— العهد بالشعراء ان يكونوا اوفياء ، وبالشاعرات ان يكن وفيات كذلك ، ووعد الحر دين — من جهتي اذا وعدت بشيء وفيت به .

وهنا كان الشاعر يعب من كاسه ، وبصــره معلق بخدي الاميرة الزاهرين .

وطاب الحديث وتشعب ، وتنوعت مواضيعه ، ووجد الشاعر الزائر فى شاعرته البارعة ما يفيد من الاخبار ، وما يمتع من الطرائف والنكات والمفاكهات والمطارحات والمحفوظات كما وجدت فيه كل بغيتها : رقة جانب ، وحذاقة وطرافة ، وذاكرة واعية تسعف بكل جديد لذيذ ، وضرب لها على الوتر الحساس ، لما أشاد بحكم البيت الاموى ، وبالفضائل التى له على الفكر والفن والعبقرية والفن ، وزاد فعدد أسماء الكتاب والشعراء والزجالين والحكماء والفلاسفة ... وعاد فذكر باعتزاز الشعراء الامجاد : الغزال يحيى الجياني ، وابن شهيد ، وابن حزم ... استعادا الكثير من أشعار هؤلاء ، وتذوقاها تذوقا تقاربا فيه اكثر مما اختلفا . واستمر منهما ذلك حتى الهزيع الاخير من الليل . عندئذ لفت نظر الشاعر الولهان ان جليسته الاديبة سرقت جفونها سنة من النوم فتركها .

ومال بحذقه المعروف الى المحبرة والقلم وكتب ابياتا عفو الساعة :

ودع الصبر محب ودعك
ذائع من سره ما استودعك

يقرع السن على ان لم يكن
زاد فى تلك الخطى ، اذ شيعك

يا اخا البدر سناء وسنى
حفظ الله زمانا اطلعك

ان يطل بعدكم ليلى فلكم
بت اشكو قصر الليل معك

تزحزح عن مكانه يريد الخروج ، وترك الرقعة على المائدة ، مائدة الأنس والمفاكهة ، والقى نظرة بفيض قوى من الاعجاب واللهفة على النائمة امامه ، وقام ليغادر القصر ، فلكأنه نبتة عريقة يصعب اقتلاعها .

سار فى ممرات الروض الذى كان فى حالة من الازدهار والتفح ، والبلابل تطلق التغاريد الاولى بعد ان افسح لها الشعراء المجال . اما فى الطريق فقد كانت قرطبة لا تزال مستسلمة للرقاد، فالقوم فيها عادة ينامون بعد منتصف الليل ، ويستيقظون قبل منتصف النهار .

الرباط **محمد بن أحمد اشماعو**



من ثمرات الفكر



تأليف :
الدكتور احمد محمود صبحي

تقديم :
الأستاذ المهدي البرجالي

تتعرض هذه الزاوية – فى نطاق عناية المجلة برصد الانتاج الفكري فى المحيط العربى والاسلامي ، وتتبع مضامينه – الى ما تتفتق عنه القرائح من عطاءات فى شتى ضروب المعرفة ومناحيها ، وما تجلوه الابحاث والدراسات المقدمة فى هذا النطاق ، من وجهات فى النظر والتحقيق والتمحيص ، وما تبرزه من خطوط فكر فى التقييم والتنظير ، وما تحمله الصياغات الادبية فى طيها من تأملات ورؤى خلال الحياة ، على اختلاف الصور والاحوال .

وجوهر المتوخى فى هذه العروض ،اظهار القارىء على ما تنضح به دنيا الفكر هنا او هناك ، مما يجد فيه المعني بمواضيع الثقافة والمعرفة بعض ما يفيده : وان كانت الفائدة فى هذا المضمار مختزلة ، تنبىء عن اتجاهات البحث والرأي فى الموضوعات والقضايا ، دون ان تتغلغل فى العمق الموفور – على اى حال – لمن شاء الرجوع الى المصنفات المتطرق اليها فى الحديث .

وواضح من هذا ، ان النهج فى هذه الموضوعات ، سوف لا يكون – بالضرورة– نهجا نقديا ، يتناول الاعمال المعروضة منزاوية نظر تستهدف ابراز الراجح والمرجوح فى العمل ، وبلورة مواطن الضعف والقوة فى محتواه ، ذلك ان القصد فى الاساس هو التقديم والتعريف ، وليس الوزن والتقييم .

على ان هذا الاجتزاء ، لا يمنع – مع ذلك – من مس الموضوعات المتطرق اليها ببعض اللمسات النقدية ، ان اقتضى الحال ، الا ان الامر فى ذلك ، لا يعدو نطاقا محدودا ، يركز فيه خاصة على استجلاء مواطن الاجادة ، واستخلاص أجمع الخلاصات مما هو مفيد وممتع فى الموضع المطروح ، وعلى الله الاتكال .

تعددت الآراء على نطاق واسع في موضوع الاخلاق ، تبعا لدقة مدلول هذا الموضوع ، وتشابك منازع التصور والراي فيه لدقته هذه ، وتعدد المفاهيم حوله .

والامر — كما يعلم — يندرج في اطار البحث عن الانسان ، وبما يدخل في اطار هذا البحث من مناح يتصل بعضها — من زاوية النظر العلمي الحديث — بعلم النفس او بعلم الاجتماع او بغيرهما ، بينما يتصل بعضها الآخر بالعلوم المادية كالوراثة وعلم الاحياء وسوى ذلك .

وتمس الاختلافات من هذا القبيل ، مجال التعريفات الاولية نفسها ، مثلما تمس التفاصيل الاكثر تشعبا ، ومن ذلك ، تارجحت الاقوال في تعريف الاخلاق بين مختلف المدارس الفكرية ، المعنية بالموضوع ، وتباينت بقدر ذلك تصورات المنظرين عن الاصول المستمدة منها الاخلاق اهي العقل ام العاطفة ام الارادة او خلاف هذا ؟

وتنحدر جذور هذه الاختلافات في الموضوع ، عن الفلاسفة القدماء — منذ عهد الاغريق ، الذين خصبت حصيلة اطروحاتهم في امر الاخلاق بجملة من الآراء والتنظيرات تتناقض بينها من جوانب ، فيما تتكامل من جوانب اخرى .

وقد كان سقراط ، من اوائل من نظروا في المسالة وتوسعوا فيها حتى اعتبر منشيء علم الاخلاق

وجاء ارسطو وكانت له في الموضوع جولات تبلور من خلالها رايه فيه على اساس القول بعدم الارتباط بين فلسفة الاخلاق وما وراء الطبيعة .

وهو ما اختلف فيه ارسطو عن سقراط الذي كان يرى — على العكس ، الا داعي لفصل الاخلاق عن ما وراء الطبيعة .

ومثل اختلاف النظرية الارسطوية عن مذهب سقراط ، كان اختلافها ايضا عن الفكرة الافلاطونية في الموضوع .

ويطالعنا كتاب الدكتور محمد محمود صبحي عن « الفلسفة الاخلاقية في الفكر الاسلامي » ليركز خاصة على هذا الفرع من المباحث الاسلامية (فرع الاخلاق) من وجهة نظر المفكرين الاسلاميين ، وليرسم — من خلال ذلك — لوحة معبرة عن شتى الاتجاهات التي تبناها هؤلاء المفكرون في القضية ، ووجه التعارض فيما اخذت به في شانها مدارسهم المختلفة .

لكن هل تقوم فعلا — في نطاق الفلسفة الاسلامية — فلسفة اخلاق ذات ملامح فكرية كاملة ، على غرار ما يعرضه التراث الفكري للامم الاخرى ، العريقة فكرا ؟

يرى المؤلف « ان الفلسفة الاخلاقية من اقل فروع الفلسفة حظا من عناية الدارسين والمؤرخين(1) للثقافة الاسلامية » (13) ويستشهد على ذلك بابن خلدون وابن صاعد الاندلسي مثلا ، اللذين اغفلا الاشارة للاخلاق فيما استعرضاه من اصناف العلوم. بل ان الاتجاه بين المؤرخين والدارسين المحدثين — كما يذكر في هذا السياق « ان ليس في الفكر الاسلامي مذاهب اخلاقية ، معللين ذلك باستغناء المسلمين بتعاليم القرآن والحديث عن النظر في المسائل الاخلاقية .. (14) » الا انه يعود بعد ذلك الى التعقيب على مثل هذه الوجهة في الراي فيذكر انها تحتاج الى مراجعة لاسباب كثيرة .

منها ، ان هؤلاء الدارسين قد دأبوا على انكار ان يكون للمسلمين فضل في علوم اخرى غير الاخلاق ، الامر الذي يفرض التشكك في نزاهة مثل هذه التحليلات التي يأتون بها ، سواء في هذا الموضوع او نحوه .

---

(1) الارقام التي تتخلل الكلام ، تشير الى ارقام صفحات الكتاب .

ومنها ، ان الاحوال السياسية والاجتماعية التي جدت في المجتمع الاسلامي بعد توسيع الفتح ، والاحتكاك بالحضارات الاخرى لم يكن من شأنها الا ان تطرح عليهم من القضايا والمشكلات الاخلاقية ، ما يدعوهم الى تناول الموضوع الاخلاقي من وجهة فلسفية متطورة ، وتنظير المعطيات المطروحة عليهم بصدده .

ومنها، اي من الاسباب التي تدعو الى نبذ الادعاء بقصور المسلمين في البحث الاخلاقي لاستغنائهم بالدين عن مثل هذا البحث ، ما هو ملحوظ من ان الثقافة الاسلامية تشتمل على علوم لا تكاد ترتبط بالدين كالفلك والكيمياء والرياضيات فكيف يحول الدين دون البحث في المشكلات الاخلاقية مع ان الاخلاق بطبيعتها اقرب العلوم الى الدين ؟

وحسبما يوعز اليه المؤلف ، فان الظن في عدم وجود فلسفة اخلاقية عند المسلمين انما يرجع الى مؤثرات المذهب الارسطووي ، الذاهب الى انه يجب في البحث عن الاخلاق « الابتداء بالواقع المشاهدة الواضحة اي استبعاد صدور الاخلاق عن مبادىء او عقائد او على الاصح عن الميتافيزيقا (19) » وهذا عكس ما ذهب اليه المسلمون ، ومن ثم ، حسب المتأثرون بالتفكير الارسطووي ، انهم لم يأتوا بشيء يعتد به في الاخلاق ، طالما انهم نهجوا نهجا ميتافيزيقيا في تصوراتهم حول هذا الموضوع .

ويذهب المؤلف في الفصل الثالث من كتابه ، الى تحليل السند الميتافيزيقي للاخلاق ، ليخلص من ذلك ، الى ما اراد التوصل اليه من القول ، بانه كانت للمسلمين فلسفتهم الاخلاقية ، ولو ان منطلقها يختلف عن المنطلق الارسطووي اختلافا جوهريا .

« ان من غير المتوقع — كما يورد المؤلف — ان تقوم فلسفة اخلاقية في الفكر الاسلامي دون أن تكون مستقاة من اصول دينية ، وليست الاخلاق علما كالفلك او الكيمياء او الطبيعة او الرياضيات ، ولكنها تشترك مع الدين في تعلقها بالانسان وتنظيم حياته وسلوكه ومن ثم ، فانه في الفكر الاسلامي ، لا بد ان يكون الايمان هو الذي يحدد العمل ، والاعتقاد هو الذي ينظم السلوك (24) » . وفي ايجاز لهذا المعنى يذكر المؤلف في خاتمة الفصل قوله : « خلاصة القول ان النظر سابق على العمل ، وان الاعتقاد يتقدم السلوك ولا يتبعه ، وان ما بعد الطبيعة موضوع استدلال عقلي، وان النسق اللازم لدراسة الاخلاق لدى مفكري الاسلام ، ان استوجب استناد القيم الاخلاقية الى اصول ميتافيزيقية ، فما ذلك الا لان السلوك لا بد ان يتسق مع الاعتقاد ، وان الاخلاق لازمة عن الميتافيزيقا لزوما منطقيا ، لا حقة عليها زمنيا » (30) .

وفي دائرة هذا التصور ، التصور الاسلامي لمتطلق فلسفة الاخلاق ، يبني المؤلف هيكل الموضوع الذي تناوله في رسالته والذي ينطبق عليه العنوان الموسومة به الرسالة ، وقد صدر سبيله الى التغلغل في تفاصيل هذا الموضوع ، بالكلام على النهج الذي يعتزم اتباعه ، ويرتكز النهج على عرض المشكلة الاخلاقية عند المسلمين من خلال اتجاهين رئيسيين من اتجاهات الفكر الاسلامي ، هما نزعة العقليين من جهة ، ونزعة الذوقيين .

والنزعتان — وفقا لما يراه الكاتب — تستقطبان في الاصول ، كافة الفرق الاسلامية « فالمعتزلة يلتقون عند الاصول الخمسة ، وان جعلهم كتاب الفرق عشرين فرقة وقد تزيد او تنقص ، كذلك قد تتفاوت اقوال الصوفية بين متفلسفين ومعتدلين ، ولكنهم لا شك يلتقون عند بعض الاصول ، والا لما جمعهم اسم التصوف . . . » (33)

لكن ، في اي اطار يمكن ان تعرض المشكلات الاخلاقية التي دارت حولها اختلافات الفرق الاسلامية؟ هل يمكن النظر الى حصيلة فكر المعتزلة والمتصوفة المسلمين في الموضوع ، على انه يمثل نسقا خاصا في الفكر معزولا عن تيارات الفكر العالمي ، او انه من الملائم ادراجها في نطاق هذا الفكر ، باعتبارها صورة من صوره ؟

يرد المؤلف على هذا التساؤل بصدد عرضه لمنهجه في البحث فيقول معترضا على من ينكرون على موضوعات الفلسفة الاسلامية اية منزلة عالمية :

« ان عرض باحث لدراسة مشكلة الفلسفة الاسلامية ، فان هذه المشكلات تبدو من دراسته كما لو كانت محلية وليست عالمية ، اسلامية وليست انسانية ، ان هذا النهج في الدراسة — فضلا عن انه قد عزل الفكر الاسلامي عن التيار العام للثقافة الانسانية — فانه يحمل في طياته التناقض ، اذ انه بينما طبع المشكلات بطابع محلي بحت ، فانه جد

حريص على ان يرجعها الى اصول ومصادر اجنبيـة يونانية ، او هندية ، او فارسية » (35) .

ويركز في موطن آخر على هذا المعنى فيشير الى انه « قد تكون هناك عوامل متعلقة بالبيئة الاسلامية هي التي اثارت التيارات الفكرية والمذاهب الكلامية بين المسلمين ، ولكن ذلك لا ينفي عن المذاهب جانبها الانساني ، وطابعها العالمـي ، والا لما تسنى لهؤلاء المفكرين ان يؤثروا فيمن بعدهم ، ولما استطاعت هذه الفلسفة ان تحمل مشعل الثقافة الى الغرب لو كانت مشكلاتها وآراؤها مقصورة عليها تدور في فلك خاص بها ... » (36) .

وبادخال المؤلف في الاعتبار فكرة المسلمين في الربط بين الاخلاق والعمـل على انهما متلازمـان متكاملان (31) يخلص في خاتمة الفصـل الى بلورة عناصر منهجه في البحث وتستغرق ثلاث مراحل هي:

1) ميتافيزيقا الاخلاق ، او اصول الاعتقاد

2) مقتضيات الاخلاق من الاعتقاد الى النظر

3) اصول العمل وقواعد السلوك ـ من النظر الى العمـل (37) .

* * *

وننتقل ـ بعد هذا ـ مع الكاتب ، الى تحليلـه لجوانب المشكلة الاخلاقية عند العقليين ، ونموذجهم البارز ، المعتزلة . والمعتزلة ـ في سياق قولـه : « هم المعبرون عن النزعة العقلية في التفكير الاسلامي، ليس ذلك لانهم استدلوا على العقائد السمعية بادلة عقلية فحسب ، ولكنهم لانهم وثقوا بالعقل الى حد ان لو تعارض النص مع العقل ، رجحوا دليل العقـل ، ولجاوا الى تاويل النص ، لقد كان لهم الفضل في ان كانوا الاوائل في الاسلام الذين رفعوا العقل الى منزلة ان يكون مصدرا للمعرفة الدينية (تاكيدات استقاها المؤلف من بعض المصادر) (41) .

وفي هذا يختلف المعتزلة عن الاشاعرة « في جهة وجوب الاحكام بالشرع او بالعقل ، فهي عند المعتزلة انما تجب بالعقل » وهذا ، في نطاق انصباب همهـم الخلقية » (42) . (فيما استقاه المؤلف عن بعـض المصـادر) .

ويأتي في اثر هذا التمهيد عن العقليين الاسلاميين او المعتزلة ، استعراض ، امتد على عـدة فصـول لاحقة ـ لابراز المسائل الفلسفيةالتي خاضوا فيها من زاوية رؤيتهم للامور على ضوء هذا المنزع في التفكير.

ويختص الفصل الاول ، بمبدأ العدل الالهـي ، والعدل فيما ساقه المؤلف عن الشهرستاني الذي نقل عنهم بدوره تعريفهم لهذا المبدأ بانه « مـا يقتضيـه العقل من الحكمة ، وهو اصدار الفعـل على وجـه الصواب والمصلحة ، فالعقل يقضي في نظرهـم ان تكون جميع الافعال الصادرة من الله والمعتقلة بالانسان المكلف ، بمقتضى الحكمة ، وعلى وجه المصلحـة ، وتتضح النزعة الاخلاقية في هذا الفهم للعـدل ، اذا قورن بمفهوم العدل لدى الاشاعرة : ان الله متصرف في ملكه ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد » (46) .

ومشكلة فلسفية اخرى تتصل بالموضوع عالجها المعتزلة ، كما عالجها غيرهم ، وهي مشكلة تحليـل وجود الشر في الحيـاة .

وفي تحليل المؤلـف لفلسفـة المعتزلـة في الموضوع ، يذكر في ذلك :

« .. من الخطأ القول بأن كل ما ينفر الطبع عنه او تكرهه النفس فهو قبيح ، فان الالم وان نفر الطبع منه قد يحسـن ، بل قد يجب كما هو الحال في الحجامة والفصد ، ومن ثم فقد وجب ان يطلب الانسان الالـم اذا لم يكن ضررا محضا .. » (56)

« ... فالخير والشر والنعـم والنقم كلهـا تستوي ، لا من حيث انها قوانين الطبيعة التي تتحكم في مصير البشر ولا تعبأ بوجودهم أو بنظرتهم ، وانما تستوي من حيث صلاحها للانسان ذاته ، كما تستوي الرافة والحزم من الوالد ، ايهما يصلـح لتاديـب ولـده ... » (57)

ولادراك مدلول وجود هذا التكامل بين الشـر والخير في الحياة ، يرى المعتزلة فيما ساقه المؤلف : « ... ان الانسـان ممتحن بالنعم والنقم معا ، وليس عليه الا ان يكون صالحا ، اصابه الخير أو الضر ، فلا تفتنه النعم ولا يجزع عند البلاء ... » (61)

وتتصل فكرة الامتحان هذه ، امتحان الانسـان ، بنظرية اللطف الالهي التي اختص بها الفصل الثالـث

من الكتاب ، وفى سياقه يذكر المؤلف « ان نظرية المعتزلة فى اللطف الالهي مكملة لارائهم فى تفسير الشر الميتافيزيقي والطبيعي ، او المصائب والآلام اللذين يتمان بارادة الله فتنة للانسان ، فيأتي الشر الخلقي المتعلق بارادة الانسان ، ولكن العناية الالهية تأبى الا الهداية له واللطف ... » (62)

ويطالعنا الفصل الرابع ، لنجد فيه صورة اخرى، من صور هذا الالتزام العقلي للمعتزلة فى ادراك المعاني وتفسيرها ، وبصدد ما بسطه الكاتب عن نظريتهم فى افعال الله وانها تهدف الى مصالح العباد « يقول فى ذلك بصدد تحليل هذه النظرية « انه بمقتضى حكمة الله ، لا يمكن ان يكون الخلق عبثا ، وانما كل شيء يدل على احكام النظام والتدبير ، فكل ما فى الكون لا بد ان يكون موصلا الى الغايات المحمودة والمطالب النافعة ، وهي نظرة تخلع على الكون وما فيه من ظواهر ، تفسيرا اخلاقيا من حيث استحالة تصور العبث فى الوجود ، كما انه تفسير متسق مع مبدا العقل ، لان العقل وحده هو الذي يضفي على الموجودات والظواهر تصور التدبير والنظام ... »(48)

ويطفو ، على ذكر هذا سؤال عن الحكمة فى وجود الكائنات الضارة والحيوانات الشريرة .

وللمعتزلة راي فى الامر يسوقه المؤلف ذاكرا فى ذلك ما فحواه :

« ... ان الغرض من ايجاد مثل هذه الحيوانات نفعها هي بالذات ، وذلك بتمتيعها بالحياة ثم نفع العباد دنيويا ، كما يظهر فيما هو حاصل من ان الترياق من العقارب والحيات اصل فى دفع السموميات ، ودينيا ، لان منظر الحيوان الكريهة ، مذكر بعذاب الله ، مما يدعو النفوس للاتعاظ والانزجار ... » (90) (بتصرف)

وفى عرض مستفيض عن نظرية المعتزلة فى الثواب والعقاب حيث « جمعوا الدنيا والاخرة فى نظرة شاملة جامعة ، يحكمها قانون خلقي واحد هو عدل الله ... » (103)

انتهى الى الفصل السابع عن « حتمية اقتران الايمان بالعمل الصالح » وهو مبدا خلقي ، يميز نظرة المسلمين الى الاخلاق فى ابرز ما تتميز به .

وقد كان الخلاف حول المسألة من دواعي الاتجاه الى ظهور مبدا الاعتزال .

ويشدد المعتزلة ، نقيض ما عليه اهل السنة « فى الحكم على من يخالف ايمانه عمله ، حتى انهم يرون « ان من افتقد خصال الخير ، فقد الايمان » (110) .

وتسلمنا فصول هذا الباب عن المشكلة الاخلاقية عند العقليين ، الى الباب الثاني ، فيما يتناوله المؤلف فيه عن فلسفة المعتزلة الاخلاقية .

وتتصدى مباحث الفصل الاول من هذا الباب الى نظرية المعتزلة فى التكليف الشرعي والعقلي وما يترتب عليه .

ومما يضعه التكليف على المكلف من تبعات «طرد الاعتقادات والظنون السابقة على التفكير »(119) ونبذ التقليد الاعمى فى التفكير وحاصله .

« وبعد تخلية العقول من الاعتقادات الفاسدة المبينة على الظن ، فان اول ما يجب على العاقل المكلف ، النظر المؤدى الى معرفة الله » (122) . « معرفة توحيده ، معرفة عدله ، معرفة لطفه ، معرفة حكمته » (123) .

« ... هكذا يصل المعتزلة بين معرفة الله وبين واجب الانسان ككائن اخلاقي ، فلا قيام للاخلاق دون معرفة الله ، ومن ثم يتعذر الفصل بين الاخلاق وبين اساسها الميتافيزيقي » (123) .

وفى مزيد من تحليل نظريات المعتزلة ، يتجه البحث بالكاتب – عقب هذا – الى قضية الخير والشر ، او الحسن والقبح فى الافعال والاشياء : هل الفرق بينهما حقيقة موضوعية ، مستقلة عن كل ارادة ؟ هل هما من الصفات العتيقة الموجودة فى حقيقة الافعال ذاتها ، او ان الامر غير ذلك ؟

يجب المؤلف فى عرضه للاراء المدلى بها فى الموضوع الى « ان الذي يدل على ان الحسن صفة ذاتية للفعل الحسن ، وكذلك القبح للفعل القبيح ، ان هنالك من الافعال ، ما لا صفة لها زائدة على مجرد الوجود كالطعام والشراب وفعل الساهي والنائم ، اما الافعال الاخرى ، فهي محل حكم اخلاقي كالمدح والذم والاباحة والحظر والتحليل والتحريم » (129).

« ... والعقل كاشف عن وجه الحسن والقبح في كل فعل بعينه . ومن ثم ، ينبغي النظر والتامل في الصفة التي يتقرر بها الحكم على الفعل حسنا وقبحا ... فالمستدل في حاجة الى الاستدلال ليعرف ما من اجله يحسن الحسن ويقبح القبح ، وفي حصولهما في بعض المواضيع والافعال ، ولكنه متى علم ذلك بالعقل، علم عنده الحسن او القبح ضرورة » (131) .

« ... ومهما يكن من اختلاف المعتزلة حول دور الارادة في تقييم الفعل ، فانهم لم يتخذوا موقف المذهب الغائي في الاخلاق الذي يحكم على الافعال وفقا لنتائجها فحسب ، فهم قد اعترفوا بان للارادة مدخلا في حسن الفعل وقبحه ، ولكن بقدر ، حتى لا يبتعد الحكم عن الموضوعية . وهم لم ينكروا مطلقا اثر الارادة في الشرعيات من حيث ان الاعمال بالنيات ومن حيث ان معظم الفروض الدينية ، يشترط النية في ادائها ... » (145)

« ... لكن هل يطلب المعتزلة من الانسان في كل افعاله ان يفعل الحسن لذاته ، وان يتجنب القبيح لذاته ؟ اما القبائح فيجب عندهم ان تتجنب لذاتها ، ولكنه غير واجب على الانسان ان يفعل كل حسن لذاته ... » (153)

ويسلمنا فعل الحسن والقبيح ، من جديد ، الى مجال ارادة وعلاقتها بالفعل ، وحرية الانسان فيه .

ويذهب المعتزلة في هذا ، على ما ساقه المؤلف الى « مطلق المشيئة الالهية في اصل التوحيد ، والى تقرير حرية الانسان في اصل العدل لضرورة يقتضيها التكليف، وتحتمها الواجبات الاخلاقية والشرعية (161)

وليست مسؤولية الانسان على الفعل فحسب، وانما تمتد الى تلك اللحظة من الارادة التي تكون عندها عزما على الفعل ، وقصدا اليه (174) .

ويفضي المؤلف بعد تحليله لنظريات المعتزلة حول الافعال المتولدة عن الانسان هل هو مسؤول عنها ؛ ولمفاهيمهم الاخلاقية فيما يتعلق بمعاش الانسان ومماته ، الى الباب الثاني الذي تناول فيه موضوع الامر بالمعروف والنهي عن المنكر باعتباره الاصل العملي الوحيد في فلسفة المعتزلة الخلقية (191) .

* * *

وينصب القسم الثاني من الكتاب على تحليل معطيات النزعة الاخرى الاساسية في الفكر الفلسفي الاسلامي ، نزعة الذوقيين او ارباب التصوف .

والقاسم المشترك في عموم الموضوع — كما يعلم — هو الاخلاق ، ويربط نزعتي العقليين والذوقيين ، في هذا الصدد خيط من التكامل ، يجعل احدهما متمما للآخر ، وسادا لما به من ثغرات ، وفي هذا يذكر المؤلف :

« لقد شيد المعتزلة للاخلاق ميتافيزيقا رائعة، ليستند الموقف الاخلاقي الى اساس صلب من الاعتقاد ، ولكن بدت اقوالهم هزيلة في نطاق العمل ، مقصورة على الاصل الخامس (الامر بالمعروف) .

والصوفية من جانبهم قد طرحوا جانبا الخوض في المشكلات الفلسفية ، ولم يقدموا في نطاق النظر شيئا ملموسا ... ذلك انهم شغلوا بالعمل عن النظر في الاصول ، فهل يستطيع الصوفية ان يعوضوا قصور المعتزلة في نطاق العمل ؟ وهل في استطاعتهم ان يكشفوا عن قيمة العمل في فلسفة الاخلاق بالقدر الذي افصح فيه المعتزلة عن قيمة الاعتقاد ؟ (245).

وفي رحلة طويلة مع رجال التصوف ، يذهب الكاتب الى استجلاء هذه السمات ، سمات العمل في فلسفة الاخلاق الصوفية ، ويتناول الفصلان التاليان في نطاق هذا النظر ، موضوع ضرورة صحبة الشيخ المريد وهي « من قبل الشيخ تعهد وارشاد ومراقبة دقيقة ومحاسبة للمريد وتصحيح اوضاع ونقد وتعليم وتبصير باسرار الحياة الروحية ... » (فيما نقله المؤلف عن بعض المصادر) (249) ثم الذكر ، وله جانب خلقي او سلبي ، ويتمثل في كونه وسيلة لمجاهدة النفس ، وجانب روحي او ايجابي ، ويتجلى في انحصارهم المريد في الله » (253) .

وفي مرحلة موالية ، يتصدى المؤلف لمشكلة العمل من خلال الفكر الصوفي ، معرجا في هذا المجال، على شان التوبة « ومراقبة خطوات القلوب باعتبارها بواعث الاعمال ، ومتخلصا بعد هذا الى البحث في « النية واثرها في حسن الافعال وقبحها » ، ثم الى الصلة بين الاخلاق وحتمية تطهير الباطن ، يتلو ذلك القول عن المنطويات الاخلاقية للفروض الدينية وتخلل الاخلاق للمقامات والاحوال (من 257 الى 293)

* * *

وفي ذيل هذا العرض حول العقليين والذوقيين في الفكر الاسلامي ، تاتي نظرة يختتم بها الكتاب عن هؤلاء الذين حاولوا التوفيق بين الاتجاهين الذوقي والعقلي ، ويدعوهم المصنف بالملفقة ، وقد افاض في القول حول اخوان الصفاء ، على اعتبار ان فكرهم يمثل هذه التوفيقية ، المتراوحة مشار بها بين الفلسفة والتصوف .

وبعد لمحة سريعة عن فكر فيلسوف الاخلاق ابن مسكويه لاتصاله بالموضوع ، يلقي المؤلف عصا التيسار ، وقد افضى لمنتهى الرسالة ، مشيرا في غضونه ، الى ان الاتجاه الى فصل الدين عن الاخلاق « اتجاه ينطوي – مع شيوعه – على تصور خاطىء للدين والاخلاق معا ، ولا حاجة الى ان يعاد القول بضرورة استناد الاخلاق الى معتقدات ، وذلك لحاجة الانسان كي يقف على ارض صلبة من الاعتقاد المتعلق بماضيه (اصل نشأته) وحاضره (الغاية من وجوده) ومستقبله (مصيره بعد الموت) حتى يجابه الفتن والازمات التي قد تعصف بضعاف العقول ، نتيجة خواء الاعتقاد » (317) .

* * *

انها دراسة علمية جادة ، هذه التي ضمنها المؤلف رسالته ، وعلى الرغم من تشعب الموضوع ووعورته ، فان المؤلف قد استفرغ الوسع – كما هو ظاهر – في تجلية جوانبه على ضوء المصادر العربية والاجنبية التي رجع اليها في انجاز العمل ، وان كانت الاستنتاجات التي توصل اليها خلاله قابلة لزيادة المناقشة والتمحيص ، شأن كل محاولة فكرية ، خاصة اذا كانت من قبيل هذه الموضوعات التي تباينت فيها الافهام ، وطال الجدل بشأنها ، على امتداد الاجيال والدهور .

الرباط : م. البرجالي



على هامش مؤتمر وزراء الدول العربية

المكلفين بتطبيق العلوم والتقنية قصد التنمية...

سبق ان اعلنا عن المؤتمر الذي تنظمه كل من اليونسكو ووزارة التعليم العالي من 16 الى 25 غشت 1976 بالرباط ، والذي سيضم وزراء الدول العربية المكلفين بتطبيق العلوم والتقنية قصد التنمية . كما سبق ان بينا اهمية هذا المؤتمر الذي ينعقد لاول مرة فى تاريخ العالم العربي ، بعد ان انعقد مؤتمر مماثل خاص بالدول الافريقية بعاصمة السينغال فى يناير 1974 . وان شرف المملكة المغربية لعظيم باحتضان مؤتمر كهذا ، الشيء الذي يبرز مرة أخرى ما يتمتع به بلدنا فى حظيرة الوطن العربي من سمعة طيبة ، كما يبرز مرة اخرى الدور الفعال الذي تقوم به المملكة المغربية فى ميدان العلم والبحث ، مساهمة منها في نمو العالم العربي . وتطور اقتصاده والاستفادة من تطور العلوم والتقنية . وفقا للتعليمات السامية لقائد الامة صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله .

واليوم نريد ان نعطي للراي العام الوطني بعض الايضاحات عن اهم النقط التي ستدرس فى هذا المؤتمر الهام .

1) السياسات العلمية والتقنية فى الدول العربية : الوضع الحالي وآفاق المستقبل :

سيتيح المؤتمر للدول المشاركة الفرصة لبحث وتقييم الوضع الحالي وآفاق المستقبل بالنسبة لسياستها الوطنية فى مجال العلم والتقنية ، كما سيمكنها بصفة خاصة من تعزيز الجوانب التعاونية لهذه السياسات على الصعيدين الدولي والاقليمي .

وهكذا سيدارس وزراء الدول العربية بعض المشكلات الحالية التي تتعلق بتكوين طاقة تجديدية قائمة بذاتها فى مجال العلم والتقنية بالدول العربية ، يكون شاملا من ناحية المؤسسات لجهاز ملائم لوضع السياسات واتخاذ القرارات ، ومعاهد مناسبة للبحوث والتقنية التجريبية وشبكة كافية من المرافق العلمية والتقنية ومؤسسات للتعليم والتدريب فى مجال العلم والتقنية .

وستعد اليونسكو تمهيدا للمؤتمر عدة وثائق منها :

— وثيقة مشفوعة بالاحصاءات عن القوى العاملة والتقنية والانفاق على البحوث والتنمية بالدول العربية .

— وثيقة من انشطة اليونسكو فى مجال العلم والتقنية فى الدول العربية

— وثيقة تعرض نشاطات منظمة جامعة الدول العربية للتربية والعلوم والثقافة فى مجال العلم والتقنية مع التركيز خاصة على القرارات والتوصيات التي اعتمدها مؤتمر الوزراء العرب المسؤولين عن البحث العلمي ورؤساء مجالس البحوث الوطنية فى الدول العربية .

— وثيقة تصف نشاطات اللجنة الاقتصادية لآسيا الغربية فى مجال العلم والتقنية .

أ) وضع السياسات الوطنية فى مجال العلم والتقنية وتنفيذها :

مما جاء فى المذكرة الواردة عن اليونسكو الخاصة بجدول الاعمال المؤقت المفصل انه بالرغم من ان كثيرا من البلاد العربية اخذت خلال العقد الماضي تنشيء اجهزة وتضع اجراءات لرسم السياسات الوطنية العلمية والتقنية وتنفيذها . فلا تزال هناك بعض الاقطار بالمنطقة لم تتم فيها هذه المهمة بعد ، ونادرا ما بدات البلاد العربية فى ادماج سياستها الوطنية العلمية والتقنية على أسس مشتركة متفق عليها مع هيئة تخطيط التنمية الوطنية الاجتماعية والاقتصادية ، وفى هذا الصدد يمكن ان يدرس المؤتمر اسئلة متعددة مثل ، ما هي الاجهزة والاجراءات الحكومية الاكثر فعالية لوضع السياسات واتخاذ القرارات والتنسيق بين الوزارات وتدابير التعزيز فى مجال العلم والتقنية ؟ وكيف يكون التخطيط للعلم والتقنية على المستوى الوطني ؟ وما هي الطريقة التي ينبغي بها ترجمة هذه الخطط الى ميزانيات برامج ؟ وماذا ينبغي عمله لتحسين وضع الباحثين العلميين ؟ وكيف يمكن تحديد التقنيات التي يمكن ان تكون مناسبة ، وما هي شروط نقلها وتطويعها بصورة موفقة ؟ وما هي اهم عقبات التنمية التي تواجه الدول العربية حاليا والتي يمكن التغلب عليها بالعلم والتقنية ؟ وكيف يكفل التنسيق على المستوى الوطني بين السياسات التربوية والسياسات العلمية والتقنية ؟

ب) تعزيز الطاقات الوطنية العلمية والتقنية :

لعل من الاغراض الاساسية لمؤتمر وزراء الدول العربية المكلفين بتطبيق العلوم والتقنية فى سبيل التنمية أن يهيىء لكل من الدول المشتركة اجراء حصر لمواردها الوطنية المنظمة لخدمة التنمية العلمية والتقنية (القوى العاملة والموارد المالية ، المرافق والمعدات والمعلومات) ومقارنتها بما لدى غيرها من الدول العربية وغير العربية واظهار اوجه التباين على المستوى الاقليمي ، واقتراح التدابير لتحسين وتعزيز الطاقات الوطنية العلمية والتقنية بما يتناسب واحتياجات التنمية فى كل بلد .

ونظرا للحاجة المعترف بها الى زيادة جهود البلاد العربية ، زيادة كبيرة فى مجال البحوث والتنمية قد يرغب المؤتمر فى :

اولا : دراسة دور البحوث والتنمية والمرافق العلمية والتقنية المتصلة بها فى التنمية الوطنية .

ثانيا : اقتراح التدابير اللازمة لتعزيز الطاقات الوطنية العلمية والتقنية باعتبار ذلك شرطا اساسيا للمشروعات التعاونية على المستوى شبه الاقليمي او الاقليمي او الدولي .

وقد يرى المؤتمر ، عند بحث مجموعة المرافق العلمية والتقنية المساندة او من المناسب (اولا) ان تبرز اهمية مرافق الاعلام والتوثيق فى مجال العلم والتقنية باعتبارها عاملا رئيسيا لتطوير نشاطات البحوث والتنمية ونقل التقنيات وتطويعها من البلاد الاكثر تقدما الى البلاد الاقل تطورا ، و (ثانيا) ان تناقش امكانيات انشاء مراكز اقليمية للاعلام العلمي والتقني فى الدول العربية ، ويعتزم تقديم بعض الاقتراحات المحددة فيما يتعلق بهذا الموضوع فى وثيقة مرجعية خاصة . وقد يرغب المؤتمر أيضا فى توجيه عناية خاصة للتبادل الدولي للمعلومات عن تطبيق العلم والتقنية على التنمية ، وهو ما تجري دراسته حاليا فى اليونسكو وفقا للقرار 123 ، 2 الذي اصدره المؤتمر العام فى دورته الثامنة عشرة فى 1974 بشأن شبكة تبادل المعلومات عن السياسات العلمية والتقنية . وثمة موضوع هام آخر قد يرغب المؤتمر فى مناقشته وهو الحاجة الى تحسينات هامة فى بعض المجالات كنظم المقاييس والموازين والتوحيد القياسي ، حيث انها لازمة للبحوث والتنمية ولانتاج السلع والخدمات على حد سواء .

ج) الموارد البشرية لتطبيق العلم والتقنية على التنمية :

لما كان المؤتمر يدرك الدور الحيوي الذي يؤديه العلماء والمهندسون الاكفاء فى تقدم المعارف وتطبيقها ، فانه قد يرغب فى دراسة اسئلة مثل : ما هي مشكلات تعليم العلوم والتقنية على مستوى

الجامعة فى الدول العربية ؛ وما هي امكانات تحقيق الانسجام بين النظم الجامعية في الدول العربية فى مجال العلوم الطبيعية والهندسية ؟ وما هو « المزيج » الملائم من العلماء والمهندسين الاكفاء ومن الاطر الوسطى من الموظفين العلميين والفنيين والتقنيين ؟ وما هي الطريقة التى ينبغي بها تحسين بنى الجامعات ومناهجها في الدول العربية لمواجهة الاحتياجات الوطنية والاقليمية من العلميين والمهندسين ذوي التخصصات المناسبة ؟ وما هي امكانات ومتطلبات ادخال اللغة العربية بصورة تدريجية فى تعليم العلوم والتقنية على مستوى الجامعة ؟

2) مشروعات التعاون الاقليمي فى البحوث العلمية والتقنيـــــة :

وفضلا عن المناقشة التي تجري فى نطاق البند 7 من جدول الاعمال المؤقت حول المشكلات البارزة التي تتسم بأهمية خاصة للمنطقة فى مجال السياسات العلمية والتقنية قد يرغب المؤتمر فى بحث برنامج عمل فى شكل مقترحات عملية ومحددة لمشروعات بحوث تعاونية ، وينبغي أن تتعلق مثل هذه المشروعات بالمجالات ذات الاولوية ، مثل الموارد الطبيعية والطاقة والموارد الغذائية ، ونوعية البيئة ، وهي مجالات حددها اجتماع الخبراء التحضيري لمؤتمر وزراء الدول العربية المكلفين بتطبيق العلوم والتقنية (الكويت ، مارس 1975) واي قرار يتخذه مؤتمر الدول العربية المكلفين بتطبيق العلوم والتقنية بشأن تدابير محددة تتعلق بمشروعات البحوث التعاونية يعكس ايضا رغبة البلاد العربية فى التقدم بخطى اسرع على طريق التنمية العلمية والتقنية التى رسم خطوطها العريضة مؤتمر منظمة جامعة الدول العربية للتربية والعلوم والثقافة الاول للوزراء العرب المسؤولين عن البحث العلمي ورؤساء مجالس البحوث الوطنية فى الدول العربية (بغداد ، 1974)

تضاف الى هذه النقط الرئيسية خمسة بنود فرعية للبحوث والدراسات التعاونية وهي :

(1) دراسة الموارد المائية وتدبير شؤون المياه
(2) ايكولوجيا الاراضي القاحلة وشبه القاحلة
(3) الدراسات الجيولوجية والجيوفيزيقية
(4) تنمية البيئة البحرية والمناطق الساحلية
(5) المصادر غير التقليدية للطاقة

وجميعها تتصل اتصالا وثيقا بقضايا التنمية الاوسع نطاق كما حددها اجتماع الخبراء التحضيري لمؤتمر وزراء الدول العربية المكلفين بتطبيق العلوم والتقنية فى سبيل التنمية المشار اليه اعلاه . وستركز مناقشة مجالات البحث والدراسة الخمسية هذه على مجموعة من الوثائق المرجعية تتعلق بمشروعات تعاونية محددة يمكن أن تؤدي الى قرارات محددة يتخذها مؤتمر وزراء الدول العربية المكلفين بتطبيق العلوم والتقنية فى سبيل التنمية .

ويعكس اختيار البنود الفرعية الخمسة اهمية مشكلات الموارد الطبيعية والبيئة بالنسبة لغالبية الدول العربية ، ولذلك ينبغي ان تتناول اهداف دراستها دراسة علمية فى المقام الاول العناصر الرئيسية للطبيعة ـ التربية السفلية ، الاراضي ، والمياه القارية ، والمحيطات وجوانبها الايكولوجية ، ومن تم ينبغي التركيز على بعض فروع العلم كالجيولوجيا والجيوفيزيقيا وعلم التربية وعلوم المياه وعلم المحيطات حتى يتسنى فهم منشأ الموارد الراهنة ومدى توافرها بصورة افضل .

وقد يرى المؤتمر ايضا لدى مناقشة هذه الموضوعات دراسة المشكلات المعروفة اليوم ب « مشكلات البيئة » والتي يرجع معظمها الى التدبير القطاعي غير الرشيد للموارد الطبيعية والى الآثار غير المرغوبة وغير المقدرة للتكنولوجيا على تنمية هذه الموارد ، ومن ثم فان مشكلات المحافظة على نوعية البيئة المادية والبيولوجية او اعادتها الى ما كانت عليه لا يمكن فصلها عن مشكلات الاستغلال الرشيد للطبيعـــة .

ا) دراسة الموارد المائية وتدبير شؤون المياه :

تتميز معظم البلاد العربية بمناخات جافة او شبه جافة ، ولا يمكن والحالة هذه تحسين ظروف معيشة الانسان الا عن طريق زيادة استهلاك المياه ولكن زيادة استغلال الموارد المائية يستتبع استنزافها المطرد واضمحلالها مما يعوق التنمية الاقتصادية والاجتماعيـــة .

وتمثل الحل الناجع الوحيد للمشكلات الحالية المتعلقة بالموارد المائية فى المنطقة العربية فى انتهاج سياسة رشيدة لتدبير شؤون المياه . ولا يمكن

تصور مثل هذه السياسة دون دراسة شاملة للموارد المائية المتاحة دون معرفة دقيقة بالعمليات التي تحكم توافر المياه وتحركها وتحولها فوق سطح الارض وتحته .

وقد يرغب المؤتمر عند دراسة هذه المشكلات وغيرها من المشكلات العامة المتعلقة بالموارد المائية وتدبير شؤون المياه ، وكذلك الاقتراحات المحددة بشأن البحوث التعاونية والتي يعتزم تقديمها فى وثيقة مرجعية منفصلة ، ان يأخذ فى اعتباره البرامج او الانشطة الدولية الكبرى الجارية مثل برنامج اليونسكو الهيدرولوجي الدولي والعقد الهيدرولوجي الدولي ، والمؤتمر القادم بشأن المياه (بيونس ايرس ، 1977) والمؤتمر الاقليمي للمياه الذي ترعاه اللجنة الاقتصادية لآسيا الغربية (يونيو 1976) .

ب) ايكولوجيا الاراضي القاحلة وشبه القاحلة :

هذا الموضوع الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بدارسة الموارد المائية وتدبير شؤون المياه ، يستحق الاهتمام كموضوع له الاولوية ، نظرا لان المنطقة العربية تواجه مشكلات ايكولوجية بالغة الخطورة ، وقد كانت بحوث المناطق القاحلة تمثل خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية اهتماما من اهتمامات اليونسكو الرئيسية ، يشارك فيها منظمات اخرى مثل الفا ومعارج وبامبيئة وغيرها .

واهم القضايا التي يرغب المؤتمر فى مناقشتها هي : كيف يمكن التخفيف من العسر البالغ الذي يعانيه سكان المناطق القاحلة وشبه القاحلة ؟ وكيف يمكن وقف التطور المرعب الذي تتحول بـه الارض المنتجة الى ارض مجدبة نتيجة زحف الفحولة ؟ وكيف يحسن تدبير استخدام مختلف التكنولوجيا الزراعية بما فى ذلك الري والميكنة والمخصبات الكيمائية الخ ؟

وستشير وثيقة العمل الرئيسية فضلا عن اقتراحات محددة بشأن مشروعات تعرض على المؤتمر لبحثها ، الى برنامج اليونسكو عن « الانسان والمحيط الحيوي » (الماب) الذي يهيىء اطارا مناسبا للتعاون الاقليمي ويمكن ولا شك ان يسهم فى التغلب على بعض المشكلات الايكولوجية عن طريق البحث والتدريب وتحديد الاساليب السديدة لاستغلال الاراضي وتدبيرها وتدارك العجز فى خبرات تدبير المراعي .

ج) الدراسات الجيولوجية والجيوفيزيقية :

قد يرغب المؤتمر فى أن يناقش فى اطار هذا البند سبل وسائل مشاركة البلاد العربية بصورة اكثر ايجابية فى البرنامج المشترك اليونسكو / ادعج (الاتحاد الدولي للعلوم الجيولوجية) المسمى « البرنامج الدولي للمطابقة الجيولوجية » (مطاجيو) المشار اليه فى وثيقة العمل الرئيسية . وثمة موضوع هام آخر هو اعداد خريطة جيولوجية للعالم العربي واقامة سكرتارية مركزية لهذا الفرض ، اذ اوصى المؤتمر باعداد مثل هذه الخريطة . وقد يرغب المؤتمر ايضا فى بحث امكانية تنفيذ مشروعات بحوث تعاونية تتعلق بتقضي الموارد الطبيعية التي يمكن استغلالها اقتصاديا بالدول العربية وبنشاط لبزلازل فى المنطقة .

د) تنمية البيئة البحرية والمناطق الساحلية :

قد يرغب المؤتمر مواضعا فى اعتباره امتداد الخط الساحلي لمنطقة الدول العربية امتدادا هائلا والحاجة الى زيادة جهود البحث فى مجال البيئة البحرية زيادة كبيرة حتى يمكن تنمية المنطقة الساحلية بطريقة منظمة رشيدة ، فى ان يدرس على ضوء الفصل المعني من وثيقة العمل الرئيسية مسائل مثل : كيف يمكن تنمية الموارد الساحلية وتنويعها ؟ كيف يمكن ان تنمي المؤسسات التي تشكل البنى الاساسية اللازمة فى الدول العربية وكيف يكفل التوزيع الامثل لمؤسسات البحوث البحرية فى المنطقة ؟ وكيف تقام شبكات شبه اقليمية لمراكز ومختبرات بحوث علوم البحار للاضطلاع بتنفيذ برامج منسقة ؟ وما هي المرافق التي يمكن انشاؤها بالاشتراك بين عدد من أقطار المنطقة وعلى اساس المشاركة فى الانتفاع بها ، كسفن البحوث الكبيرة والمراكز شبه الاقليمية للمعلومات الاوقيانوغرافية ، والمراكز شبه الاقليمية لاقتناء المجموعات البيولوجية المرجعية وفرزها . الخ ؟

وقد يلاحظ المؤتمر فى مناقشة هذا الموضوع الصلة بينه وبين المشروعات الكبرى التي تتولى

تنسيقها اللجنة الدولية لعلوم المحيطات وتلك التي تجري في اقطار برنامج اليونسكو عن الانسان والمحيط الحيوي . وقد يرغب ايضا في بحث المقترحات المجددة لمشروعات البحوث التعاونية في هذا المجال والتي ستقدم في وثيقة مرجعية .

هـ) المصادر غير التقليدية للطاقة :

يمثل البحث في المصادر المختلفة للطاقة قضية متزايدة الاهمية وليس ذلك بالنسبة للدول العربية وحدها ؛ وفضلا عن المناقشة العامة بشان هذا الموضوع ، قد يرغب المؤتمر في ايلاء عناية خاصة لبحوث المصادر غير التقليدية للطاقة ودراستها ، وخاصة الطاقة النووية والطاقة الشمسية . ويمكن في الواقع ان يبحث المؤتمر هذين المصدرين للطاقة بالنظر الى امكاناتها في تنمية منطقة الدول العربية في المستقبل . وعلاوة على مناقشة هذه القضية في وثيقة العمل الرئيسية ، يعتزم تزويد المؤتمر بوثيقة مرجعية تشمل اقتراحات محددة بشأن بحوث تعاونية قد يرغب المؤتمر في اتخاذ اجراء بشأنها .

التدابير الواجب اتخاذها لمتابعة قرارات وزراء الدول العربية المكلفين بتطبيق العلوم والتقنية في سبيل التنمية :

ينبغي النظر الى مؤتمر وزراء الدول العربية المكلفين بتطبيق العلوم والتقنية لا على انه دورة جهد مشترك ، ولكن باحرى على انه نقطة بداية لتطبيق أوسع نطاقا واكثر فعالية للعلم والتكنولوجية من أجل تنمية اقطار المنطقة . فاذا كان يراد لهذا الهدف ان يتحقق فانه يتعين على السلطات الوطنية المختصة وكذلك على المنظمات الدولية داخل منظمة الامم المتحدة وخارجها بذل جهود كافية لضمان متابعة فعالة بقرارات مؤتمر وزراء الدول العربية المكلفين بتطبيق العلوم والتقنية في سبيل التنمية .

ويستطيع المؤتمر نفسه ان يسهم في ذلك بوضع توصيات ملائمة باتخاذ قرارات يعهد بمسؤولية تنفيذها الى السلطات الوطنية والمنظمات الدولية على السواء ، وقد يرغب المؤتمر في هذا الصدد ان يبحث نتائج دراسة بشأن انشاء مؤتمر دائم برعاية اليونسكو ، على مستوى الخبراء الحكوميين ، يضم بصورة دورية رؤساء هيئات وضع السياسات العلمية والتقنية بالدول العربية . وقد يرى المؤتمر كذلك ان يناقش اي تدابير او مبادرات ملائمة يمكن ان تتخذها المنظمات الدولية والهيئات مانحة المعونة لكي تدرج في برامجها وميزانيتها ما يلزم من اعتمادات لانشطة متابعة مؤتمر وزراء الدول العربية المكلفين بتطبيق العلوم والتقنية على التنمية .



في شأن انعقاد المؤتمر الإفريقي الأول

لأساتذة الرياضيات الجامعيين بكلية العلوم بالرباط

ستنظم كلية العلوم التابعة لجامعة محمد الخامس بالرباط من 26 الى 31 يوليوز 1976 اول مؤتمر افريقي لاساتذة الرياضيات الجامعيين .

والجدير بالذكر ان السيد عبد اللطيف بنعبد الجليل وزير التعليم العالي ، سبق له ان تراس يوم 23 ابريل 1975 بكلية العلوم الجلسة الافتتاحية للاجتماع التمهيدي للمؤتمر الافريقي الخاص باساتذة الرياضيات الجامعيين . وبهذه المناسبة ، القى السيد الوزير كلمة جاء فيها على الخصوص : « والحقيقة انه لا احد ينفي ان الرياضيات تعتبر ميدانا تجلت فيه قدرة الانسان بكل فعالية . ولا ينكر احد كذلك ان الرياضيات بالاضافة الى الدور الرئيسي الذي تلعبه فى النمو الفكري والتقني تدخل فى جميع المواد العلمية . ان الرياضيات بازدهارها وقدرتها الخارقة فى التطبيقات وبالاخص فى علوم الهندسة والفيزياء والاعلام الآلي ، وغيرها من العلوم لتعطي الادلة القاطعة على دورها الفعال » .

وفى حديثه عن الدور الذي يلعبه قطرنا فى التنمية الثقافية على الصعيد الدولي ، زاد السيد بنعبد الجليل قائلا : « فمن واجب قارتنا الافريقية ان تدرك المكانة التي ينبغي ان تحتلها فى ميدان الاشعاع العلمي الدولي ، وتقوم بالدور المنوط بها . ان جلالة الملك الحسن الثاني اثناء جميع لقاءاته مع رؤساء دولنا ، ينادي دائما قارتنا ان تلعب هذا الدور ، على اكمل وجه تحقيقا لمصلحة بلداننا » .

فهذا اللقاء العلمي المهم ، الذي ينظمه الاتحاد الدولي لاساتذة الرياضيات الجامعيين ، تحت رعاية اليونسكو ، سينعقد تحت شعار : « الرياضيات والتنمية الافريقية » والحقيقة انه يجب على الدول التي فى طريق النمو ، ان تعمل على ازدهار نموها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، وان اساس هذا النمو يقوم على تقدم التقنيات التي ترتكز بدورها على تطبيقات مختلف الشعب العلمية .

وفى عصرنا الحاضر ، فان الرياضيات تدخل فى جميع الفروع العلمية ، اما كوسيلة للتفكير ، او كاداة او من الوجهين السالفين معا . وقد صح التعبير القائل : « الرياضيات سيدة العلوم وخادمتها » . فاذا اردنا التعجيل بتنمية دولنا ، علينا قبل كل شيء ان نطور الرياضيات وتطبيقاتها . وبما انه لا يمكن ان يتحقق هذا النمو بسرعة الا على صعيد القارات ، وجب على المؤتمر الافريقي الاول الخاص باساتذة الرياضيات الجامعيين ان يضع أسس تعاون علمي فعال بين اساتذة الرياضيات الافارقة وغير الافارقة.

فزيادة على المحاضرات التي ستنظم بهذه المناسبة والتي ستعطي الاولية فيها الى مواد الرياضيات القريبة جدا من التطبيقات على العلوم الاخرى والتقنولوجيا ، فان هذا المؤتمر الاول سيدرس المواضيع الآتية :

1) **تعليم الرياضيات بافريقيــا :**

ا ـ التعليم قبل الجامعة : أنظمته ، برامجه ، وشواهــده .

ب ـ التعليم العالي : شـروط التسجيــل ، تنظيم الدروس والامتحانات ، الرياضيات للمهندسين ، الرياضيات للمسجلين فى الشعـب الاخـرى :

— الاقتصاد ، الطب ، العلوم الاجتماعية والانسانيــة .

جـ ـ الاعتراف من طرف الجامعات الافريقيــة فيما بينها بالدارسات والشواهد المتعلقة بالرياضيــات .

2) **احداث مركز افريقي للرياضيــات النظريــة والتطبيقيــة يضــم :**

— مركــز لتكويــن الاطــر

— مركــزا للقاءات العلمية

— مركزا للابحاث الرياضية المتقدمة

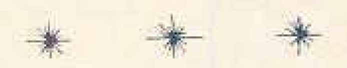
3) **احداث اتحاد اساتذة الرياضيات الافارقة :**

4) **مشاكل التعاون العلمي بين افريقيــا والقارات الاخرى وبالاخص فى ميدان الرياضيات :**

ومن الملاحظ أن عددا من أساتذة الرياضيــات الجامعيين المشهورين عبروا عن رغبتهــم فى المشاركة فى هذا المؤتمر الهام .

ومن جهة اخرى ، فان اليونسكو وكذا المجمع الروسي للعلوم ستمثلها وفود مهمة ، وسيمثل اتحاد الجامعات الافريقية كاتبها العام .

فانعقاد هذا المؤتمر الافريقــي الاول الخــاص باساتذة الرياضيات الجامعيين ، فى غضون شهــر يوليوز المقبل بكلية العلوم ، بعد الاجتماع الذي عقده فى السنة الفارطة ، اتحاد الجامعــات العربيــة ، سيعقبه خلال شهر ماي 1976 ، مؤتمــر جمعيــة الجامعات الاسلامية ، وفى غشــت 1976 ، مؤتمــر وزراء الدول العربية المشاركة فى منظمة اليونسكو ، والمكلفين بتطبيق العلوم والتقنولوجيا على التنميــة (كاستعرب) ، الشيء الذي يبرهــن على نشــاط الجامعة المغربية ومساهمتها الفعالــة فى التنميــة الوطنية ، فى مختلف الميادين طبقــا للتوجيهــات الرشيدة لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله الذي يولي لشؤون التربية كل رعايتــه .



المؤتمر الثاني لجمعية

الجامعات الاسلامية

في ظل المؤتمر الاسلامي التاريخي الاول الذي انعقد بالمغرب سنة 1969 ، وفي خضم حركة البعث الاسلامي المباركة التي يشهدها العالم الاسلامي ، دعا صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله الى انشاء جمعية الجامعات الاسلامية لتكون منظمة اسلامية عليا تنضوي فيها معاقل الفكر الاسلامي من جامعات وكليات ومعاهد اسلامية عليا في العالم الاسلامي .

وهكذا برزت الى الوجود هذه المنظمة التي قطعت اشواطا موفقة في ربط الصلة بين المؤسسات الاسلامية التعليمية ورعايتها والعمل على ازدهارها وتنشيط شعاعها الحضاري والفكري ، وهي الاهداف النبيلة التي خطها لها مولانا امير المؤمنين حين امر بتأسيسها .

وانعقد المؤتمر التأسيسي للجمعية بفاس في رجب 1389 (شتنبر 1969) ، تحت اشراف وعناية صاحب الجلالة ايده الله ، وحضره ممثلوا اكثر من عشرين جامعة ومؤسسة من مؤسسات التعليم العالي بافريقيا وآسيا . وقد انتخب الرئيس والكاتب العام من المغرب ، كما اختير المغرب مقرا للجمعية .

ومنذ تأسيسها تسعى الجمعية جادة الى تمتين عرى التعاون مع كافة الهيئات والمنظمات الاسلامية واحياء الفكر الاسلامي في وسط المثقفين .

وستعقد الجمعية مؤتمرها الثاني بالرباط من 11 الى 18 جمادى الاولى 1396 ، وتتجلى اهمية هذا المؤتمر الثاني في أهمية النقط التي سيتولاها بالدرس ، ومنها :

— رسالة التعليم الاسلامي وصلته بالتعليم العالي
— الدراسات العربية في الجامعات الاسلامية
— اعداد اساتذة الجامعات في العالم الاسلامي
— قضايا العالم الاسلامي وشؤون الدعوة الاسلامية
— توسيع وسائل النشر والدعاية للثقافة الاسلامية

وان جمعية الجامعات الاسلامية لسائرة على هدى من الله في الطريق التي رسمها لها مؤسسها وراعيها الاول صاحب الجلالة الحسن الثاني ايده الله ونصره ، وان مؤتمرها الثاني الذي سينعقد قريبا بعاصمة المملكة سيمكنها من الزيادة في تحقيق الغايات المرجوة والاهداف المثلى التي نسعى اليها جميعا .

فهرس العدد السابع

صفحة





مجلة شهرية
تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر





تصدرها:
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف
بالمملكة المغربية









العدد السابع – السنة السابعة عشرة
رجب 1396 – يونيه 1976

ثمن العدد:
3 دراهم

العدد السابع
السنة السابعة عشر
رجب 1396
يونيه 1976
ثمن العدد 3 دراهم



مجلة تصدرها
وزارة الأوقاف
والشؤون الاسلامية
بالمملكة المغربية

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالي :

مجلة «دعوة الحق» ـ قسم التحرير ـ وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ـ ص. ب 830 الرباط ـ المغرب .

الهاتف : 10-308

الاشتراك العادي عن سنة 30 درهما، والشرفي 100 درهم فأكثر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك في حساب :

مجلة «دعوة الحق» رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55 à Rabat

او تبعث راسا في حوالة بالعنوان التالي :

مجلة «دعوة الحق» ـ قسم التوزيع ـ وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية . الرباط ـ المغرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة، والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
في كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :

«دعوة الحق» ـ قسم التوزيع ـ وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ـ الرباط تليفون 10-308 ـ 03-327